13

الدكتور عبد الله ركيبي

دراسات في الفكر والثقافة

الهوية بين الثقافة والديمقراطية

دراسات أدبية ومقالات

الأعمال الكاملة



الدكتور عبد الله ركيبي

الهوية بين الثقافة والديمقراطية

دراسات أدبية ومقالات

الأعمال الكاملة





الدكتور عبد الله ركيبي

هو عبد الله خليفة ركيبي من مواليد جمورة عام 1928م ولاية بسكرة.

زاول تعليمه الإبتدائي بمسقط رأسه والمتوسط والثانوي في تونس أما تعليمه الجامعي والعالي فكان بجامعة القاهرة.

يحمل شهادتي الأهلية والتحصيل من الزيتونة بتونس وشهادات الليسانس والماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة "كلية الآداب"قسم اللغة العربية.

إعتقلته السلطات الفرنسية في معتقل (آفلو) بولاية الأغواط سنة 1956م ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في مدينة بسكرة ولكنه فر منها ليلتحق بجبل الأوراس معقل الثورة.

أرسله جيش التحرير الوطني إلى تونس ومنها أرسلته الحكومة المؤقتة في بعثة تعليمية إلى القاهرة سنة 1960م.

بدأ التدريس سنة 1967م بجامعة الجزائر "كلية الآداب" قسم اللغة العربية وترقى في سلك التدريس حتى أصبح أستاذ كرسي للأدب العربي الحديث.

أشرف على البحث العلمي بالقسم المذكور لمدة ثلاث سنوات وبقي عضوا في مجلس البحث العلمي حتى غادر الجامعة.

تخرج على يديه طلبة من الجزائر وأقطار عربية أخرى بالماجستير والدكتوراه وناقش العديد من الأطروحات بجامعة الجزائر دمشق حلب وغيرها...

حاز على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية.

ترأس نادي "الفكر العربي" الذي أنشأه مثقفون جزائريون بعد الإستقلال سنة 1965 م.

ترأس لجنة الفكر والثقافة بحزب جبهة التحرير الوطني.

أسهم في تأسيس إتحاد الكتاب الجزائريين.

له مؤلفات كثيرة في الأدب والفكر والثقافة.

د. عبد الله ركيبي

الهوية بين الثقافة والديمقراطية

(دراسات ومقالات)

دار الكتاب العربي





عنوان الكتاب	الهوية بين الثقافة والديمقراطية
اسم المؤلف	عبد الله ركيبي
رسوم الغلاف	لويزة الحسين
التصميم الفني	دار الكتاب العربي

الإيداع القانوني: 2009-3271 المكتبة الوطنية

ردمـك : 978-9947-833-63-6

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

الإهداء

إلى شهداء ثورة نوفمبر المجيدة، إلى الجيل الجديد، أمل المستقبل.

أهدي هذه الكلمات...

د. عبد الله ركيبي

مقدمة:

منذ مدة ليست بالقصيرة وأنا أنازع نفسي كي أجمع بعض ما نشرت من مقالات وأبحاث في دوريات وطنية ولكنني كنت أفكر في صعوبة البحث عن هذه المصادر حتى تغلبت على التردد أخيرا فاخترت نماذج من كتابات لي بعضها يعود تاريخ كتابته إلى عقدين من الزمن، والبعض الآخر حديث النشر. أما الهدف فهو حفظ هذه الكتابات من الضياع لأن الكتاب يمكن أن يعود إليه القارئ الذي لم يسعفه السن أو الظروف كي يطلع على ما كتبنا في هذه الفترة أو تلك أو الباحث الذي يريد أن يدرس أو يؤرخ لأفكار اهتم بها جيلي في تلك السنوات.

ورغم أن هذه الكتابات غالبا قديمة - كما ذكرت - فإن القضايا التي عالجتها مازالت حية وجديدة ومازلنا نخوض في الحديث فيها باستمرار. ثم هناك خيطا يربط بين محاورها لأنها تتصل بحياتنا الثقافية والفكرية والسياسية والحضارية.

فالدفاع عن الهوية أو صراع الهوية ما يزال يحركنا ويدفعنا إلى الكتابة بل يكاد يطغى على كثير مما دبجته الأقلام في العقود الماضية، ومازال الكتاب والأدباء والفنانون يعكسون في إبداعهم نظرتهم لهذه الهوية ورؤيتهم لمقوماتها وعناصرها ويعملون على

ترسيخها في العقل والوجدان والواقع ويعبرون عن إيمانهم بها وامتدادها عبر التاريخ.

ولا شك أن الثقافة هي التعبير الأصيل والحي عن هذه الهوية كما أن هذه الثقافة تعبر عنها لغتنا العريقة مثلما تجسدها أيضا عقيدتنا الروحية المتمثلة في الإسلام فضلا عن الوطنية والتراث الثقافي وبقية العناصر الأخرى التي تجعلنا شعبا ينتمي إلى أمة عظيمة وحضارة شامخة على مر الزمن.

من هنا كان المحور الأول منصبا على الثقافة، على المفهوم وعلى المثقف وعلى الواقع والمستقبل كما كان الرد على المتشككين في هذه الثقافة وفي عراقتها ودورها في الإبقاء على كياننا رغم أن الاستعمار الفرنسي حاول القضاء عليها بمختلف السبل والأساليب والمناهج.

والصراع الثقافي الذي نعيشه اليوم له جذور في الماضي، بل إن الماضي هو السبب فيما تعانيه ثقافتنا من تهميش وابتسار وتذبذب في الوظيفة وفي الرؤية وفي اضطراب النظرة وما يعانيه أيضا المثقفون الوطنيون من التجاهل والتغييب. أما خصوم هذه الثقافة فإن الغربة التي يعانون منها والاستلاب الذي حجب عنهم الرؤية التاريخية قد جعلهم هذا كله يتنكرون لجذورهم وتلك مأساتهم ومأساة الثقافة

معهم، لقد أدى بهم الأمر إلى معاداة الثوابت الوطنية وفي مقدمتها اللغة العربية التي هي عنوان هذه الثقافة ورمزها الأصيل. كذلك فإن التكامل الثقافي العربي هو الدفاع عن هويتنا الشاملة كما أنها تطلع إلى المستقبل الواحد.

أما المحور الثاني، فهو وإن كانت له خصوصيته فإنه أيضا يعكس الظروف الجديدة من ناحية وصلته بالهوية من ناحية أخرى، وأعني به تلك المقالات التي عالجت قضية الديمقراطية بعد أن أصبحت واقعا متجذرا بعد سنة 1988 . ولا شك أن هذه القضية التي أثارت الكثير من الجدل تعد مكسبا من مكاسب هذه الفترة رغم ما تعرضت له من نكسات، ولعل أكبر ما حققته هو أنها أماطت اللثام عن الخفي المجهول فأصبح معلوما وكشفت الستر عن الحقائق المرة التي طالما اعتبرت ناصعة لا تشوبها شائبة.

وفضل الديمقراطية أنها بينت من هو مع الثوابت ومن هو ضدها كما أنها أبانت عن اختلاف في مفهومها بين فئة وأخرى، بين فكر وآخر بل جعلتنا نعرف أن لها أنيابا يمكن أن تؤذي بها حتى أساتذة الجامعة كما حدث يوم 26 نوفمبر 1991 حين تعرض الأساتذة للضرب والإهانة - وأنا من بينهم - وهم يقفون في صمت وهدوء يطالبون بأبسط ما يطالب به مواطن في أي مكان في العالم. ومن هنا

يمكن أن نقول: إن الديمقراطية تحتاج إلى عقلية متفتحة وفكر مستنير حتى يتقبل الرأي المخالف. ثم إن هذا الحوار الذي ساد في تلك الفترة كان حوارا إيجابيا رغم أن هناك من استخدم الديمقراطية لضرب قيمنا ومبادئنا وعقيدتنا وثورة نوفمبر العظيمة بدعوى أو بأخرى. فالديمقراطية لا تعني التنكر للتاريخ وللحضارة كما تعني الارتماء في أحضان الآخر وإنما تعني أن نحترم الرأي ولا نصادره بالقول أو بالفعل. كما لا تعني أن نشكك في كل شيء فنخلق ثقافة الشك والتشكيك أو نحاول - مثلما فعل البعض - طمس المعالم الحضارية والمنارات التي جعلتنا من رواد الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

ويأتي المحور الثالث ليمثل ذاكرتنا، تاريخنا، ماضينا القريب سواء في انتفاضة 8 ماي 1945 أو ثورة نوفمبر 1954 ، فهذان الحدثان البارزان يمثلان قوة دفع لنا وللأجيال كما أنهما يستحقان أن نعود إليهما كلما أحسسنا بخطر يهدد وحدتنا ووجودنا أو اصطدامنا بعدو الأمس واليوم والغد، فالشعب الذي ينسى تاريخه مهما كانت صفحاته بيضاء أم سوداء هو شعب يستحق الرثاء وشعبنا لا يستطيع أن ينسى حتى ولو أراد ذلك.

إننا نؤمن بأنفسنا وبحضارتنا وبهويتنا ولكننا أيضا نحترم هوية الآخرين كما نؤمن بأن الحضارة من صنع الإنسان بقطع النظر عن الجنس والدين واللون وأن التقدم ليس حكرا على غيرنا كما أن التخلف ليس ضربة لازب لنا وأن الحضارات مند القدم حتى اليوم هي ملك للإنسان الذي أسهم فيها بالكلمة والفعل فدفاعنا عن هويتنا هو دفاع عن وجودنا وكياننا ومستقبل أجيالنا.

وإذا كانت الجزائر اليوم تعيش محنة مؤلمة جراء ما يقع فيها من أحداث رهيبة لم تعرفها طوال تاريخها الطويل فإنها ستكون تجربة - وإن كانت قاسية - لكنها ستزيدها حصانة مثل كل التجارب التي مرت بها كما أنها تمثل سحابة ستعبر سماءها طال الزمان أم قصر وستكون عبرة للأجيال القادمة.

د . عبد الله ركيبي

الجزائر في سبتمبر 1994

القسم الأول

عن الثقافة والمثقفين

- كلمة عن المثقفين وثورة نوفمبر
- الثقافة تعبير عن الشعب لا عن حزب من الأحزاب
- مرة أخرى تلغى وزارة الثقافة
- الثقافة مهمشة والمثقف مغضوب عليه
- رأي في حل الأزمة
- التواصل بين الأجيال
- التكامل الثقافي العربي.. الواقع والطموح..
- نحو مؤتمر عام للمفكرين العرب

كلمة عن المثقفين وثورة نوفمبر

في هذه الذكرى المجيدة التي نحتفل فيها بالعيد الثالث والثلاثين لثورة نوفمبر العظيمة، في هذه الذكرى تتدافع إلى أذهاننا أفكار كثيرة وتتزاحم الخواطر في نفوسنا وقلوبنا، وتحتدم المشاعر في أعماقنا، ونعود بذاكرتنا إلى تلك الأيام المضيئة المشرقة في حياتنا فنسارع إليها نحتمي بزخمها ونلوذ بنهرها المتدفق أبدا وينابيعها التي لا تنضب كي تبقى الحرية عالمية زاحفة مستمرة دون توقف...

هل هذا كلام إنشاء ندبجه في مثل هذه المناسبة؟ لا.. فكتابة الإنشاء وتحبير الكلام المنمق يحتاج إلى استعداد خاص لا يملكه سوى نوع من الناس، أما المثقفون الحقيقيون فلا يعرفون سوى الصدق فيما يكتبون أو يؤلفون أو يعبرون، فكيف عبروا أو أسهموا في الثورة؟ وكيف نظروا إليها؟ وكيف كان دورهم فيها؟

جالت بنفسي هذه الخواطر وأنا أتأمل ماضينا أثناء الزحف الطويل الذي بدأه شعبنا من قبل نوفمبر وترسخ بعده واستمر، وعدت بخيالي وذهني كما عدت بذاكرتي إلى ماض كان واقعا كما هو حالنا اليوم الذي سيصبح ماضينا أيضا. ما هي صورة المثقف أثناء الثورة، كيف نجسمها وننقلها للأجيال الجديدة التي لا تعرف عنها

شيئا وقد لا تتصورها أصلا لأننا في الواقع لم نقدم لها ما يساعدها على معرفة موقف مثقفينا ودورهم حين قامت ثورة نوفمبر 1954 .

يمكن أن نرصد هذا الدور - تسير للحديث وتبسيطا للرؤية - فنقول إن هناك المثقف بالداخل وهناك المثقف بالخارج ولكل منهما دوره. ولكن قبل الحديث عن ذلك لابد من الإشارة إلى أننا نقصد المثقف بوجه عام لا بالمفهوم الخاص أي لا نقصد ذلك المفكر والأديب والكاتب المنتج فحسب ولكن نقصد اللفظة العامة والشائعة في الفترة التي نتحدث عنها، فقد كان المفهوم حينئذ هو ذلك الفرد الذي نال قسطا لا بأس به من التعليم والتكوين والثقافة، وبهذا المفهوم ندرج المعلم والطالب والكاتب والأديب والسياسي المثقف والصحافي والإبداعي والفنان - كالرسام والمخرج وغيرهما - ممن يمكن أن يطلق عليهم هذا الوصف في تلك المرحلة.

والحقيقة أنه منذ اندلاع الثورة بادر هؤلاء المثقفون إلى الالتحاق بصفوفها سواء في الجبل أم في المدن والقرى وانضموا إليها عن طواعية واختيار، فالطلبة سواء في معهد بن بادي سام في المعاهد التابعة لحزب الشعب والمدارس الأخرى التابعة للحركات الوطنية آمنوا بالثورة وارتموا في أحضانها، كذلك الطلبة الذين كانوا يدرسون بالمدارس والجامعات والثانويات الفرنسية قد تركوا مقاعد الدراسة سواء قبل

الإضراب أم بعده والتحقوا بصفوف الثورة وآزروها ووقفوا معا نضالا ودعاية وكفاحا، كما كتب الصحافيون عنها وأحداثها وأيدوها حتى صودرت هذه الصحف الوطنية واعتقل أصحابها أو صحافيوها وكتابها.

وهناك المثقفون المعتقلون والمسجونون الذين اضطهدتهم السلطة الفرنسية الاستعمارية وأذاقتهم مرّ العذاب وزجت بهذه الفئة المستنيرة من أساتذة ومعلمين ومحامين وصحافيين وأطباء إلى جانب الزعماء السياسيين والمناضلين في سجونها الرهيبة، ويكفي أن نذكر أن أجمل القصائد التي كتبها مفدى زكريا وأشدها وقعا على الاستعمار وأعوانه خرجت من سجن "بارباروس" أو "سركاجي" كذلك قصائد محمد العيد أيام اعتقاله وقصائد سحنون وأحمد عروة وألحان هارون الرشيد وغيرهم من المبدعين مثل بوشامة والعمودي وبقية قائمة الشهداء من الأدباء مثل حوحو وفرعون والعقون وغيرهم ممن دفعوا ضريبة الدم أو الاعتقال والعذاب من أجل أن تبقى الثورة وتحقق أهدافها فضلا عن دور المثقفين داخل المعتقلات والسجون في توعية المناضلين المعتقلين من عمال وفلاحين ومواطنين ينتمون إلى فئات أخرى.

ولا ننسى الأدباء والشعراء الذين صعدوا إلى الجبل وناضلوا في صفوف جيش التحرير الوطني وكتبوا أشعارا جميلة تنوه بالثورة والثوار أمثال أحمد معاش والشبوكي وغيرهما ممن لا تسعفني الذاكرة بالإشارة إليهم وهذا غيض من فيض كما يقال. إلى جانب الشهداء من الطلبة والمثقفين الذين اغتالتهم السلطة الاستعمارية الرسمية أو عصابة " اليد الحمراء" فهؤلاء يحتاجون إلى بحث طويل كي نعرف بهم وبموافقتهم وبطولاتهم أثناء الثورة.

أما المثقفون في الخارج فإن دورهم لا يختلف عن دور إخوانهم في الداخل، فالطلبة كانوا يدرسون بالجامعات العربية أو أوربا جندوا وراء جبهة التحرير وأصبحوا من دعاتها وأنصارها وانضموا إلى خلاياها يناضلون في صفوفها بالكلمة أو بالفداء أو بالموقف، وقد لعبوا من خلال "اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين" دورا بارزا في المجالين العربي والدولي بحيث رفعوا صوت الثورة في المحافل الطلابية ودافعوا عن حق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال كما فضحوا ألاعيب الاستعمار وردوا على دعاياته الكاذبة وادعائه بأن الجزائر جزء من فرنسا ، فضلا عن دورهم في تنظيم صفوف الطلبة والتفافهم حول الشعب والثورة.

وقد أتيح لي أن أشرف على فرع القاهرة التابع للاتحاد وأن ألمس بنفسي دور الجبهة وجندتها للوقوف إلى جانب الثورة.

وإلى جانب هؤلاء الطلبة والمعلمين الذين كرسوا جهودهم لتكوين المواطن في الخارج تحت لواء جبهة التحرير الوطني يأتي دور الكتاب والأدباء والفنانين والصحافيين والإذاعيين الذين عبروا عن الثورة وعن النضال الوطني كل في مجاله، بالشعر والقصة والرواية والمسرحية والمقالة الكلمة المذاعة عبر الأثير، ومن هؤلاء من كان يكتب أو يذيع دون ذكر اسمه إمعانا في إنكار الذات لأن المهم بالنسبة إليهم هو خدمة الثورة بل إن الكثيرين منهم كانوا لا يتقاضون أجورا على ما يكتبون أو ينتجون .. كانوا يكتبون في "المجاهد" أو "المقاومة" قبلها أو في الصحف والمجلات العربية أو الأجنبية ومنهم من كان يتحدث بصوت الجزائر من " صوت العرب" بالقاهرة أو من تونس أو غيرها وعملوا على أن يبقى صوت الجزائر عاليا في المحافل العربية والدولية وفي المؤتمرات الأدبية والثقافية التي كانت تقام هنا وهناك، وسنظل نذكر دائما اعتزازهم بوطنهم وعروبتهم وحماسهم للثورة سواء منهم من كان يكتب باللغة الوطنية أو أولئك الذين كانوا يكتبون باللغة الأجنبية.

إلى جانب هؤلاء جميعا هناك مثقفون عرب وأجانب وقفوا إلى جانبنا أيام نضالنا ضد المحتل وقد أتيح لنا أن نعرف كثيرا من الأدباء والصحفيين العرب خاصة بالمغرب أو بالمشرق العربيين ورأينا كيف كان حماسهم للثورة ودفاعهم عنها وكأنها ثورتهم، كتبوا عنها في الصحف والمجلات وألفوا دواوين الشعر والقصص والروايات وأخرجوا الأفلام السينمائية عن بطولات شعبنا وكفاحه العادل وتحدث الكثير منهم في المؤتمرات منوهين بنضال الجزائر وحقها في الحياة والحرية بل شاركوا في المظاهرات والندوات التي كانت تعقد تأييدا للثورة هنا وهناك من أرجاء أمتنا . فتحية للجميع في هذه الذكرى الغالية المجيدة وتحية لأولئك الذين يواصلون النضال من أجل الكلمة الصادقة والدفاع عن الحرية وكرامة الإنسان.

الثقافة تعبير عن الشعب لا عن حزب من الأحزاب

إن وضع الثقافة الآن في بلادنا مجمد إلى شعار آخر لأن كل القنوات مجمدة مادامت القناة الأساسية - وهي وزارة الثقافة - قد ألغيت وهي التي كانت توجه السياسة الثقافية - على الأقل في الظاهر - من خلال تطبيق النصوص المستمدة من المواثيق والمؤتمرات والندوات التي أشرفت عليها جبهة التحرير الوطني وصادقت عليها في مناسبات مختلفة بصرف النظر عن النتائج التي تحققت، وبقطع النظر عن النوايا التي كانت طيبة وتحدث عنها المثقفون في السنوات الماضية سواء قبل أحداث أكتوبر أم بعدها، بل وتحدث عنها المناضلون على اختلاف مستوياتهم وتجاربهم وقناعتهم.

واليوم وقد وصلنا إلى هذا الوضع المحزن فيما يتصل بالثقافة في هذه المرحلة التي كثر الحديث فيها عن الحرية والديمقراطية، نسأل أنفسنا: ما هي الثقافة التي نبحث عنها؟ وما هي آفاق المستقبل؟

هذه الأسئلة وغيرها يمكن أن تدور بأذهاننا ليس فقط لأننا مهتمون بالثقافة ولكن لأننا مواطنون أولا وأخيرا. وفي تقديري الخاص ليس هناك مبرر كيفما كان لأن تلغي مؤسسة الوزارة..

حقا نحن مع الديمقراطية، مع الحرية، مع إعادة التنظيم نحو الأفضل، مع كل ما يخدم المصلحة الوطنية من قريب أو بعيد، مع ما يسهم في تنمية الثقافة وتطويرها وازدهارها ونشرها على نطاق واسع بين كافة أفراد الشعب مثلها مثل الخبز والعلاج والتعليم، ولكننا ضد الثقافة التي تخدم طائفة معينة أو طبقية أو جهة ما حتى ولو رفع باطنها ضرر وتشتت وتراجع... *

نحن في حاجة ماسة إلى ثقافة أصلية متجددة في الوقت نفسه تعبر ذاتنا، عن هويتنا، عن واقعنا، عن آمال الأجيال الجديدة، بين خصوصيتنا وبين المتغيرات التي تحدث في العالم من حولنا وبالطبع فإن من يحقق ذلك هم المؤمنون والقادرون والواعون بهذا كله.

ومن هنا فإن ثقافة لا لون لها ولا عقل يحركها ويوجهها تصبح خطرا على المجتمع وعلى وحدته، فللحرية حدود هي المصلحة الوطنية العليا، والفرد حر ما لم يعتد على حرية الآخرين، والثقافة قيمة وطنية وفكرية واجتماعية وإنسانية بالطبع فإذا خرجت عن هذه الحدود فإنها تضر بالمجموع. صحيح أن المنتج أو المبدع فيها فرد ولكنه فرد يعيش في شعب، في جماعة، في وطن، في بيئة معينة... هو جزء من

---

* هذا رأي أبديته في حوار أجرته «المساء» الجزائرية 23 جانفي 1990 مع عدد من رجال الفكر حول الثقافة بعد قرار إلغاء وزارة الثقافة وكيفية تسيير هذا القطاع مستقبلا.

كل فحريته مرتبطة بحرية الآخرين وبتاريخهم ومستقبلهم، وحين نؤمن بذلك كله علينا أن نخطط لثقافة المستقبل ولآفاقها.

أما الجانب الثاني من الموضوع وهو علاقة الثقافة بالسياسة، فإن هناك من يتصور أنها علاقة تبعية وما دامت السياسة قد تعددت وتنوعت مشاربها فإن هناك من يتصور أنها علاقة تبعية وما دامت السياسة قد تعددت وتنوعت مشاربها فإن الثقافة ينبغي بدورها أن تتعدد وتتشكل حسب التشكيلات السياسية فهل هذا صحيح؟؟

لا أظن أن الثقافة ينبغي أن تكون تابعة للسياسة وبلورتها أي في "تعقيلها" إن صح التعبير ومن ثمة فإن الثقافة عامل وحدة بينما السياسة - غالبا - ما تكون عامل فرقة أو على الأصح عامل اختلاف في الرأي والمشرب والنزعة.. فلو فصّل كل حزب الثقافة على مقاسه الخاص فماذا يبقى للشعب من خصوصية أو هوية؟

فلننظر حوالينا وفي جميع الجهات إلى الشعوب هل نجد ثقافة تعبر عن حزب أم نجد ثقافة تعبر عن شعب، هل يقال ثقافة الحزب الفلاني أم ثقافة الأمة الفلانية؟ وهكذا... ولقد ذكرت في مناسبات مختلفة أن التنوع مطلوب ولكن في نطاق الوحدة الوطنية، هذه هي الثوابت التي يجب أن تبقى ولا تتأثر بالنزاعات الفردية أو الحزبية أو الطائفية. وعلى المعنيين بالأمر أن يضعوا في حسابهم هذه القضية حين

يناقشون أو يخططون للثقافة أو ما يتصل بها. واعتقد أن هذه الثوابت لا تحتاج إلى تكرار القول فيها ولكن ما يحتاج إلى الحوار هو كيف نثريها ونعمقها ونذيعها بين أفراد الشعب ونفتح القنوات المختلفة ونشجع المبدعين من شعبنا الذين يسهمون في تطوير هذه الثقافة التي تطمح إلى التعبير عنا وعن أحلامنا وعن آمال الجماهير العريضة.

هل نحن في حاجة إلى ضرب الأمثلة للثقافة ودورها في تقدم الشعوب؟ وهل نحن في حاجة إلى أن نقلد غيرنا؟

أعتقد أن لنا من التجارب ما يساعدنا على فهم ما نحتاجه من الثقافة وما هي التي تناسبنا. ثم إنه في هذا المجال لا ينفع التقليد ولكن يفيد التأثر كما يصح التأثير وهذان لا يتحققان إلا بثقافة حقيقية شاملة لكل فروع المعرفة، لها أصولها المعروفة وأهدافها الواضحة التي يعمل الجميع على تحقيقها وإنجازها وتصبح علامة مميزة لهم عن غيرهم، تنتسب إليهم حين يأتي ذكرها وتثار القضايا التي ترتبط بها وبشعبها وبممثليها. فهل نطمح في نظرة جديدة لهذه الثقافة ولمستقبلها؟؟ وهل تخرج ثقافتنا من هذا النفق الذي تعيش فيه الآن؟ ذلك ما يجيب عنه المستقبل بإذن الله.

مرة أخرى تلغى وزارة الثقافة

في المرة السابقة حين ألغيت وزارة الثقافة كتبت مقالا - كان الأول في ذلك الوقت - أعارض إلغاءها رغم أنها عوضت بمجلس للثقافة، أما هذه المرة فهي لم تعوض بأية مؤسسة أخرى ولم نر مبررا لهذه المصادرة. قيل فيما سبق أن الثقافة لا تحتاج إلى بيروقراطية تعطلها وتعوق تطورها وانتشارها، في حين أن المطلوب هو الإنتاج الثقافي وهذا ما يقوم به المثقفون، ولكننا اليوم نرى سكوتا عن الإلغاء الأول؟ لا شيء ... وها نحن في نهاية المطاف نعيش بلا وزارة للثقافة وعلى ماذا يدل ذلك؟

في تصوري أن هذا الموقف ضد الثقافة وهو موقف مسبق يؤكد الأزمة التي نعاني منها، وما هو التفسير المقبول لهذا الموقف؟ يبدو لي أن هناك إبهاما مقصودا يشير إلى أمل مفقود أوجدته جهات معينة كي تبقى الثقافة والمثقفون في حالة انتظار وتساؤل: هل تعود أم لا تعود؟ تلك هي المسألة.

وبين الأمل والتفاؤل والترقب ضاعت الثقافة وضاع المهتمون بها، هل هذا يدل على موقف عدائي تجاهها وتجاه أصحابها؟ على أن

السؤال الذي يثير بدوره أسئلة أخرى تتفرع عنه هو: لماذا نجد الثقافة دائما هي التي تتعرض للغموض والتهميش منذ الاستقلال حتى الآن؟

لماذا يحدث لها ذلك في بلادنا وحدها دون سائر البلدان؟ ثم لماذا يستبعد المثقفون في أي وضع تتعرض له البلاد؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من العودة إلى الماضي، فقبل الثورة كانت العناية بالتعليم - إلى حد ما - في جانب وكان الاهتمام بالتكوين السياسي في جانب آخر. واستمر الوضع أثناء الثورة فكانت البعثات التعليمية ترسل إلى الخارج وكان اهتمام أفرادها بالثقافة يحدث بمبادرات ذاتية وحسب ظروف البلدان التي ذهبوا إليها، أما اهتمام المسؤولين فكان بالتكوين السياسي والنضالي للمواطنين في حدود الإمكانات المتاحة والمرحلة التي مر بها شعبنا آنذاك ولكن الثقافة بمفهومها العام والمعروف فكانت ضعيفة جدا.

وبعد الاستقلال كان المفروض أن يتغير الحال، ولكن هذا التغيير وقع بالنسبة للشكل لا الجوهر، فالثقافة فوق أنها تابعة للسياسة من ناحية التوجه فقد كانت تابعة للإدارة من ناحية الإشراف والتسيير، والمراحل التي مرت بها المؤسسة الثقافية تبرهن على ذلك.

ففي البداية كانت تابعة للتربية الوطنية سواء بمفهومها هذا أم بمفهوم" الإرشاد القومي" كما سميت في أول الأمر، ثم أصبحت تابعة

للإعلام ثم ألغيت بعد أحداث 1988 وعادت بعد تابعة للإعلام من جديد وفي آخر المطاف ألغيت ولسنا ندري ماذا سيحدث لها بعد هذه المرحلة وماذا يبيت لها من تسميات أخرى؟

وهنا نعود إلى السؤال السابق، لماذا هذا الموقف؟ في الواقع أن الظروف والمراحل التي أشرت إليها تدل بلا شك على الثقافة بمفهومها الذي يجعلها دعامة مثلى في حياة الشعب تأتي في آخر السلم من حياتنا بل هي في أسفل السلم الاجتماعي والإداري والروحي أيضا فضلا عن السلم المادي.

إن التجارب التي تعرضت لها طوال الفترات السابقة تنبيء عن نظرة فيها من الارتجال الشيء الكثير وقد تكون تعبيرا عن دافع يرتبط بالشخص وبالمصلحة الآنية أو ذر الرماد في العيون، وقد يكون ناتجا عن عدم الفهم لوظيفة الثقافة في المجتمع وفي الحياة كلها.

على أننا يمكن أن نفسر الأمر بشيء آخر وهو أن الإلغاء قد يكون مقصودا لغرض زرع البلبلة والفوضى والاضطراب حتى يحدث الفراغ فيتسنى لأفكار معينة أن تسود وتطغى على الساحة الوطنية ويصبح الفضاء فارغا يمكن أن يملأ بأي شيء، كما يمكن لأي فرد أو جهة ما أو فئة معينة أن تحدث لها ثقافتها الخاصة فتضيع الثقافة الوطنية الموحدة للتاريخ والرؤية الحضارية الواحدة التي

تشكل الضمير الوطني الواحد بحيث يتعمق الإحساس بالوطنية الحقة ونضيف خبرات الماضي إلى الحاضر ويتحقق بذلك الانسجام في المجتمع .

إن هذه الأفكار تراود من يقلب الطرف في الوضع الثقافي الحالي وقد يذهب به التأويل أو الخيال إلى آفاق أخرى تبعث على التشاؤم والسخط واللحظة الحالية تعطيه المبرر حين يشاهد الوضع الثقافي التعس الذي نعاني منه في هذه الفترة القلقة الحرجة المليئة بالمفاجآت.

إن إلغاء أية مؤسسة فاعلة ومؤثرة في المجتمع يترك فراغا حقيقيا كما ذكرنا يمكن أن يدنس فيه غرباء عن المؤسسة فيملأونه بما يشاؤون من أفكار وتجارب بعيدة عن واقعنا وعن حضارتنا وتاريخنا بل بعيدة عن أشواقنا وأحلامنا.

ولا شك أن هذا ينعكس سلبا على الأجيال القادمة، فإحساس الشباب بالفراغ الثقافي والفكري والحضاري يخلق في وجدانهم نوعا من التنكر والازدراء لقيمهم ومثلهم فيسخطون على من سبقوهم لأنهم لم يتنكروا لهم تراثا يسندهم وينمي إرادتهم في الحياة وإحساسهم بها.

وقد يضطرهم هذا .إلى البحث عن تراث آخر لتعويض هذا النقص وبذلك ينقطع الجيل الجديد عن أمجاده ومعارفه المتصلة

بماضيه ويسقط في هوة " الاستلاب" الذي نتحدث عنه باستمرار. فالمؤسسة كما أنها لا تصنع ثقافة لا تصنع أيضا مثقفا أو مبدعا ولكنها تنظم الجهود وتشجع الإبداع وتسهل الأمر للذين تؤرقهم الثقافة، حين تلغى المؤسسة فمعنى هذا أننا ألغينا الجانب الروحي وتركنا الجانب المادي وحده هو المبدأ والمنتهي للفرد والمجتمع.

ثم هل يمكن أن نتحدث عن مشروع وطني كما نزعم بدون أن يكون لنا مشروع ثقافي حقيقي؟ وهل يمكن أن نتحدث عن تقدم علمي بدون ثقافة؟ من الخطأ أن نتصور مجتمعنا جديدا متطورا بدون ثقافة إلا إذا غيرنا مفهوم التاريخ والإنسان للثقافة، وهل نحن قادرون على ذلك؟؟

ثم ألا يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك في تصورنا لنتائج إلغاء الوزارة بأنه في غير صالح اللغة الوطنية، لأنه من المفروض أن تخدم

الثقافة اللغة العربية وأن ننشر المعارف بها من مؤلفات ودوريات وفنون ومسرح وسينما وغيرها من وسائل المعرفة والتثقيف، فإذا جمدنا المؤسسة فقد جمدنا هذا كله وجمدنا دور العربية في حياتنا الروحية كلها.

ولاشك أن الثقافة تراكم في هذه المجالات كلها فإذا تركنا المجال للأفراد وحدهم دون مؤسسات تشرف وتنظم دور الشعب

والمجتمع فكيف ننتج تراكما كما وكيفا ثم إبداعا متواصلا؟؟ على أن التراكم ثم الإبداع والتنوع، كل ذلك هدفه هو معرفة الحياة والنزوع إلى المستقبل وفي نهاية شعور الفرد والمجتمع بهويته واعتزازه إلى المستقبل وفي النهاية شعور الفرد والمجتمع بهويته واعتزازه بحضارته، فلا هوية بدون تراكم وبدون تنوع في التجربة تطور في المعالجة أيا كان الشكل الذي نبدع فيه وبه.

وهذه الهوية التي نتحدث عنها تتمثل في ثوابت وطنية نسمع الكلام فيها صباحا مساء ولكن هذه الثوابت إذا لم نربطها بحضارتنا العربية الإسلامية تبقى مجرد شعارات جوفاء نرددها بلا محتوى، هذه الثوابت إذا لم تجسدها ثقافة عربية إسلامية تبقى مشاعر أو عواطف تدغدغنا دون أي أثر لها في نفوسنا ومستقبلنا بل قد تصبح كلمات بلا مضمون أو مفهوم خاصة إذا كان الغرض هو تغطية العجز أو تمييع المفاهيم لأن المهم في الحياة هو الفعل لا القول، وهذه محنة الثقافية في بلادنا: القول الكثير والفعل القليل.

ولو أردنا أن نعرف سياستنا تجاه الثقافة ماذا نجد؟ نجد نصوصا كتبت في الماضي وهي نصوص سليمة من حيث التعبير والصياغة ولكنها لم تحقق كما ينبغي لأن من يطبقها هو الذي يفسرها حسب

هواه أو قناعته أو فهمه أو توجيهه الإيديولوجي، ومن ثمة نرى هذه الذبذبة المستمرة إزاء الثقافة، مرة تتقدم وأخرى تتأخر، تهرب للأمام حينا وتتوقف حينا آخر، نؤسس ثم نلغي، ننشئ المؤسسة ثم نهدمها، نخطط ثم نشطب ما خططناه وكأنه قد كتب علينا أن نعيش ثنائية عجيبة وسط الآخرين (!) والأمثلة كثيرة على هذا، فقد ألغينا وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بعد أن كانت تابعة للتربية الوطنية ثم استبدلت بوزارة منتدبة ثم بوزارة للجامعات ثم ضمت إلى التربية كما كانت بعد الاستقلال، ثم عين كاتب دولة للتعليم العالي وكتابة للبحث العلمي وأخيرا عين وزير منتدب للتعليم العالي، ولست أدري ماذا سيحدث لهذه المؤسسة أيضا بعد تهمة التسمية؟؟ وقس على ذلك في مجالات أخرى، ولكن الثقافة والتعليم العالي نالها من هذا التجريب أكثر من غيرهما فيما أتصور لأنهما الركيزة الأساسية في دعم الهوية والشخصية الوطنية، فهل حظها هذا التجريب المستمر الذي أثر في مردودهما وفي الأجيال الجديدة التي لم تجد خطا محددا واضحا ورؤية سليمة؟؟ وهل سوء الحظ سيطارد هاتين المؤسستين إلى مالا نهاية؟؟!

أعتقد أن الأسئلة المطروحة لم نجب عنها بدقة، ماذا نريد من الثقافة والتعليم العالي؟؟ وماذا حققنا وماذا بقي علينا أن نحقق؟؟ وما هدفنا بالضبط؟؟ وماذا حقق هذا العنوان أو تلك التسمية أو لم تحقق

الأخرى؟؟ وهل هذا التغيير مبني على ضرورة ماسة أم تقليد أو قل تقليص أم هروب أم ضيق في النظرة؟؟

تلك أسئلة وهناك عشرات غيرها تحتاج إلى إجابة من المعنيين بالأمر سواء كانوا مسؤولين أم مثقفين أم مربين. ولو قارنا بين إلغاء وزارة الثقافة في الماضي وبينه حاضرا فسنرى أن المثقفين أصبح رد فعلهم في حدود ضيقة، ربما لأنهم في الماضي ثاروا وناقشوا وانفعلوا أما هذه المرة فقد يئسوا أو أحسوا بالتشاؤم بعد أن تعودوا على إهمال الثقافة والمثقفين بحيث يصبح الإلغاء أو الوجود سيان، وهذا قد يكون بداية لموقف نكوص يسلمنا إلى التراجع والتعود على عدم رد الفعل وقد يكون سببا في انطواء مروع على الذات!!

ويحضرني الآن رد فعل المثقفين المصريين في الآونة الأخيرة حين أصدر وزير المالية قرار بإضافة ضريبة على الورق، فثارت ثائرة المثقفين وفي مقدمتهم وزير الثقافة وحدث جدال حاد مازالت آثاره تتردد حتى الآن، لأن هذا القرار سيضاعف من سعر الكتاب مما يؤثر على المؤلف والملتقى معا وعلى الإنتاج الثقافي عموما في مصر وبالتالي يؤثر على مكانة مصر الثقافية بل إن المؤلفين بدأوا هم والناشرون يلتجئون إلى الخارج للاتفاق على نشر وطبع مؤلفاتهم وما تزال الضجة كما قلت – قائمة حتى هذه اللحظة بل إنها تتسع يوما بعد يوم. فماذا

نقول نحن وقد توقف عندنا الكتاب منذ فترة طويلة والدوريات تظهر وتختفي وكدنا ننسى الفيلم والمسرحية والمعارض الفنية فضلا عن الملتقيات والندوات الأدبية والثقافية التي كانت وزارة الثقافة التي كانت وزارة الثقافة تسهم بشكل أو بآخر؟؟

ففي الخارج لا تلقى المسؤولية على المثقفين كي يتهرب المسؤولون منها ولا المثقفون يلقون بها الوزارة لأن الذين يشرفون عليها هم مثقفون بالأساس، كما لا تلفى المسؤولية على الشعب لأنه يقرأ ويناقش وينتقد ويحكم، فأين نحن من هذا كله؟؟!

لو كان لي أن أقترح رأيا يمكن أن يخرجنا من هذا الغموض ويساعدنا على تجاوز الأزمة أو المأزق الذي تتخبط فيه الثقافة لاقترحت لجنة وطنية مؤهلة كتلك التي تدير الحوار في المجال السياسي تجتمع هي الأخرى بالمعنيين بالأمر فيناقشون الوضع الثقافي المتردي الحالي لعلنا نجد مخرجا مما نحن فيه من بؤس ثقافي قل أن عرفة غيرنا ونضع بذلك حدا لإهمال الثقافة وتهميش المثقفين لأنه بدون ثقافة لا مستقبل لأجيالنا.

وبعد، عندما نطالب بعودة الوزارة فنحن لا ندعو إلى تدخل الدولة فهذا مرفوض قطعا لكن نطالب الدولة بالإسهام في التنمية الثقافية لدعم المثقفين والمبدعين وحمايتهم وحماية حقوقهم المادية

والمعنوية وتشجيع المبدع في شتى المعارف الإنسانية كي نبني ثقافة وطنية أصيلة تعبر عن وجودنا وعن أحلامنا وهويتنا العربية الإسلامية.

الثقافة مهمشة والمثقف مغضوب عليه !!*

أعتقد أن المثقف الجزائري لم يغب نهائيا في هذه الفترة، فالحكم على الجميع فيه إجحاف لبعض المثقفين الذين عبروا عن رأيهم في الأحداث الجارية بشكل أو بآخر. فهناك من كتب أو تحدث أو عبر عن رأيه وموقفه بصورة من الصور وفي المناسبات المختلفة وخاصة حين تتاح الفرصة لحديث أو الحوار مع المسؤولين أو غيرهم.

صحيح أن المشاركة ضعيفة نسبيا بالقياس إلى الماضي أو بالنظر إلى المرحلة الخطيرة التي تمر بها بلادنا منذ السنة الماضية حتى الآن.

ومع ذلك فإن المثقفين لم يغيبوا وإن كانوا لم يكتبوا دراسات واسعة عما يجري في الوطن ولكنهم اقترحوا في كتاباتهم حلولا حسب اجتهادهم وفهمهم ونظرتهم.لقد سبقوا كثيرا من المتهمين في الدعوة إلى الحوار الوطني الشامل منذ أن تأزمت الأمور في السنة الماضية كما دعوا إلى العودة إلى الشعب حين تتأزم الأمور.

على أن التقصير هنا - كما يفهم من السؤال- لا ينطبق على المثقفين الوطنيين ولكن ينطبق على أولئك الذين يأكلون على الجميع

---

* هذا رأي نشرته لي مجلة «المجاهد» الأسبوعية ردا على سؤال حول غياب المثقف عن الساحة.

الموائد أو يترقبون الفرص ليملئوا الساحة صراخا وضجيجا، أو أولئك الذين لا يحلو لهم سوى أن يهاجموا ما يجري في بلدهم من وراء البحر عندما يركبون الطائرة ويجلسون على موائد أعدت لهم خصيصا

ويتشدقون بكلام تنقله التلفزة والإذاعة أو تسجله الصحف هناك في بلاد يزعمون أنها بلاد الحرية والإخاء والمساواة!

إنني أعني المثقفين الملتزمين الوطنيين الذين يعيشون محنة الوطن ويتألمون مع الشعب في صمت أو يتكلمون ولا أحد يسمعهم، فهؤلاء إن سكتوا فليس لأنهم لا يبالون ولكن لأن هناك ظروفا خارجة عن إرادتهم. من هذه الظروف أو العوامل أن المثقف عندنا - غالبا - لا يلقى الاهتمام برأيه بل قد لا يقرؤه من يعنيهم هذا الرأي أو الاقتراح لأن الثقافة مهمشة وصاحبها مغضوب عليه حتى ولو لم يكتب كلمة، خاصة ذلك الذي لا ينحاز إلا للوطن وتاريخه وهويته ولا يرتبط بجهة ما أو بحزب ما. فهذا المثقف المستقل في الرأي والفكر والموقف لا يستشار فضلا عن أن يؤخذ برأيه، ولعل هذا من الأسباب التي تجعله يصمت لأنه يعرف سلفا أن كلامه لا يسمع وأن رأيه لا يؤثر.

وهناك عامل هام جدا يتصل بالمنابر التي يمكن أن يعبر من خلالها هذا المثقف الذي أشرت إليه، فهذه المنابر ترتبط بجهات رسمية

أو حزبية في الغالب، فلو عبر من خلالها لوضع في خانة معينة، لأننا نعيش مرحلة كثر فيها اللمز والغمز وشاع فيها التأويل للمواقف والأقوال. فالغريزة حين تتضخم أو تطغى على الفرد أو المجتمع فإن المنطق والتحليل والموضوعية كلها تتوارى وراء العواطف الصاخبة التي تسود نفوسنا ونظرتنا ورؤيتنا للأمور.

ومن هنا نلحظ ظاهرة الشك التي تسود حياتنا ونلحظ المبالغة التي تسيطر على أحكامنا وتفسيراتنا لما يجري أو يقع من أحداث في بلادنا، فكثرت الأسئلة التي لا يقصد منها الفهم أو المعرفة ولكن يقصد منها التشكيك في كل شيء في الهوية، في الماضي، في التاريخ، في القيم والثوابت. وهذا الوضع يدفع المثقف إلى الانزواء خوفا من أن يكون حطبا لنار لم يشعلها أو يشارك فيها أو لم يندب مع الذين يبكون بكاء هم في الحقيقة سببه.

ثم هناك سبب آخر لهذا الصمت - كما أتصور - وهو حالة الطوارئ التي تعيشها البلاد منذ بداية السنة الجارية، فقد أثرت في الجميع وفي المثقفين بصورة خاصة ويبدو أن تطور الأحداث التي اتسمت بالعنف العميق والألم الفظيع الذي ضغط على نفسه وروحه وفكره مما أفقده حتى لذة الكتابة التي هي ملاذه الوحيد في الحياة، إلى جانب عوامل وملابسات أخرى كثيرة بعضها يتصل

بالمثقف المواطن أو بالمجتمع أو بالظروف المختلفة التي تخنق صوت العقل والضمير في هذه اللحظات الحرجة التي يمر بها وطننا.

أما دور المثقف في هذه المرحلة فإنه دوره في كل الظروف والأحوال، وإن كان دوره اليوم يضاعف من مسؤوليته، فإذا كان بالأمس قد اهتم بالتوعية وتعميق الروح الوطنية والدفاع عن الهوية وعمل على ترسيخ القيم التي ناضل من أجلها الشعب الجزائري والأجيال السابقة، فإنه اليوم مطالب بأن يدافع عن المستقبل وعن مصير الأجيال، فهناك تهديد حقيقي للمستقبل إذا لم نتفطن لما يحيكه أعداؤنا في الخارج لنا ولبلادنا.

فمسؤولية هذا المثقف تتجاوز ممارسته لمهنته أيا كانت إلى التبصير بالواقع وبالغد، وهذا لن يتم إلا إذا ساد منطق العقل في حياتنا بحيث يكون هو الحكم والملجأ والمنطق، وهذه هي مهمة المثقف الآن حتى لا تسيطر الأهواء والمصالح الفردية، وهي مهمة ليست سهلة ولا ميسورة في هذا الظرف الصعب الذي يسود فيه الانفعال الطاغي وينتشر العنف اللفظي والمادي والسياسي أيضا.

وأعتقد آن المثقف الوطني النزيه المخلص يستطيع ذلك لا لأنه يتمتع بالرؤية الصافية للأمور ولا لأنه يملك القدرة على الإفصاح والإبانة، ولكن لأنه فوق ذلك كله ليست له مصلحة خاصة سواء في

الحكم أم في غيره. فهو لم يستفيد في الماضي ولم يصارع من أجل هذه المصلحة - كما فعل غيره - ولا أظن أنه يسعى لذلك مستقبلا فقد كان قبل الثورة وأثناءها عامل بناء ووحدة كما كان صوت الشعب والعقل والضمير. لذلك فإن مسؤوليته اليوم ضخمة وكبيرة وليس من حقه أن يسكت أو يجامل ولكن عليه أن يقول ما يعتقد أنه الحق والصدق والخير للشعب وللوطن، وما أصعب المسؤولية وأشقها في هذه المرحلة!

وفي الأخير يمكن أن ألخص رأيي في كلمات قليلة وهي أن أزمتنا في الصمت والعنف وسوء التأويل، وعلاجها في المحبة والحوار والرجوع إلى تجارب الماضي وإلى التاريخ وأن نتأمل ذلك جيدا حتى لا يفوت الأوان.

راي في حل الازمة

جرت العادة عندنا أن المثقفين لا يؤخذ برأيهم سوى فيما له صلة بالفكر والمعرفة والتربية والتعليم، أما السياسة فلا حق للمثقف في إبداء الرأي فيها لأنها من اختصاص الآخرين، فهو في رأيهم لا يفهم فيها مثل ما يفهمون حتى باتت حكرا على طائفة ولو أنها لم تقرأ كتابا واحدا فيها وفي علومها لأن السياسة علم تفكير واجتهاد إلى جانب أنها حكم الآخرين لا شعارات أو مصطلحات أو ترديد كلمات، كما أنها ليست مجرد ممارسات أو أفعال بدون قراءة للواقع أو التاريخ.

ثم إن المثقف مواطن له الحق في إبداء الرأي لأنه حساس أكثر من غيره يؤمن بفكر أو منهج معين فهو مسؤول عن قول ما يؤمن به، وغالبا ما تكون أحكامه بعيدة عن الهوى والغرض والذاتية فهو يصدر في هذا الرأي عن تأمل موضوعي لا عن احتراف سياسي يسخره لخدمة حزب أو فرد أو مصلحة آنية بحكم أنه مستقل في الرأي أو المفروض أن يكون كذلك وإن لم يكن مجردا من التعاطف أو الإيمان بقناعة معينة وهذا لا يتناقض مع نظرية الموضوعية للواقع أو الحياة.

ولذا فإنني قررت أن أبدي رأيا متواضعا في الأحداث التي تعيشها بلادنا منذ أكثر من شهر ولا أعبر في هذا إلا عن اجتهاد خاص ودون تحيز لطرف أو إدانة لآخر، فلقد ابتعدت عن الارتباطات السياسية منذ ما يقرب خمسة عشر سنة ولست الآن منتميا لحزب من الأحزاب رغم أن بعضها قد وجه لي أصحابها الدعوة مشكورين للانخراط فيها.

على أنني في هذا الرأي إنما أصدره عن وازع من الضمير وإلحاح داخلي قاهر فرضته الوطنية خاصة في هذا الظرف الحرج الذي تمر به بلادنا، فقلوبنا تخفق بحب الوطن وفي الوقت نفسه ترتجف خوفا على أغلى شيء في الوجود وهو هذه الأرض التي فتحت صدرها لنا جميعا واحتوت آلامنا وأحلامنا ورسمت ملامح وجودنا، ونخشى ما نخشاه أن تجرفنا الأحداث إلى وضع يصعب التحكم فيه أو الخروج منه إذا حكّمنا العاطفة أو المصلحة الضيقة أو الكبرياء المفتعل أو التجاهل السلبي أو الغضب الأعمى الذي قد يسوقنا إلى هوة سحيقة لا قرار لها، ولنا في هذا أمثلة كثيرة بعضها قريب منا وبعضها بعيد في مختلف أنحاء العالم.

ولا شك أن الحكم - وهو وسيلة - لا يتم بالصفات التي ذكرتها وهذا ينطبق على من يتربع على عرشه أو يطمح إلى السلطة

ويسعى إلى آن يجلس على مقعدها مهما كان أو حتى "يتفرج" وهو يتابع الحدث عن قرب أو بعد أو في بيته، فنحن جميعا مطالبون بأن نتخلص من الأفكار المسبقة ونفتح الأبواب للهواء الطلق كي يتنفس الشعب روح الحياة وصفاءها ونقاءها، ونعود إليه فيما يتعلق بمستقبله ومستقبل أبنائه، في الصغيرة والكبيرة، ذلك أن خطأ السلطة مثل خطأ الحزب يضر الجميع بينما خطأ الفرد تصلحه الأغلبية وتوجهه نحو الصالح العام.

إن الصراع الذي يبدو على السطح اليوم هو صراع في الأساس على الحكم والسلطة وإن لبس أثوابا ملونة بألوان مختلفة ولسنا بدعا بين البشر فذلك من طبيعة الناس والحياة منذ فجر التاريخ تحت أي مذهب أو عقيدة أو فكرة ولكن الخلاف في الأدوات والوسائل والطرق وسواء حركته المثل أم المصلحة وقاده المؤمنون

أو الجاحدون بالطرق الشرعية أو بغيرها وسواء كان هادئا أم عنيفا فالقضية الأساسية هي "حكم الآخرين" والمفروض أن يكون هذا لمصلحتهم لا لمصلحة طائفة أو جماعة أو فريق على حساب المجموع أو الجميع.

وحين نعود إلى تاريخنا القريب نجد الصراع على السلطة متواصلا،أحيانا استخدمت فيه الحجة والمنطق وأحيانا أخرى القوة

والعنف وسالت دماء طاهرة زكية وارتكبت أخطاء من أطراف كثيرة وكل يبرر لما وقع ويلتمس الأعذار تأييدا لموقفه أو اتجاهه. وقد يجد الناس مبررا للعنف في فترة ما أو مرحلة ما ولكن في لحظات أخرى لا يوجد مبرر لذلك.

ومن هذه اللحظات ما نعيشه الآن فليس هناك مبرر واحد للعنف، فقد تجاوزنا مرحلة "الانفعال" و"الحماس السلبي" وبلغ شعبنا مستوى من النضج يؤهله لأن يحكم على الأمور بوعي وواقعية وبالطرق الشرعية الديمقراطية لا بأشياء أخرى لا تخدم السلطة ولا المعارضة ولا الشعب الذي يحكمون باسمه أو يتطلعون إلى حكم باسمه.

والواقع أنني فجئت حقا بما يجري منذ أسابيع - وكنت بالمستشفى حينئذ - وصدمت كما صدم غيري لما يحدث فوق هذه الأرض التي شرفتنا بوجودنا عليها وسألت نفسي: أين العقلاء من كل هذا ؟ أين أصحاب النظرة الثاقبة مما يحدث؟ ما دورهم؟ لم سكوتهم؟ وربما لمت المثقفين على هذا الصمت لأنهم ضمير الشعب وأمة وصفوة أبنائه.

ومازا لت هذه الأسئلة وغيرها تتزاحم في ذهني وعقلي ومازالت الخواطر المتضاربة المتشابكة تتدافع في وجداني لأنني أعتقد أن شعبنا

ليس عنيفا بطبعه كما يشاع عنه أحيانا وكما دأب أعداؤه - منذ احتلوا أرضنا - يحاولون ترسيخ هذه التهمة كي يجدوا مبررا لأساليب المعرفة، فشعبنا لا يعتمد العنف أساسا في حياته كما تفعل شعوب أخرى معروفة بذلك رغم أنها تدعي التحضر والتقدم(!!)

ذلك أن العنف الفردي يبدو أقل لدينا منه لدى غيرنا أما المظاهر التي تبدو على السطح فهي مؤقتة وترجع إلى ظروف سياسية، ولنا من عقيدتنا وحضارتنا العربية الإسلامية ومن أخلاقنا ما يجنبنا الاندفاع إلى مأساة تضرينا وبتاريخنا وبغدنا.

ولعل السبب في ظهور العنف هو أننا ثلاث سنوات تقريبا ونحن نرفع شعار "الحوار" ونردد ليل نهار وكتبنا وحاصرنا ووعدنا وخطبنا في الندوات واللقاءات والمؤتمرات وقنوات الإعلام ولكنه كان حوار "مسطحا" حوار ا من جانب واحد من الأعماق وينتقل إلى الآخرين، لأننا جميعا نحمل هذا الشعار وخاصة من لهم تأثير على الجماهير فهم يحاورون ويشاورون ثم يفعلون ما قد يتناقض مع ما أعلنوه، أو يفعلون ما في الأذهان والمعتقدات وما يحقق المصالح، يستوي في ذلك الرسميون وغير الرسميين، الحكم والمعارضة بشتى أنواعها واتجاهاتها.

فالحوار لا يكون ولا يحقق ثمرته مع العنف اللفظي أو غيره ولا فائدة من المشورة إذا كانت في النهاية تعود إلى نقطة البدء وكان شيئا لم يقع، خاصة إذا انطلقت من فكرة مسبقة ومن أحكام قاطعة ومن قناعات لا تتغير ومن رؤى ثابتة لا تحتمل الخطأ. وما لم نغير كلنا هذا الموقف فإن الوضع يزداد تعقيدا فالدخول في الشرنقة أصعب من الخروج منها، وليس من حقنا أن ننسى تاريخنا كنا مضرب المثل في الكفاح والتضحية وكنا كعبة الثوار لكل من يتطلع إلى الحرية والكرامة، كنا مثلا يحتذي كما كنا أيضا مثلا في التجربة الحالية أي التعددية الحزبية التي ستؤثر فيمن حولنا إذا نجحت مثلما كان تأثيرنا بالأمس. فهل نتنازل عن هذا الدور وعن هذا الإرث العظيم الذي ضحى شعبنا من أجله تضحية فذة نادرة؟؟

أعتقد أن الوقت قد حان كي نسن تقليدا يبقى راسخا للأجيال وهو أن نسمع صوت الشعب في كل قضية يقع فيها الخلاف ولا سيما إذا كانت مصيرية.

وبناء عليه فإنني أرى أن الخروج من الأزمة الراهنة يتمثل في حلين اثنين لابد من اختيار واحد منهما.

الحل الأول:

استفتاء شعبي عام حول القضايا المختلف عليها وهو وسيلة ديمقراطية تنقذنا من هذه الدوامة وتخدم الجميع لأن الهدف هو مصلحة الشعب، إذن فلنعط الشعب حقه في ممارسة الفعل فليس هناك غيره من يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة: من يحكم من؟ وبماذا؟ وكيف؟ فهو المعني بها أولا وأخيرا.

الحل الثاني:

لقاء وطني عام وليس مؤتمر أو ندوة بل اجتماع يحضره ممثلون عن القوى الوطنية كافة التي فيما يلي:

* رؤساء الأحزاب
* رئيس الحكومة
* رئيس المجلس الوطني الشعبي
* ممثل للجيش الوطني الشعبي
* ممثل لأبناء الشهداء
* ممثلة لأرامل الشهداء
* ممثل واحد لكل منظمة من المنظمات الجماهيرية (العمال والفلاحون والشبيبة والنساء)
* ممثل الاتحاد الكتاب

* ممثل لكل منظمة ثقافية وطنية (لا ولائية)

* ممثل لكل جامعة من الجامعات الكبرى

* ممثل لطلبة في هذه الجامعات

* ممثلون لقطاع الإعلام

* آخرون ممن يمكنهم أن يسهموا في الموضوع

وفي اعتقادي فإن عدد هؤلاء جميعا لن يكون كثيرا إذا اقتصر الأمر كما ذكرت على أن تمثيلهم للرأي العام الوطني مبدئيا لا يشك فيه بحيث نتجنب العدد الضخم ونبتعد بذلك عن النقاش الذاتي أو المهارات الكلامية لأن الوقت وقت فعل ولا يسمح بالتأخير أو البحث عمن هو على حق أو على باطل ومن هو على الصحيح ومن هو على غيره. والمفروض بعد ذلك أن النتائج التي تتمخض عن هذا اللقاء أو الاجتماع الوطني ينبغي أن تكون ملزمة لكل الأطراف وتوضع على الفور موضع التنفيذ.

ولا أظنني في حاجة لأن أعيد الأذهان أن الحكم اليوم أو غدا ليس من أجل الحكم ولكن من أجل أن يشعر الشعب بالراحة والطمأنينة والأمن والاستقرار ومن حق يوم الاستقلال علينا والذي نحتفل به هذه الأيام أن نحاسب أنفسنا على ما حققناه منذ ذلك اليوم من 1962 حتى الآن وهل كنا فعلا أوفياء له ولعظمته؟؟

وأخيرا فإنني أوجه نداء بسيطا صادقا إلى المثقفين ورجال الفكر والفن والعلماء والأدباء والكتاب وكل الطاقات الحية في بلادنا أن يسهموا بالرأي والفكر والموقف في إطفاء هذا الحريق الذي بدأ دخانه يتصاعد إلى أجواز الفضاء قبل أن يلتهم الجميع ولا ينجو منه أحد.

ووطننا بمختلف المقاييس لا يستحق ما هو فيه وإنما يستحق الحب والتضحية والإيمان بمستقبله المشرق المضيء كما رسمه شهداؤنا وأبطالنا على مر التاريخ.

الأدب والتواصل بين الأجيال

إنها لمبادرة طيبة أن تعقد هذه الندوة في ظروف تجسدت فيها إرادة شعوبنا في القارتين من أجل التحرر والتقدم، بل تجلت فيه إرادة العالم الثالث وقدرته على تجاوز الماضي والاستشراف إلى المستقبل الذي نرنو إليه بأمل وتفاؤل، وما الشباب إلا هذا الأمل والتفاؤل.

والواقع أن الاحتفال بموضوع أدب الشباب يأتي في وقته، فهناك جيل جديد يخوض تجارب كثيرة ويسعى على الدرب الذي سار عليه من سبقه مرحلة خصبة غنية بتجاربها عميقة في أبعادها.لذلك فإن الاهتمام بالأجيال ينبغي أن يتجاوز عناية منظمة واحدة إلى منظمات كثيرة في القارتين.

وبالرغم من اللقاءات التي تمر بين الكتاب والأدباء في هاتين القارتين فما زالوا في حاجة إلى اللقاء والحوار وتبادل الرأي في مختلف المجالات. وبالرغم أيضا من أن هناك صلات كثيرة وعميقة تربط بين قارتين سواء كانت صلات أدبية أو حضارية أو سياسية، بالرغم من هذا كله فإن هناك مناطق في الفكر والتجربة والمعرفة ما تزال من هذا كله فإن من أبناء شعوبنا وخاصة ما يتصل منها بأدب الشباب وإنتاجه الفني.

فالجيل الجديد من الكتاب يمثل الأمل في الغد بالنسبة للأدب ولشعوب القارتين، ومن حقه على الجيل الحالي أن يجد منه الرعاية والفهم، ولما كانت فكرة التضامن بين شعوبنا هي الأساس في إنشاء المكتب الدائم لكتاب آسيا وإفريقيا فإن تحقيق هذا التضامن ينبغي أن يسهم فيه الأدب والسياسة والمواقف الإيجابية التي تساعد على تجسيد هذا التضامن واستمراره الأمر الذي يتطلب العمل الجاد والجهود المتواصلة لترسيخ القواعد التي بني عليها هذا التضامن.

وفي اعتقادي فإن القاعدة المثلى لهذا كله هي تمتين الصلة بين الأجيال في القارتين، أو بتعبير آخر علينا أن نعمق روح التواصل بين الجيل الحالي والجيل الذي سبق في ميدان الإنتاج الأدبي حتى لا تجمد العلاقات أو تنبت الأواصر بين من عاش مرحلة الغليان الوطني وبين الطليعة الناشئة وأنا أصدر في هذا عن تجربة الكتاب والأدباء في الجزائر، فالجيل الذي حقق وجوده وبلغ أوج عطائه عاش مرحلة تمتاز بالنضال ضد الاستعمار ووقف بصلابة ضد الإمبريالية خاصة في النصف الأول من هذا القرن وعاش تجارب الجيل الجديد من الأدباء،فهذا الأخير ظهر بعد أن تحققت أهداف معظم شعوبنا في الحرية والاستقلال والاشتراكية، ومن هنا فإن ظروفه مختلفة نسبيا عن ظروف الرواد ولعل همومه أيضا تختلف نوعا ما عن مفهوم السابقين عليه.

ولعل الفرق بين الجيلين يتضح في الجيل الرائد كافح الاستعمار السافر الذي غزا قارتينا بجيوشه وأساطيله واستغل أوطاننا بالقوة وتحكم في شعوبنا بالحديد وبمنطق القوي المتفوق، بينما الجيل الجديد فتح عينيه على رحيل هذه الجيوش الغازية ولكنه - في الوقت نفسه - مازال يدرك أن الاستعمار الذي انحسر مدة ترك آثاره وثقافته الغازية وهيمنة فكره وسيطرة حضارته المتفوقة، فيشعر أنه يعيش معركة من نوع جديد ضد هذه الأفكار ويحاول مقاومتها فينتصر عليها مرة وقد يغض الطرف عنها أخرى، وقد يفهم الجيل الرائد وينصفه إن حكم الموضوعية في آرائه وأحكامه.

على أن الجيل الجديد يعيش هذه التجربة ويشاهد هذا الواقع وهو بين أمرين: إما أن يجد الفرصة فيواصل النضال أو تسد الطرق في وجهة فيخضع ويستسلم ويستكين للغزو الفكري والاستعماري في شكله الجديد وبذلك تهدر طاقاته وتتبدد جهوده فتسخر شعوبنا قوية حية بإمكانها أن تسهم في تطور مجتمعاتنا وبلداننا.

ومن هنا فإن هذا اللقاء يأتي في وقته كما قلت وهذه الندوة تسجل خطوة جديدة لفكرة التضامن والوحدة بين شعوبنا، ولكن لا ينبغي في هذه المناسبة أن نرسم الطريق للشباب ونتصدى لأدبهم بروح الأبوة أو بنبرة أخلاقية، وإنما نستغل هذه المناسبة لنطلع على الحركة

الأدبية للشباب في القارتين حتى نفهمها وندرك أبعادها ونعرف ما نجهله منها بل ونبحث عن الطريق التي ترعى هذه الطلائع كي تواصل الإبداع وتحقق رسالة الكاتب الخالدة كما سنة الحياة في مختلف العصور والأجيال.

إن الأديب يبدأ عادة في مرحلته الأولى كاتبا هاويا ثم يتدرج في مدارج الكتابة ومسالكها الصعبة فينتج ويجرب حتى يصل في أحيان كثيرة إلى مرحلة الاحتراف، وحين تجد الطلائع فهما وتفهما لوجهة نظرها وتقديرا لمواقفها ورؤيتها الخاصة من طرف المنظمات والكتاب فإنها ستسير على درب المناضلين من الكتاب والأدباء الذين أرادوا المجاهل وأصبحوا الأصوات الصادقة المعبرة عن أحلام وآمال شعوبهم في قارتينا.

والحقيقة أنني أعتبر نفسي محظوظا لأنني أعيش بين الأدباء الشباب سواء في مدرجات جامعة الجزائر أم في اتحاد الكتاب الجزائريين وأشعر بأشواقهم وتطلعاتهم، ليس فقط من أجل تحقيق وجودهم في ميدان الأدب والإبداع الفني، ولكن أيضا من أجل التقدم والدفاع عن القيم الإنسانية العليا فهناك طموح يحدوهم ويدفعهم إلى الكفاح من أجل حياة أفضل ومستقبل زاهر سعيد.

ففي بلادي، ينمو أدب شاب قومي جديد، يتخذ من اللغة القومية - العربية - أداة للإفصاح والبيان بدل اللغة الأجنبية التي سيطرت زمنا طويلا على الحياة الثقافية أثناء الاحتلال الأجنبي لبلادنا طوال قرن وثلث قرن .فالاستعمار الفرنسي سعى بكل جهده. لإضعاف اللغة العربية في وطننا بل اعتبرها لغة أجنبية بحكم القانون وبمنطق القوة، وبالرغم من ذلك فإن جيل الرواد قاوم هذا القهر وهذا التحكم وناضل في شتى الميادين السياسية والثقافية وعمل على بعث الثقافة العربية وإحياء الأدب العربي في صورة تعكس إحساس الشعب الجزائري وتجسد طموحه وشخصيته الحرة المستقلة.

ومن المؤكد أن جيل الرواد في معظم أقطار القارتين قد عاش مثل تجربة الجزائر هذه، وكافح من أجل أدب قومي وثقافة وطنية أصيلة وخاض حربا طويلة من أجل ذلك، وعمل على التحرر من هيمنة الثقافة الاستعمارية والأجنبية دون وهن يرفض الثقافة الأجنبية التي لا تحمل في ألوانها فكرا عنصريا أو سيطرة واستغلالا. فالاستفادة من الثقافات الأخرى مازالت هدفا ومطلبا من مطالبنا يساعدنا على التفتح وعلى المعرفة والاطلاع على الآداب الإنسانية المختلفة مما يجعل شعوبنا في موقف من يؤثر ويتأثر وهي سنة الكون بل وسنة التاريخ في قارتينا اللتين نشأت فيهما الحضارات منذ الأزمنة الغابرة وكانتا باستمرار

مهدا للإشعاع الروحي والفكري ومازالتا تعملان على التقارب بين أبناء البشر في كافة أنحاء العالم.

وأعتقد أن أغلب الكتاب من الجيل الجديد يحاولون التعبير عن هذا الموقف ويسعون إلى تعميقه، فهم يهتمون بقضايا الحرية والسلام لا في القارتين وحدهما بل في شتى أنحاء العالم فأدباؤنا الشباب في الجزائر مثلا يهتمون بقضايا الوطن كما يهتمون بالقضايا القومية والإنسانية مثل قضية فلسطين التي يعنون بها عناية خاصة، لا بوصفها قضية عربية قومية فحسب ولكن أيضا لأنها حرية قبل وطنه يجد صدى لنضاله في إنتاج كتابنا وأدبائنا، فالجيل الجديد عندنا يهتم بهذه القضية لأنه يشعر بفداحة الثمن الذي دفعه هذا الشعب دفاعا عن كرامته ووجوده، فقد شردته إسرائيل من بلاده بمساعدة الصهيونية والامبريالية العالمية وتعاونت على ظلمه قوى البغي والعدوان ومن الطبيعي أن ينعكس هذا كله في أدب كتابنا الشباب للشيلي وكفاح الفيتنام ونضال الحركات التحررية في القارتين أو في غيرهما، إن التعبير عن ذلك من هموم أدبائنا الذين يقفون ضد التمييز العنصري في جنوب إفريقيا ويعبرون عن تعاطفهم مع القضايا العادلة في العالم.

أما فيما يخص القضايا الوطنية المحلية، فإن الجيل الجديد يعيش مرحلة البناء بعد الاستقلال، وهو الموقف نفسه - فيما أتصور - لدى الطليعة في القارتين، بالرغم من أنني لا أعرف الشيء الكثير عن إنتاج الجيل الجديد في القارتين وإن عرفت شيئا عن الجيل الذي مازال يسهم في التعبير ويعمل على تحرير القارتين من التبعية الفكرية والسياسية والاقتصادية.

ومن خلال الهاجس الذي أحس به لدى أدبائنا في الجزائر أدرك أن هموم الجيل واحدة ومطامحه متشابهة وآماله متماثلة، فجيل الأدباء الشباب في بلادنا يعيش - كما ذكرت - مرحلة ما بعد الاستقلال ويحاول التعبير عنها بنظرة خاصة وبرؤية جديدة إلى حد كبير، ويسعى جادا إلى أن يسهم في تطور المجتمع من خلال التعبير الأدبي، فيشارك في الثورة الزراعية بالكلمة والمعايشة ويصور آمال الفلاحين الجزائريين وشوقهم إلى حياة كريمة عادلة كما تهتم الطليعة من هؤلاء الأدباء بتعمق الفكر الاشتراكي بين الجماهير وتطمح إلى أن تربط بين مرحلة الحرب التحريرية وبين مرحلة ما بعد الاستقلال.

ثم إن هذا الجيل يقوم بمحاولات مختلفة في مجال التعبير ويغامر في مضمار التجديد ويقوم بالتجريب سواء في طريقة البيان أو

تشكيل المادة وتطويع الأسلوب لأفكاره الجديدة حسب رؤيته الخاصة للواقع الذي يتحرك من حوله. بل إن بعض المواهب التي تملك الأداة والملكة تسعى للتعبير عن مضمون واسع يشمل الحياة والإنسان لا في البيئة المحلية وحدها ولكن في بيئات أخرى كما سبق لي أن قلت.

ومع ذلك فأنا أدرك أن هناك مواهب أخرى مازالت تتعلق بالأساليب المعروفة التقليدية ولكنها تستخدمها لتصوير الواقع والتعبير عن حركته وسيره وتعقده.

وقد نلحظ مبالغة وإسرافا واعتزازا بالنفس لدى البعض أو رغبة في الظهور وتحقيق الوجود في شيء من السرعة والتعجل وقد نلحظ اندفاعا شديدا إلى الأمام شأن الشبابُ في كل جيل وعصر ولكننا أيضا ندرك إيمانا بالأدب ورسالته ودوره في تقديم المجتمع، كما نستكشف الصدق في الحس والتعبير من خلال ما ينشر من إنتاج أدبي، قصة أو قصيدة أو مسرحية أو مقالا أو غيرها من أشكال التعبير الأدبي والفني وحين يتوفر الصدق في الشعور والتصوير وتتأكد الموهبة فإن التفاؤل يحل محل التشاؤم بالنسبة للمستقبل.

وإذا كنا نلحظ أيضا نوعا من الصراع بين الجديد والقديم أو نلمح اجتهادا في الرأي والأسلوب، فإن هذا يؤكد سنة الحياة التي تصفي ماله قيمة فيبقى وما ليس له قيمة يذهب سواء كان ذلك في

الأدب أم في غيره وسواء كان الأمر يتعلق بالجيل الجديد من الأدباء أم الجيل السابق أم غيرهما من الأجيال الأخرى.

ومن حق الشباب أن يثور ويجرب ومن حقه على الرواد أن يجد الرعاية لفائدة الأدب والحياة والتقدم. من حق الطلائع أن تملك الجرأة في التجربة ومن حقها أن تحترم تجاربها وتقدر وأن تجد التعاطف معها والرفق بها ، وليس من حق الآخرين أن ينصبوا أنفسهم مرشدين أو يستخدموا روح الوصاية ويتخذوا منها ذريعة للتحكم في الحركة الأدبية واحتكارها. إن التعاطف مع هذه الطلائع هو الذي يخلق الحوار بين الأجيال ويساعد على الوحدة والتواصل الذي لا نطمح إلى استمراره بين الأجيال فحسب، ولكن بين قارتينا ، بين كل إنسان يعيش واقعا متشابها مع واقعنا وظروفنا ومطامحنا.

وفيما يخصنا في الجزائر، فإننا ننظر باحترام واهتمام بالغين إلى تجارب الأدباء الشباب ونتفهم وجهة نظرهم سواء في الشكل أم المضمون، وأسجل في المجال أن هناك مجلة تحمل عنوان "آمال" خصصتها وزارة الثقافة لتعتني بوجه خاص بإنتاج الأدباء الشباب وجريدة أسبوعية تحمل عنوان "المجاهد" يصدرها حزب جبهة التحرير الوطني الجزائري وجريدة أسبوعية جديدة تحمل اسم "الشباب" تعني بقضاياهم أدبا وفكرا ونشاطا مختلفا إلى جانب الصحف والمجلات

الأخرى التي تنشر بعض ما يكتبه الجيل الجديد، كما أن هناك برنامجا إذاعيا خاصا بأدب الناشئين يعرف بإنتاجهم وينقد أعمالهم الأدبية. ولعل من الصدف الحسنة أن الجائزة الأدبية التي رصدتها وزارة الثقافة في الذكرى العشرين لثورتنا التحريرية قد نالها أديب من الجيل الجديد.

ومع هذا كله فنحن نشعر بأن الأدباء الشباب مازالوا في حاجة ملحة إلى التشجيع المادي والأدبي وإلى اهتمام خاص من اتحاد الكتاب عندنا أو غيره من المؤسسات الثقافية والإعلامية، ونحن نأمل من هذه الندوة أن تسلط الضوء على أدب الجيل الجديد وتنقل إلينا صورة صادقة عن أدب الطلائع في القارتين ونتعرف من خلال ذلك كله على الصعوبات والعراقيل التي تواجه هذه المواهب الجديدة ثم نتعرف على الوسائل التي يمكن أن تساعد على تفتح هذه الأزهار في جو ملائم ومناخ طيب العطر والشذى.

إنني أدرك سلفا أن الصعوبات التي تواجههم جمة ومتنوعة، وقد واجهت من سبقهم أو يعيش بينهم الآن من الجيل الحاضر، فهناك الأمية التي تنتشر بين الملايين في القارتين تقف حائلا بينهم وبين ما ينتجون لأنها لا تقرأ لهم ولا تسمع حتى بأسمائهم، فالفئة التي تقرأ قد لا تحتاج إلى إنتاجهم لأن لديها من الوسائل المادية أو الفكرية ما

يجعلها قادرة على أن تتجه إلى إنتاج غيرهم، خاصة تلك التي غزتها الثقافة الأجنبية المسمومة وتعلقت بتصوراتها ومثلها وانسلخت بذلك عن جذورها، وهذه الطائفة تكون عقبة أمام الجيل الجديد الذي يسعى إلى ترسيخ الأدب القومي في وجدان الجماهير. وهناك عوائق أخرى - مثل صعوبة الطبع والنشر - يعاني منها الشباب في بعض البلدان نتيجة ظروف كثيرة.

ولكي تحقق هذه الندوة أهدافها، وهي أهداف نبيلة لا بد أن تبحث عن الطرق الصحيحة التي تسهم في ربط أدباء الطليعة في القارتين بعضهم ببعض وذلك بخلق وحدة فكرية بين هذا الجيل الذي سيحمل المشعل ويواصل النضال حتى يحقق من خلال الأدب ذلك التقارب بين شعوبنا، فلغة الأدب الصادق لغة تتخطى الحدود والسدود لأنها لغة القلب والروح والوجدان ورمز الإنسان في أوطاننا الذي يسعى دوما إلى هذا التواصل بين الأجيال ومن أجدر من الكتاب والأدباء الشباب لتحقيق هذا الهدف النبيل؟! *

* ألقيت هذه المحاضرة في مؤتمر كتاب آسيا – وإفريقيا الذي انعقد بمانيلا بالفلبين 1975 حين مثلت إتحاد الكتاب الجزائريين في هذا المؤتمر.

التكامل الثقافي العربي
- الواقع والطموح - *

مقدمة:

حين وجهت إليّ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دعوتها - مشكورة - للكتابة عن التكامل الثقافي العربي الواقع والطموح، شعرت أن علي أن أبحث عن مراجع تساعدني على تقديم وجهة نظر خاصة ولكن بالاستعانة بما كتبه غيري، ولكنني لسوء الحظ لم أجد عندنا في الجزائر ولا في مكتبتي الخاصة ما قد يلقي الضوء على الموضوع، ففضلت إذن أن أعتمد على وجهة نظر قد يتفق فيها المهتمون بالأمر وقد يختلفون معي سواء في التحليل أم في النتائج ولكن هناك شيء لا نختلف فيه جميعا هو أننا نصدر فيما نقول عن مصلحة عربية واحدة وعن توجه قومي واحد يحكمه الماضي ويقرّه الواقع ويفرضه المستقبل.

وقد أحسنت المنظمة صنعا عندما استخدمت مصطلح (التكامل) بدلا من (الوحدة) ومن العنوان ندرك أنها فكرت في الظروف التي تعيشها أمتنا من المحيط إلى الخليج. إن الشعارات التي

* محاضرة ألقيتها في عمان بالأردن الشقيق وذلك بدعوة كريمة من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في شهر سبتمبر 1994.

رفعت في الماضي وألحت على الوحدة - سياسية أو ثقافية أو غيرهما - أصبح من الصعب تطبيقها كما كنا نحلم أو نعمل لها بمختلف الأساليب والطرق والمناهج في الظروف الراهنة على الأقل.

وهذا الشعور الجديد بالمتغيرات على الساحة العربية يترجمه الواقع الذي تعيشه أمتنا والذي يرسم صورة باهتة للمستقبل لا بالنسبة للثقافة العربية فحسب ولكن بالنسبة لآمال كثيرة طالما راودتنا منذ سنين وسنين. ومع أن الوضع قد يدفعنا إلى التشاؤم ومن ثم إلى الجمود وإلى مزيد من التقوقع إذا استجبنا للظروف الحالية، فإنه من سنن الحياة أن نتحدى هذا الواقع المؤلم ونبحث عما يجمع لا عما يفرق أو يشلّ حركتنا نحو المستقبل وندوتنا هذه تسهم بلا شك في الإبقاء على هذا الأمل حيّا متجددا.

وقبل أن نخوض في الحديث عن الواقع وعن تصورنا للمستقبل علينا أن نحدد: ماذا نعني بالتكامل الثقافي؟

وفي تصوري أن أبسط مظهر لهذا التكامل – ولو في حدة الأدنى يتمثل في جانبين:

الجانب الأول: التنسيق بين الدول العربية والمؤسسات والأفراد والجماعات، إنتاجا وتسويقا وإبداعا، وتبادل الخبرات والتجارب في كافة المجالات التي لها صلة بالثقافة، بعبارة أخرى نعني بالتكامل

- مرحليا- التواصل الثقافي الذي يجسد من خلال قنوات معينة وخطة محددة مبنية على أساس مصلحة الأمة كلها قبل النظرة الوطنية الضيقة. وهذا إن تحقق يقودنا بلا شك - طال الزمان أم قصر - إلى الوحدة الثقافية ثم السياسية بعد ذلك.

الجانب الثاني: البحث عن طرق وأساليب ومناهج كي يتقارب المستوى من حيث الكم والنوع والإمكانات المادية والفكرية، وذلك حتى نقلل من اتساع الشقة بين قطر وآخر.

معوقات التكامل:

إذا تأملنا الأمة العربية في وضعها السياسي والثقافي والاجتماعي نجد أمامنا مشهدا يدعو إلى الأسى والحزن. لعل من الأفضل أن نحصر في حديثنا هذا عوائق ثلاثة تحول دون تحقيق هذا التكامل الثقافي وهي:

1. **السياسة القطرية**
2. **الروح الإقليمية**
3. **الصراع الثقافي**

فالعائق الأول يتفرع إلى عوامل وأسباب كثيرة ليس هذا مجالها ولكن يمكن القول أنه إذا كان قد أدى بنا إلى حالة من الإحباط في السبعينيات والثمانينيات فإنه بعد حرب الخليج قد رمى بنا في هوة

اليأس المرير، فمنذ هذه الحرب دخلنا عصر التشتت والتمزق والتنكر لكل ما من شانه أن يجمع شملنا أو يحقق التضامن بيننا الذي هو أبسط شروط التكامل سياسة أم اقتصاد أم ثقافة. إنه لمن الصعب اليوم أن ندعو إلى تكتل أو تواصل أو تكامل طالما أن السياسة تدعو إلى العكس، وما يجري من أحداث متلاحقة - مشرقا ومغربا - يؤكد هذا المشهد المؤلم الذي يدعو إلى الأسى والحزن كما قلت بل ينذر بالخطر المفجع!

أما العائق الثاني وأعني به الروح الإقليمية فهو يتصل بالموقف السياسي كما يتصل بالثقافة أيضا لأنها هي التي تحدد مفهوم الإقليمية - قوة وضعفا - وما يصدر عنها من فكر وإبداع وتنظير ودعوة لها. وإذا كانت الإقليمية في الماضي قد توارت إلى حد ما في الظاهر لبروز الفكر القومي على الساحة العربية عقودا عديدة، فإنها اليوم - بعد حرب الخليج - كشفت عن وجهها البشع وبرزت كقوة توجه الحكومات وتهيمن على قطاع معتبر من المثقفين والمبدعين وعلى مؤسسات لها تأثيرها في المجتمع على امتداد الوطن العربي، وتجدر الإشارة هنا توخينا للحقيقة أن هذه الروح الإقليمية ليست بمستوى واحد في مختلف الأقطار وحتى بالنسبة للمثقفين، فالأفكار الإقليمية الآن تجاوزت النظرة العاطفية للثقافة على نظرة سياسية تدعو إلى انكفاء كل قطر على ذاته ومراعاة مصالحه الخاصة بصورة لم

يسبق لها مثيل في تاريخنا المعاصر، ومما يساعد على ذلك الدعوة إلى الديمقراطية التي علت نبرتها في السنوات الأخيرة

وإذا كان العائقان السابقان ينبعان من داخل الأمة فإن العائق الثالث يأتي من الخارج ويتمثل في هذا الصراع الثقافي والحضاري بين أمتنا وبين الغرب الذي يسعى جاهدا لإدماجنا في ثقافته وحضارته، ومن ثم يؤثر في تكاملنا الثقافي بشكل أو بآخر إذا لم ندرك بوعي كامل مكانتنا في هذا العالم وموقفنا من هذا الصراع ومكان الآخرين وموقفهم منا. فالمطلوب إذن هو تحقيق التوازن بين هويتنا بمقوماتها حتى نحافظ على شخصيتنا وبين ما تقدمه لنا الثقافات الأخرى.

وهنا نتساءل: كيف يمكن لهذا التكامل أن يتحقق مع وجود هذه العوائق التي ذكرت أبرزها وبدون تفصيل؟؟

إذا كنا نعني التكامل "المثالي" فإن الإجابة تكون سلبا، أما إذا كنا نعني التكامل "الممكن" فإنها تكون إيجابا وأنا ممن يفضلون الشجرة على الغابة، فخير لنا أن نأتي بشجرة على أن نحاول الإتيان بالجبل(!) فالتكامل بهذا التصور سهل إذا نظرنا إليه من ناحية التواصل الذي تنشأ مستقبلا ومن خلال استمرار مجرى الثقافة العربية منذ نشأتها حتى اليوم، كما أنه بالإمكان تطوير وسائل هذا

التكامل إذا تغيرت الظروف الحالية نحو الأفضل وبذا يمكن أن نقترب من المثال أو نحققه.

فمن الميسور إذن أن نبحث عن العناصر التي لا تزيد في تفرقتنا أو تضيف إلى واقعنا تشتتا آخر. صحيح أن هناك تفاوتا في مستوى الإنتاج والإبداع الثقافي بين قطر وآخر كما يوجد التفاوت أيضا في النظرة إلى الثقافة ومفهومها ودورها ووظيفتها، ولكن إذا ما حددنا موقفنا من المفهوم الذي يخدم الأمة بصرف النظر عن الاجتهادات والإيديولوجيات يكون بالإمكان تحقيق هذا التكامل الذي ننشده في هذه المرحلة، وسيأتي الحديث لاحقا عن الاقتراحات التي تسهم في هذا المجال. وأعتقد أن هذه المعوقات أيا كان ظرفها، مؤقتا أو مستمرا، فإن العنصر الذي ساعدنا على تجاوزها هو عينا بهويتنا الواحدة وبتاريخنا المشترك وبالانتماء إلى حضارتنا العربية الإسلامية وكذلك إيماننا - هذا عنصر أساس - بلغتنا العربية الرائعة التي هي رمز أصالتنا والتي وحدت تراثنا ومشاعرنا وعبرت عن وجداننا طوال القرون والتي ستبقى على هذه الشعلة في نفوس الأجيال. نقول هذا لا من باب التغني بالماضي وأمجاده بل تقريرا لحقيقة لا تحتاج إلى بيان أو بلاغة أو حجة على وحدة ضميرنا وثقافتنا، وهل أنا في حاجة إلى التذكير بما حاولت فرنسا بالأمس وما تحاوله ثقافتها اليوم من أن تضعف لغتنا وثقافتنا؟!

وإذا كان من حقنا أن ننقد الماضي ونحلل الحاضر وما يحدث فيه فما ذلك إلا لهدف واحد وهو الخروج من الأزمة الحالية إلى مستقبل أفضل.

الجهات التي تحقق التكامل:

هنا نأتي إلى مربط الفرس كما يقال،فهناك ثلاث جهات تحقق هذا التكامل:

* **الجهة الرسمية.**
* **النخبة المنتجة للثقافة.**
* **المجاهد المبدعة أو المستهلكة لها.**

وإذا كنت قد رتبت هذه العناصر بهذه الطريقة فليس ذلك من باب تفضيل عنصر على آخر ولا من زاوية أهمية هذا على ذاك ولكن من الناحية المنهجية ومن الناحية الواقعية أيضا وتأثير كل عنصر في هذا التكامل الذي نتحدث عنه.

أولا: إذا كنت وضعت مسؤولية الدول والحكومات في أول السلم فذلك لأنها هي التي تملك المال وتنشئ المؤسسات الثقافية وتعين من يشرف عنها، وهي التي تخطط للثقافة وترسم ملامحها وصورتها في المجتمع حسب قناعة كل دولة وتوجهها الأيديولوجي والمذهبي، كما أنها هي التي تملك القنوات التي تقدّم هذه الثقافة إلى الملتقين لها،

وهذه الدول أو الحكومات هي التي تستطيع أن تحقق هذا التكامل أو تجعله غالبا تابعة للحكومات تسخرها لخدمة النظام السياسي السائد في البلاد.

وإذا كانت مرحلة ما قبل حرب الخليج تمثل محاولة لتحقيق نوع من التكامل في حده الأدنى فإنه فيما بعدها أصبح باهتا، وما يعقد من ندوات أو ملتقيات أو أسابيع ثقافية يؤكد ما أشرت إليه، ومثلها تلك النشاطات المحلية أو الوطنية كالمعارض التي يقيمها من حين لآخر هذا القطر أو ذاك، فإنها إذا ساهمت في هذا التكامل بصورة ما فليس ذلك انطلاقا من مفهومه الحقيقي بل خدمة للنظام والدولة القطرية بالأساس.

والواقع أنه قبل هذه الحرب كانت خطوات قد تحققت في المجال نفسه سواء في مؤتمرات الأدباء العرب أم مؤتمرات المثقفين مشرقا ومغربا، أم تلك الزيارات التي يقوم بها مبدعون أو علماء بدعوات خاصة أو في مناسبات معينة، فضلا عن الاجتماعات التي تعقدها وزارات الثقافة هنا وهناك أو اللقاءات التي تتم على نطاق المؤسسات دوريا أو بمناسبة ما. فهذه كلها كانت تمثل بداية لهذا التكامل ولو في صورته المحدودة. بينما اليوم نلحظ تقلصا كبيرا في هذا كله إما بسبب السياسة أو قلة الموارد المادية لدى بعض الدول أو

بسبب هذه الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها دول عربية كثيرة أو بسبب ما سبق ذكره أو غيره.

يضاف إلى ذلك انكماش التبادل الثقافي في مجال المطبوعات - كتبا أو دوريات أو غير ذلك - حتى إن المثقف ومثله الجمهور في كل قطر، ومثلهما السياسي، لا يعرف أي منهم ما يجري في الأقطار الأخرى لأن الخوف قد سيطر على الحكومات من انتقال الأفكار وانتشارها بين الجماهير فضربت سدودا حالت دون وصول هذه المطبوعات أيا كان موضوعها أو مجالها أو توجهها. فبعض المؤسسات تتعلل بنقص الموارد وأخرى تتعلل بالأفكار المستوردة لأنها تخشى رياح التغيير والديمقراطية ولاسيما بعد أن استطاعت بعض النسائم أن تنفذ إلى بيئات عربية معينة، ناهيك عن بعض المؤسسات التي يهمها الربح والمتاجرة بالثقافة انطلاقا من نظرة ضيقة ترى فيها معروضة للبيع يأخذ منها من يملك ويحرم من لا يملك.

ويتصل بهذا الجانب الرسمي ما أنشأته الجامعة العربية من قنوات تسعى إلى هذا التكامل الثقافي وفي مقدمتها "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم" بنشاطها المعروف على مستوى وزارة الثقافة العرب أو الدوريات التابعة لها، وهذا النشاط وان كان يصب في

الاتجاه المطلوب إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز اللوائح والقرارات التي تتخذها الحكومات.

إن هذه المنظمة لا تستطيع أن تقوم بدورها كما ينبغي لما ذكرنا ولأن إمكاناتها قد لا تساعدها على أن تبادر إلى ’نشاء قنوات جديدة تسهم في هذا التكامل، ومثال واحد قد يبين وضعها وإمكانيتها وأنا بالطبع لا أعرف لا الكثير ولا القليل عن ذلك ولا ندوات ثقافية جد هامة في أقطار عربية مثل هذه الندوة التي تعقد الآن في الأردن الشقيق ولكن حصيلة هذه الندوات لا تصل إلى المثقفين بل الجماهير، ولو سألت مثقفا عربيا في الصحف أو سمع عنها في الإذاعات وربما لا نجد إلا القلة التي اطلعت على محتوى ما قدم من دراسات أو بحوث أو تدخلات فكيف بالمتلقين العاديين؟!

على أن الأهم من هذا كله هو أن التكامل الثقافي لا يتحقق إلا بتوفير الإرادة السياسية والنية الصادقة لتحقيقه سواء لدى المشرفين عن هذه المؤسسات أم المخططين للثقافة أم المسؤولين عن تطبيق القرارات، والتوصيات وإلا فإن الكلام عن التكامل يبقى حبرا على ورق كما يقال، فأنا أفضل بلاغة الفعل على بلاغة القول والأحسن أن يسبق فعلنا القليل كلامنا الكثير...!!

ثانيا: رغم أنني استخدمت مصطلح "النخبة المنتجة للثقافة" جريا على المتعارف عليه إلا أنني أعني به في الحقيقة "الفئات الثقافية" وذلك حتى لا يفهم من حديثي أنني أعني مفهوما طبقيا معينا بل أعني شرائح متعددة التجربة والرؤية والاهتمامات ابتداء من العلوم الإنسانية مرور بالآداب وانتهاء بالفنون المختلفة.

ثم إنني أنظر إلى الثقافة باعتبار ما تقدمه للإنسان العربي من وعي يساعده على معرفة نفسه وواقعه وحياته لا تلك التي تميزه عن غيره وتعطيه مكانة خاصة قد يتعالى بها على الفئات الشعبية الأخرى.

ولا شك أن لهذه الفئات دورا فعالا في هذا التكامل المنشود لأنها هي المنتجة أساسا للثقافة بل هي العنصر المؤثر فيها وفي توجهها، إبداعا وقيما وأفكارا. إنها العصب الحقيقي للثقافة والمحرك للمجتمع من خلالها، وهي التي حافظت على هوية الأمة ودافعت عنها وتقع على عاتقها مهمة توصيلها للأجيال القادمة. ونحن هنا ننظر إلى الثقافة من الزاوية الاجتماعية أي باعتبارها تعبيرا عن عمق المجتمع وحياته الروحية والمادية ونظرته إلى الكون والطبيعة والوجود، وهذه النظرة قد يختلف فيها بعضنا ولكن هذا الاختلاف قد يغني التجربة التكاملية للثقافة بتوسيع نطاق الخبرات والتجارب وتعدد الرؤى سواء لدى من اهتم بالتراث وإحيائه أم بالمعاصرة وقضاياها. ومن ثمة نلحظ

الاجتهاد في مفهوم التكامل الثقافي كما نلحظ النظرة المحلية أو الإقليمية لهذه الثقافة وأيضا نلحظ التعاطف مع التراث أو التنكر له ثم التأثر بالخارج سلبا أو إيجابا. ومن هذا المنطلق أيضا يمكننا أن نفهم التعدد في الرؤية والاختلاف في وجهات النظر. فمثلا العروبيون يعتبرون اللغة القومية تعبيرا عن تفكير قومي يعكس هذا

التوجه بينما غيرهم ممن لا يؤمنون به يعتبرها أداة لا أكثر ولا أقل كما هو الشأن لدى شريحة من المثقفين في بعض الأقطار العربية مشرقا ومغربا، فهذه الشريحة من الصعب أن تعمل على تحقيق هذا التكامل الثقافي، والأخطر من هذا أن هناك أقلية من أبناء أمتنا ممن ثقفوا ثقافة أجنبية ولا سيما من يجهلون العربية منهم، هؤلاء يرفضون أي تقارب عربي فضلا عن التكامل، ويكون تأثير هذه الفئة أقوى إذا كانت تحتل موقعا مؤثرا في أجهزة الثقافة والتخطيط لها وتحديد وظيفتها ونوعها ومحتواها.

على أنني أفرّق بين نوعين من المثقفين تجاه هذا التكامل الذي نبحث عن تحقيقه بصورة أو بأخرى:

أ- المثقف المرتبط بالسلطة وأجهزتها وتوجهها، فدوره في هذا التكامل محدود لأن رؤيته تنحصر في مفهوم الدولة للتكامل ومن الصعب أن يتجاوزه إلى رؤية شاملة عاملة لأن فكره هو الفكر السائد

لدى السلطة التي تحكم في أي قطر عربي. قد يكون هذا الارتباط سببه المصلحة والخوف من فقدان الامتيازات لأنه غير قادر على العيش بإمكاناته الذاتية، وقد يكون ناتجا عن تجاوبه مع أفكار السلطة واقتناعه بتوجهها الأيديولوجي. ورغم هذا فإن هذا المثقف - في تصوري - يمكنه أن يساعد في القضية بالرأي والتفهم والتشجيع لأن ذلك لا يعرقل مصالحه بل يفتح له آفاقا جديدة، مادية أو أدبية أو معنوية. وأنا أدرك سلفا أن هناك من المثقفين ممن ارتبطوا بالسلطة يؤمنون بهذا التكامل الثقافي ولكنهم لا يملكون القدرة على تطبيقه ولو توفرت لهم الإمكانات والمناخ الملائم لحققوا أشواطا في هذا السبيل مثلهم في ذلك مثل بعض المسؤولين الرسميين عن هذه الثقافة في الوطن العربي.

ب- النوع الثاني من المثقفين أعني به المثقفين الملتزمين وهم الذين يمكنهم العمل على تحقيق هذا التكامل انطلاقا من قناعتهم الخاصة ومن الرؤية التاريخية والواقعية والمصيرية للأمة، لذلك نجد أن هذه الفئة تناضل لا من أجل التكامل فحسب بل من أجل وحدة ثقافية وسياسية واقتصادية واجتماعية شاملة، ونظرتها إلى الثقافة نظرة واقعية قومية كما أشرت إلى جانب أنها مصلحيه بالنسبة للأمة كلها لا بالقياس إلى مصلحة فئة أو حكومة أو دولة. أقول هذا وفي ذهني أسماء كثيرة لمثقفين قوميين (مسلمين أو مسيحيين) يعملون ما في

وسعهم للتقريب بين وجهات النظر فيما يتعلق بالمستقبل الثقافي بل والسياسي للأمة، ولذلك أنشأ بعضهم مؤسسات مستقلة أو شبه مستقلة عن الدول وبإمكانات غير حكومية سواء أسهم فيها أفراد أم مؤسسات وطنية أو قومية.

غير أن هذه المؤسسات قد تصطدم بالنظام الإقليمي الذي لا يناسبه وجود مراكز ثقافية أو دوريات تصدر عنها وتدعو إلى هذا التكامل أو الوحدة، لأن هذا النظام لا يؤمن أصلا بالقضية أيا كان مستواها أو أنه يخشى من الأفكار التي تدعو إليها هذه المؤسسات ومن تأثيرها في الجماهير مما قد يضعف من تأثيره ويزعزع مواقعه أو يهز وجوده ذاته.

وهنا أيضا نصل إلى بيت القصيد - كما قال أجدادنا - وأعني به أنه لا تكامل أو وحدة بدون وجود ديمقراطية حقيقية (1) تتيح للآراء أن تنمو وللأفكار أن تتصارع وللناس أن يقتنعوا بلا خوف أو ضغط أو تسلط. كيف نحقق تكاملا صحيحا إذا لم نحترم رأي بعضنا البعض؟؟ إن الاقتناع أولا هو البداية الصحيحة لهذا التكامل لأن فرض الفكر أيّا كان بالقوة، سواء قوة الحكم أو قوة التعصب أو قوة المال، لن يحقق تكاملا ولا غيره بل يزيد في شقة الخلاف والفرقة. كما أن احترام الرأي الآخر لا يعني إطلاقا التنكر للهوية أو

العقيدة أو التاريخ الوطني أو القومي بدعوى الديمقراطية بل يعني أن نتحاور ونستمع ونقترح لا أن نغلق الآذان ونتعصب أو ننحاز للرأي. أقول هذا لأنني أقرأ أو أسمع أحيانا أن الديمقراطية هي التعبير عن الرأي بكل حرية وبلا حدود حتى إن بعضهم يهاجم الهوية القومية أو اللغة العربية أو العقيدة الإسلامية باسم هذه الديمقراطية.

إن المثقفين الملتزمين بطموح الأمة وأشواقها ومصيرها نراهم أحيانا يخلطون بين السياسي والثقافي ولا يضعون مقاييس محددة - وبالأخص في اختيار الأشخاص - عندما يؤسسون قناة ثقافية معينة بحيث نجد فيه أشخاصا لا يؤمنون لا بالتكامل ولا بالوحدة، بل إنهم قد يجعلون من هذه المؤسسات منبرا لأفكارهم أو أفكار حكوماتهم أو يحققون من خلالها سمعة معينة رغم أنهم لا يؤمنون - كما قلت - بتوجه هذه القنوات. وهؤلاء قد يعيقون التكامل وقد ينفرون الناس من المبدأ بل أكثر من ذلك وجدنا من تنكر لمثل قومية كان يدافع عنها ثم في لحظة أصبح يجلس على الضفة الأخرى!

وعلى كل فإن هذه القضية تحتاج إلى دراسة وتعمق ونقد للتجارب وللأشخاص وللطرق والمناهج بنظرة موضوعية لا ذاتية أو حزبية لأن الهدف هو البحث عن السبل التي تراعي التكامل في نطاق التعدد والاختلاف لا تحطيم المؤسسات أو الهجوم على الأشخاص أو

الرفض للفكر الآخر أيا كان صاحبه وأيا كانت مواقفه ما دامت الغاية واحدة وما دمنا نمتطي سفينة واحدة في نجاتها نجاتنا جميعا.

ثالثا: الثقافة الشعبية ودورها في التكامل:

لقد أدرجت الثقافة الشعبية في هذا المجال لأنني أومن بدورها في توحيد المشاعر والأحاسيس وتوحيد الثقافة والأمة، ذلك أنها تغوص في أعماق تاريخنا ومتجذرة في تربتنا لأن الجماهير هي التي أبدعتها على مر العصور ولأنها في عهود الاحتلال الأجنبي حافظت على كيان هذه الأمة وتماسكها ووحدتها.

ونحن هنا لا نفضل بين الثقافة التي يطلق عليها "الرسمية" أو "الرفيعة" وبين الثقافة الشعبية التي هي من ابتكار الشعب مشرقا ومغربا أننا ننطلق من واقع الأمة ومطامحها. وكما أثرت فينا هذه الثقافة في الماضي فإنها ما زالت تؤثر فينا بوعي أو بغير وعي ويكفي أن أشير في هذا الصدد إلى إجماع الأدباء والكتاب والمثقفين عامة حين يسأل واحد منهم: كيف بدأت استجابتك الفنية أو الأدبية أو الثقافية؟ فيجيبك فورا بأنه تتلمذ في البداية على ما تبدعه هذه الثقافة من قصص وحكايات وفنون - نثرا وشعرا - ولكننا نحتاج إلى توسيع دائرة وعينا بهذه الثقافة على النطاق القومي ولأن ما نلحظه من ملامح محلية له جذوره الضاربة في أعماق هذه الأمة. وينسحب الحكم

هنا على كافة الموروثات الشعبية من فنون وعادات وتقاليد وآثار وحرف وغيرها مما يؤكد أصالة أمتنا وترابطها عبر الزمن.

وهذه الثقافة الشعبية بحكم نزوعها إلى التعبير الجماعي يمكن أن تصبح عاملا هاما وقويا في هذا التكامل وفي هذا التوجه الذي تهدف إليه الندوة الموقرة وتسعى إليه المنظمة وتعمل على تعميقه وترسيخه في الوطن العربي. ولعل هذا الموضوع يجد اهتماما منها في ندوة أخرى.

آفاق التكامل مستقبلا:

لعلي حاولت رصدا للواقع الذي نعيشه والذي يمكن أن نطوره بما يخدم هدفنا ولا أزعم أنني أحطت بالموضوع من كافة جوانبه ولكنني اجتهدت في أن ألتمس الجوانب المؤثرة فيه - سواء منها الإيجابي أم السلبي - أما بالنسبة للمستقبل فإن ما قدمته من تحليل لبعض الجوانب ونقد لبعضها الآخر، يوحي بما علينا أن نفكر فيه مستقبلا وإن كنت لا أستطيع الجزم بصورة هذا الغد أو ملامحه وما سننجز فيه ولا أصدر في هذا عن تفاؤل أو تشاؤم رغم أن الواقع يؤيد هذا الأخير. إنني أفضل أن أصدر في ذلك عن تأمل للواقع ومحاولة فهمه فنحن نعيشه يوميا وعلينا أن نتكيف معه حتى نحقق القليل،

كما سبق أن أشرت، ولا نغرق في التشاؤم ولا في الخيال وإن كان من حقنا أن نتشبث بالحلم وتحقيقه.

وإذا كان واقع الأمة العربية يتغير بسرعة ملفتة للنظر وسط عالم يتغير بوتيرة أسرع ويبحث عن كافة الوسائل والسبل للتجميع والتوحيد. وأقرب مثال لذلك أوروبا الغربية (رغم اختلاف اللغة والمصلحة والقوميات) فإن المثقف والسياسي وحتى المواطن العادي يقف حائرا أمام هذا التغيير الذي مس حياتنا من جوانب كثيرة لكنه لم يدفعنا إلى الاستفادة من التجارب الأخرى.

في بضع سنوات قليلة تغيرت أفكارنا، نظرتنا، مفاهيمنا من جراء أحداث جسيمة محزنة بحيث نحس كأننا نعود إلى نقطة البداية بالنسبة لكثير من القناعات التي سادت في عقود مضت فما كنا نحسبه مستحيلا أصبح ممكنا وما كنا نستبعده بات متوقعا وربما قد لا يثير سخطنا أو ثورتنا وقد لا يثير فينا رد الفعل بالقدر الذي يستحقه هذا الفعل أو ذاك من جراء ما تتعرض أمتنا له اليوم من أبنائنا وأعدائها وخصومها على هذا السواء.

وهنا يمكننا أن نتساءل: هل هذا التكامل ممكن في الوقت الراهن؟ وما درجته؟ وماذا يمكن أن يتحقق منه في الغد القريب أو البعيد؟

إذا نظرنا إلى الموضوع من خلال بعض النشاطات الثقافية أو الندوات الفكرية أو الأدبية، رسمية وغيرها - رغم قلتها - فإننا نتفاءل بالجمرة التي لم تطفئ نهائيا ونتفاءل بقدرتها على الاشتعال والتوهج مرة أخرى إن كان لنا نفس جديد. لكن إذا نظرنا إلى ما نحن فيه من تشتت يقف حائلا بيننا وبين طموحنا، فإنه يصعب القول بأننا نسير في الطريق الصحيح لأن كل الظروف تحاصر آمالنا وتعمل على تثبيط عزائمنا وتزرع الشك في نفوسنا. نحن نعرف أن التغيير هو سنة الحياة وأن التطور سمه العصر الذي نعيشه وإذا لم نتغير أو نتطور فإننا سنجمد ونخضع وسيؤدي بنا الخضوع إلى التبعية الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية، هذه التبعية التي ستعوق تكاملنا في جميع المجالات.

أليس من حقنا أن نبحث عن مكاننا في العالم؟ حتى لا نذوب أو نندمج في بوتقة الآخرين؟ ذلك أننا وليس هذا من باب التفاخر الأجوف أبناء حضارة شامخة رغم ذبولها الآن، وليس من حقنا أن نتجاهل أنفسنا وما قدمته هذه الحضارة الإنسانية قرونا وقرونا.

وفي تصوري، فإن آفاق المستقبل تتمثل فيما نحققه من تكامل وفي الخطة التي نضعها له وفي نظرتنا الجديدة إلى الميادين التي يمكن التنسيق فيها والتي قد لا تثير صراعا سياسيا أو أيديولوجيا، ثم

يكون التطبيق تدريجيا وحسب المعطيات الجديدة التي تراعي ما هو ممكن اليوم وغدا إن في الوسائل أو الأهداف، فبقدر ما نولي أهمية للجانب الواقعي بقدر ما نحقق الهدف المبتغي.

وفي اعتقادي أننا مطالبون جميعا بأن نعتبر هذا التكامل مهمة الجميع مسؤولين ومثقفين وجماهير، وأن ما يحقق هذا كله هو تقديم الاقتراحات البناءة التي تراعي التطبيق حسب المراحل والظروف.

صحيح أننا لا نتخلى عن الهدف الأساسي وهو تحقيق الوحدة الشاملة، ولكن نختار لكل مرحلة ما يناسبها، وقد راعيت في هذا التكامل بالنسبة للمستقبل الجهات الثلاث التي ذكرتها في بداية هذا الحديث.

الاقتراحات:

أولا: في المجال الرسمي:

1- تدعيم المشاريع والمؤسسات الثقافية ما كان منها تابعا للدولة القطرية أو للجامعة العربية مثل "منظمة التربية والثقافة والعلوم" على أن تعطي لهذه الأخيرة الإمكانات اللازمة حتى تقوم بدورها على أفضل وجه سواء بالنسبة للنشر أم للقنوات الأخرى كالندوات وغيرها مما يمكن إنشاؤه مستقبلا، فيمكن مثلا منح الأهمية للإدارة الثقافية بالمنظمة ولنشاطها حتى تعمل على تحقيق هذا التكامل.

2- مطالبة وزراء الثقافة العرب بما يلي:

* إقامة معرض للكتاب العربي كل عام في أحد الأقطار العربية بالتناوب مع ما يصحب ذلك من ندوات أدبية وثقافية وسياسية يسهم فيها مثقفون يؤمنون بالمبدأ ويعملون من أجله في بلدانهم.
* تنظيم أيام مسرحية عربية دائمة بالمواصفات السابقة تناقش فيها قضايا المسرح على امتداد الوطن العربي والتجارب المختلفة فيه وفي العالم.
* تنظيم أيام أخرى - سنويا أيضا - للسينما العربية على أن تقام بدورها في الأقطار العربية بالتناوب بدلا من أن تتكرر في قطر واحد كما هو الشأن حاليا.
* إقامة معرض للفنون التشكيلية أو ملتقى دوري للفنانين التشكيليين العرب والملاحظ أن هناك نقصا كبيرا في معرفة ما يجري في هذا المجال، فكثيرا ما نسمع عن معارض يقيمها فنانون عرب في الغرب بينما نكاد لا نعرف عنهم شيئا في أقطارنا رغم أن البعض منهم في المستوى العالمي.
* تنظيم أيام دراسية خاصة بالفنون الشعبية لبحث ما تحمله من قيم تسهم في هذا التكامل.

3- مطالبة الجامعة العربية بـ:

* إنشاء مركز للبحوث في مجالات الثقافة العربية المختلفة وعلى مستوى الوطن العربي كله، يسهم فيه باحثون مختصون ومشرفون يهتمون بهذا الموضوع وتكون لهم الحرية في التعاقد مع المؤهلين لتقديم أفكار ودراسات على غرار معهد الدراسات العربية ولكن بصورة أوسع وأكثر شمولا.
* إحداث دار النشر بين الأقطار العربية تسهم فيها الجامعة والحكومات.
* إصدار توصية من الجامعة العربية للحكومات كي يقوم كل قطر بفتح مركز ثقافي في الأقطار الأخرى على غرار ما فعل بعضها الآن، مما يحقق جانبا من التقارب الثقافي ويجعل الشباب العربي على دراية بما يجري في وطنه الكبير.
* ضرورة تنسيق والتعاون وتبادل النشاط الثقافي والخبرات بين المراكز الثقافية العربية في الخارج.

ثانيا: دور المثقفين والمؤسسات المستقلة:

1. البحث عن طرق وإمكانات تتيح لهم إنشاء مراكز ثقافية مستقلة في كل بلد عربي على غرار ما هو موجود في كل قطر للبحث والنشر وتعميق الرؤية بالنسبة للقضية.

2. إقامة ملتقى ثقافي كل عام في أحد الأقطار العربية تحت مسؤولية المنظمات المعينة بالتكامل وكذا الأفراد بعيدا عن الرسميات والمصالح الذاتية، على أن يدرس فيها مرة محور يتصل بالتكامل الثقافي في شتى فروع المعرفة الإنسانية.
3. تقوية اتحادات الكتاب والأدباء والجامعيات والروابط الثقافية محليا وقوميا وإيجاد طريقة لإنشاء اتحادات في الأقطار التي تخلو من مثل هذه المؤسسات على أن تعطى الحرية في اختيار من يديرها ديمقراطيا.
4. أقترح أن يكون هناك تجمع للمفكرين العرب على غرار ما كان في الماضي وأن يكون دوريا لا موسميا تدرس فيه كل القضايا المتصلة بالموضوع- حاضرا ومستقبلا- على مستوى الوطن العربي

ثالثا: دور الثقافة الشعبية:

1. إنشاء مركز خاص بالثقافة الشعبية تشارك فيه الدول والمثقفون والفئات الشعبية يقوم بدراسة مدى التقارب بين الأقطار في العادات والتقاليد وفي الأذواق بل تدرس فيه اللهجات المحلية لتنقيتها من الدخيل وتقريبها إلى العربية الأم

ويدرس فيه أيضا التراث الشعبي على النطاق القومي، ويعمل هذا المركز على إصدار مجلة للفنون الشعبية المختلفة

ندوة الأجيال:

أقترح عقد ندوة للتواصل بين الأجيال تسهم فيها الدول والمنظمات والأفراد تناقش فيها القضية الهامة وتعق دوريا (كل عام أو كل عامين) في أي بلد عربي يستضيفها ولتكن مرة بالمشرق وأخرى بالمغرب،هذه الندوة تبادل الخبرات والاطلاع على ما ينجز من إبداع أدبي وفني وثقافي. وبالمناسبة فقد سبق لي أن قدمت اقتراحات في مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا بالفلبين سنة 1975 أقرت بالإجماع من طرف المشاركين وفيها ما يصلح لندوة الأجيال هذه ولولا الخوف من الإطالة لأدرجتها هنا.

وهكذا يمكن أن نعد للمستقبل وللآفاق التي نطمح إلى أن تكون أفضل عندما تتغير الظروف الحالية، وأنا أدرك سلفا أن هذه الاقتراحات قد تكون مثالية ويصعب تحقيقها اليوم ولكن أن نحقق بعضها بينما نترك الأخرى للوقت الملائم. المهم أن نطور الموجود ولا نلغيه بل نسعى إلى دعمه وترقيته وإحداث ما يناسب المرحلة، فالواقع الذي تعيشه الثقافة العربية يعيشه الوطن العربي، كلاهما تحاصره الحدود والقيود والسدود(!) فإذا كان رأي المواطن يصادر فإن إرادته

أيضا تصادر حين يفكر في اجتياز الحدود مثل الكتاب والدورية والمسرحية والشريط السينمائي واللوحة الفنية، كلها محاصرة بشبكات بل بترسانات من القوانين واللوائح والمصالح!!

ورغم أن الجماهير العربية قد أبدعت أو همشت بعيدا عن الإسهام في الفعل الثقافي وفي تكامله فإنها تعيشه في حياتها اليومية، وهي تطالب بأن يقدم لها في صورة تساعدها على الوعي وترقية الذوق وتشعرها بوجودها كأمة عريقة لها ماضيها الذي تفخر به ولها مستقبلها الذي تتطلع إليه. وحين يتاح لها ذلك من خلال قيادات سياسية وثقافية تتجرد من فرديتها ومصلحتها الخاصة فإنها لن تتردد في تحقيق وحدتها الثقافية المنشودة.

ولا يسعني في الختام إلا أن أحيي جهود المشرفين على هذه الندوة الموقرة والمشاركين فيها متمنيا لهم النجاح والتوفيق، كما أحيي الأردن الشقيق على ضيافته واحتضانه لهذا اللقاء العربي هو خطوة على الدرب السليم.

نحو مؤتمر عام للمفكرين العرب

ورقة مقدمة إلى:

ندوة (مستقبل الوطن ودور الجامعة العربية) المنعقدة في دولة الإمارات العربية المتحدة من 2 إلى 4 نوفمبر 1997

عندما تسلمت دعوة سمو الأمير سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء في دولة الإمارات العربية المتحدة لإسهام في ندوة (مستقبل الوطن العربي ودور الجامعة العربية) بالتعاون مع مركز العربي للدراسات الإستراتيجية.

أقول حين تسلمت الدعوة شاكرا ومقدرا هذه الالتفاتة الكريمة تمنيت لو أن لدي الوقت الكافي لأقدم بحثا مفصلا في الموضوع المقترح لأن الحديث عن الوطن العربي وقضاياه مثل الحديث عن الجامعة العربية ودورها أمر على جانب كبير من الأهمية، فالأول يمثل الحضارة والتاريخ والهوية والمصير المشترك والثانية هي المؤسسة التي ترعى قضايانا وتمثل الرمز الذي نطمع إليه تحقيقا لحلمنا المستقبلي وهو وحدة هذه الأمة العظيمة، فالمستقبل هو الجامع بينهما أما الماضي فقد عشناه وعاشه قبلنا الآباء والأجداد بانتصاراته وانكساراته.

المستقبل إذن هو الهام الآن لأن أجيالنا القادمة هي التي ستعيشه وتحقق فيه ما عجزنا عن تحقيقه ومن حق هذه الأجيال علينا أن تعرف جهودنا في الدفاع عن مصالح الأمة وأن تطلع على ما قدمته الجامعة العربية لهذه الأمة.

إن هذه الورقة المتواضعة التي أقدمها بين أيديكم اليوم تتضمن فكرة تتصل بالموضوع اتصالا وثيقا وتحتاج منكم إلى المنافسة والإثراء إذ أنها - نظرا للواقع الراهن الذي يعيشه الوطن العربي - قد تبدو صعبة التحقيق ولكننا نعرف أن الأفكار قد تبدأ صغيرة وصعبة في آن معا ثم تنمو مع الأيام ومع نموها تصبح ممكنة سهلة التحقيق بل والرسوخ فوق أرض الواقع وتتولى الأجيال المتعاقبة مهمة ترسيخها وبلورتها بل وتضيف إليها حسب المراحل والظروف والمتغيرات.. وأمامنا تجارب ماثلة للعيان حقق أصحابها ما كانوا يحلمون به وأكثر وما زالوا يطورون أفكارهم ووسائلهم ومناهجهم بما يتلاءم مع الواقع والمستقبل معا.

الحقيقة أن ما سأقترحه هنا مستمد - كما ذكرت - من واقع الأمة ومستقبلها، فواقعنا مرير مؤلم حقا لأن التشتت الذي نعيشه اليوم لا مثيل له في تاريخنا كله!

إن هذه الحالة من التشتت والتجزئة التي تعيشها الأمة من أقصاها إلى أدناها - رغم اتساعها وثرواتها البشرية والمادية والروحية الهائلة - هذه الحالة شجعت أعداءنا على الطمع فينا وهاهي أراضي شتى محتلة أو مغتصبة ومؤامرات تحاك هنا وهناك ضد الأمة بأكملها كيانها ووجودها، وضد كل جزء على حدة.

إن هذه الوضعية المحزنة تتطلب دراسة معمقة وتحليلا موضوعيا كما تتطلب تضافر جهود الجميع: ساسة وعلماء ومثقفين وأدباء وفنانين ورجال إعلام وأعمال لعلنا نجد بصيصا من الضوء يخرجنا من هذا النفق المظلم.

ومما يحز في نفس كل عربي أبيّ أن يلحظ نوعا من التشاؤم أخذ يستبد بنا وبأجيالنا الجديدة من المحيط إلى الخليج نتيجة هذه التفرقة التي تنفث سمومها في بيتنا وذاتنا وكأنها قدرنا الذي لا مهرب منه.

ويزيد الأمر سوءا أن الإدارة الفاعلة تكاد تختفي من قراراتنا فما أكثر الاجتماعات والمؤتمرات التي تقام على الأرض العربية مشرقا ومغربا وما أقل ما يطبق منها، الأمر الذي ترك أثره في نظرة الأجيال الجديدة إلى واقع الأمة ومصيرها بحيث أصبح الحلم البسيط

صعب التطبيق فما بالك بالحلم الكبير الذي أخفقنا في تحقيقه حتى الآن!

منذ إنشاء الجامعة العربية حتى اللحظة الحاضرة رفعت شعارات تصب في مجرى الوحدة والمصير الواحد وكتبت نصوص جيدة سهر عليها سياسيون ومفكرون ولكن وقفت عائقا دون تحقيقها النظرة القطرية الضيقة وتضارب المصالح والأهواء والأيديولوجيات، وإن لاحظنا إرادة طيبة لدى البعض منا فإن ما تحققه هذه الإرادة في أوقات الشدة سرعان ما تطغى عليه الحسابات والمتغيرات الظرفية حتى أصبحنا بعجز ضار ألبّ علينا الآخرون - كما أشرت - فتكاتبوا علينا ينهشون جسد أمتنا ويمتصون عصارة حياتنا ويتحكمون في رقابنا لتفوقهم الحضاري علينا.

ولا شك أن موقعنا الجغرافي وتاريخنا السياسي وتراثنا العلمي والأدبي والثقافي ودورنا الحضاري المتميز.. كل هذا لفت إلينا أنظارهم ودفعهم إلى محاولة إضعافنا مما أسهم بدوره في تعميق خلافاتنا وتمزيق شملنا فبدأنا نتراجع عن شعاراتنا التي تغنينا بها عقودا طويلة واكتفينا مرة بالتضامن وأخرى بالتكامل الثقافي أو الاقتصادي، وحتى هذا التقارب البسيط لم يتحقق منه سوى القليل بل بلغ الأمر

ببعضنا إلى التشكيك حتى في هويتنا العربية الإسلامية التي هي ملاذنا جميعا منذ القدم وحتى ما شاء الله.

هذا المناخ الذي نعيش فيه جميعا هو الذي ألح علي كي أقترح: "مؤتمرا عاما للمفكرين والمثقفين العرب المنتشرين في شتى أنحاء العالم يكون بداية حقيقية لتجمع عربي فاعل أو نواة فعلية لجمع الشمل وتوحيد الموقف تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين". فهويتنا تتعرض لهجوم منظم من الداخل ومن الخارج والأدوات المستخدمة كثيرة منها المرئي ومنها غير المرئي، منها السم ومنها العسل!

ومن البديهي أن تلاقح الأفكار يسهم في تقريب وجهات النظر ويساعد على تماثل الرؤى ويعين على توحيد الجهود ولاسيما إذا كانت الأفكار صادرة عن أولئك الذين لا تحركهم مصلحة ذاتية أو منفعة آنية، وبالأحرى فهم قادرون على أن يتجردوا من الأهواء والأغراض وأن ينظروا إلى الواقع بموضوعية وبعقل متفتح.

وأعتقد أن المفكرين العرب بالمفهوم الواسع، على اختلاف مناهجهم الفكرية وتنوعْ تجاربهم هم أقدر الناس على تحليل هذا الواقع المتردي تحليلا علميا دقيقا إذا ما أتيحت لهم فرصة لأن يلتقوا وينقلوا إلينا خبراتهم في المجتمعات التي يعيشون فيها بالخارج ويجتمعوا

بأمثالهم في داخل الأمة فيرصدوا الواقع العربي من ناحية وواقع العالم الذي يتطور بسرعة لا حدود لها من ناحية أخرى.

ومن الجدير بالملاحظة أن الجامعة العربية التي دافعت وتدافع عن المصادر العربية قد التقى تحت قبتها ساسة ودبلوماسيون ورجال اقتصاد ولم يجتمع في رحابها المثقفون، صحيح أنها لم تعن العناية الكافية بجمع هذه الطاقات العلمية والثقافية التي تستغلها بيئات أجنبية في حين كان جديرا بها أن تبحث عن طريقة مثل تلك التي ذكرتها فتجمع هذه العقول المهاجرة لتستفيد منها في عملها ودورها في توحيد الفكر والموقف والدفاع عن مصالح الأمة، وبقيت هذه العقول تعمل معزولة عن بعضها البعض معتمدة على جهودها الذاتية، كل حسب إمكانية وظروفه الخاصة.

إننا نتحدث دائما عن التخلف الذي يمسك بتلابيبنا ولكننا لا نعمل على الخروج منه الحية العظيمة التي اندمجت بالعالم المتقدم وعرفت التي اندمجت بالعالم المتقدم وعرفت النواميس التي سار عليها حتى وصل إلى ما وصل إليه من تقدم مذهل، ومع هذا فنحن لا ننكر أن هناك خطوات قطعناها على هذا الطريق ولكن وتيرتنا تبقى ضعيفة بالقياس إلى غيرنا وبالنظر إلى الأشواط التي علينا أن نقطعها حتى نلحق بالركب.

وهنا أن أسوق حديثا جرى أمامي بين دبلوماسيين في قطر عربي شقيق فقد سئل سفير إحدى الدول الآسيوية التي تهز العالم كل يوم أنباء اختراعاتها الجديدة وتقنياتها المبتكرة، سئل هذا الدبلوماسي:"متى يصل العرب إلى مستواكم العلمي والحضاري؟" فكان جوابه: "يمكنكم ذلك بعد ثلاثين عاما إذا بدأتم من الآن ..!"

ويمكن أن نتصور المستوى الذي سيبلغه هذا البلد بعد هذا العدد من السنين، فقد اعتبر هذا الدبلوماسي أننا لم نبدأ بعد في وضع أسس التقدم العلمي الذي يساعدنا على اللحاق بأمثاله في العالم. وإذن متى نبدأ؟؟!

لعل هذه الأفكار وغيرها هي الدافع لكتابة هذه الورقة وأقترح فيها جمع هذه القوى الفكرية والثقافية ممن يهمهم حتى ندخل القرن القادم ولدينا تصور كامل لمكاننا فيه بين سكان المعمورة.

إن هذه العقول العربية المهاجرة حين تفد من أمريكا وآسيا وإفريقيا وأوروبا واستراليا ويلتقي أصحابها بأمثالهم في الأقطار العربية فإن هذا اللقاء في حد ذاته يمثل حدثا علميا رائعا ومشهدا فكريا فريدا سيكون له ما بعده، فالجميع سيقدم تجربته ورؤيته وتحليله لواقعنا وواقع الآخرين والمقارنة بينهما، هذه المقارنة التي ستكون بلا شك مفيدة للجميع: للحاكم والسياسي والاقتصادي والمثقف وغيرهم،

مفيدة للمجتمع المدني، مفيدة للجماهير العريضة في الوطن الكبير مما يسهم في توعيتها وتغيير نظرتها للواقع نزوعا نحو غد أفضل.

أما القضية المحددة التي تفرض نفسها على هذا الجمع الحاشد من رجال الفكر العرب فستكون:

كيف نضع مشروعا حضاريا شاملا لنهوض الأمة من كبوتها؟ من أين نبدأ وكيف يكون الانطلاق بعيدا عن الالتزامات السياسية الظرفية والحدود القطرية الضيقة؟ كيف نخرج برؤية شاملة لنهضة حضارية جديدة لأمتنا رؤية نقدية موضوعية جزئية تضع النقاط على الحروف وترسم الطريق وتحدد المناهج وبعدها يخرج الجميع بخطة علمية قابلة للتنفيذ حسب مراحل محدودة وواضحة مع تشكيل جهاز لمتابعة هذا التنفيذ.

ومرة أخرى نقول إن هناك كيانات ودولا نشأت وخرجت للوجود نتيجة مباشرة للقاء مجموعة من المفكرين المؤمنين بها ولو كان رجال السياسة هم الذين اجتمعوا ما حققوا شيئا! الفكر.. الفكر أولا وبعده يأتي كل شيء.

إن هذا المؤتمر المقترح يمكن لأي بلد عربي أن يستضيفه دون التدخل في سير أشغاله، ولم لا يكون هذا البلد الطيب الذي نجتمع فوق أرضه اليوم؟ الإمارات العربية المتحدة الذي عودنا على المبادرة في

العمل على التقريب بين وجهات النظر العربية كما عرف عن صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان دفاعه المستمر عن مصالح الأمة العليا.

أما الإعداد له ماديا وأدبيا فإن "المركز العربي للدراسات الإستراتيجية" مؤهل لأن يلعب هذا الدور الرئيسي في اقتراح الأشخاص ووضع الخطوط العريضة لهذا المؤتمر والإشراف عليه.

ونصل إلى مشكلة التمويل وهو الأمر الأصعب من كل ما سبق وفي تصوري أن هذا التمويل ينبغي أن يشارك فيه:

أولا: أغنياء الأمة ورجال الأعمال العرب سواء من يعيشون على الأرض العربية أم يعيشون في القارات الخمس، والأمثلة كثيرة على الدور أمثال هؤلاء في نهضة بلدانهم وتطورها وفي احتضان الثقافة وإنعاشها وتمويل قنواتها المختلفة، فهل يفعل رجال المال عندنا ما يسجله لهم التاريخ؟؟!

ثانيا: المنظمات الشعبية في الداخل والخارج باعتبارها تمثل الحس المدني للجماهير العربية.

ثالثا: الجامعة العربية بوصفها مؤسسة عربية عامة لا ممثلة للحكومات.

رابعا: يترك الباب مفتوحا لمساهمة المواطنين العرب أينما كانوا.

بقي أن أذكر بأن الهدف من المشروع الحضاري الشامل الذي سيتمخض عنه المؤتمر هو مشاركة الجميع في معرفة واقعنا وطموحنا بوصفنا أمة ذات حضارة تزال شواهد ذلك ماثلة حتى الآن، وهي قادرة اليوم على العطاء والعطاء الوفير لفائدة الإنسان العربي والإنسان أينما كان.

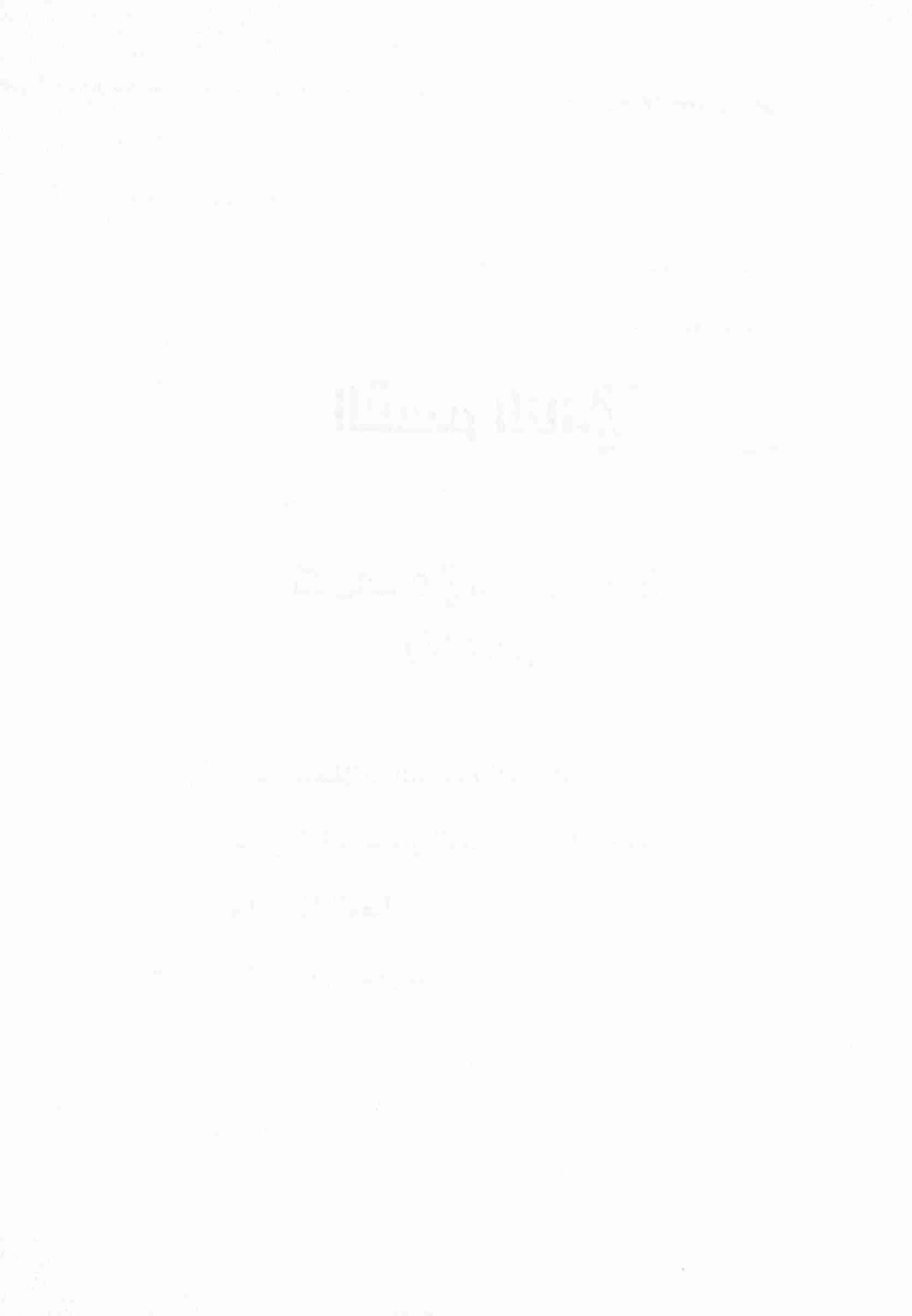
وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر دولة الإمارات العربية المتحدة، أميرا وحكومة وشعبا على الضيافة الكريمة وعلى الاستقبال الأخوي الحار الذي سيبقى ذكرى عزيزة على قلوبنا مدى الحياة كما أغتنم الفرصة لأشيد بجهود الأخ الرئيس على ناصر والعاملين معه في المركز في خدمة أمتنا وثقافتنا وفي خدمة البحث العلمي الذي هو طريقنا إلى التقدم والازدهار.

الجزائر في 22 أكتوبر 1997

القسم الثاني

كلمات في الديمقراطية والتعريب

- رأي في استقلالية الجامعة الجزائرية
- الديمقراطية والحوار الساخن في الجامعة
- كلمات بلا انفعال
- بين التعريب والتغريب



راي في إستقلالية الجامعة الجزائرية

منذ أعلنت الحكومة الجديدة عن فكرة استقلال الجامعة الجزائرية وأنا أفكر في كتابة هذا المقال، فقد كنت طوال هذه الفترة أتأمل الموضوع وأقلبه على وجوهه - كما يقال - باستمرار وأتساءل بيني وبين نفسي عن أمور كثيرة تتصل بهذه القضية من قريب أو بعيد خاصة بعد أن أجري تغيير في وزارة التعليم لعالي وعين للجامعات وزير منتدب كي يطبق هذه السياسة التي هي بصدد الخروج إلى حيز التنفيذ الفعلي في الميدان.

والواقع أنني غير مقتنع في قرارة نفسي وفي أعماق فكري بهذا الموضوع الذي ستنتقل إليه الجامعة، لسبب بسيط هو أن الواقع والمستقبل معا يفرضان وجود وزارة للتعليم العالي، لأن مهمة هذه الوزارة لا حدود لها إذ أن التعليم العالي والجامعي، ينتشر ويتطور وتتسع آفاقه بحكم التطور العام وإقبال المواطنين على ذلك فيما يأتي من الزمن، وهذا يفرض علينا إنشاء مؤسسات جديدة تابعة للتعليم العالي تلبي حاجة المجتمع من ناحية وتتيح للمواطن أن ينهل من العلم والمعرفة من جهة ثانية وتلاحق التطور العلمي والثقافي من ناحية ثالثة.

ورغم هذا فإنني فضلت أن أنقل هذا التفكير وهذا التأمل إلى الخارج وأقصد به صحيفة

"الشعب" لغراء إسهاما في البحث عما يساعد على توضيح الرؤية خاصة وأننا لم نطلع بعد على الخطة التي يمكن أن تبين طرق تطبيق هذه التجربة الجديدة في جامعاتنا ولم نعرف بعد ما هي تصورها لهذه الاستقلالية أولا وأخيرا...

وطبعا فإن رجال الجامعة اليوم سيواجهون هذه التجربة وهم مؤهلون لمناقشتها من جهة ومسؤولين عن تطبيقها من جهة ثانية بحكم أنهم العنصر الأول الذي سيصاحب هذه التجربة، وربما أنهم سيكونون مسؤولين عن نجاحهم ومن واجبهم أن يبدوا رأيهم فيها سواء داخل حرم الجامعة أم خارجه.

وإذا كانوا في الماضي لم يتح لهم أن يلعبوا دورا أساسيا في التجربة السابقة، فإنهم الآن - في ظل الحوار الواسع العميق الذي يتيحه المناخ الديمقراطي - مدعوون لمناقشة تجري حول الإصلاحيات السياسية والاقتصادية. والآن جاء دور الإصلاح داخل الجامعة، هذه المؤسسة الخطيرة في وظيفتها وأهدافها ومهمتها العلمية والإنسانية والوطنية أيضا.

ومثل أية تجربة جديدة فإن الآراء ستتفق أو تختلف والمفاهيم ستتقارب أو تتضارب، ولكن الأمر الهام أن تقدم لنا الرأي أو الاقتراح البناء الذي يعين من يتصدون لتطبيق هذه السياسة الجديدة.

إن خطورة الجامعة تأتي من أنها مؤسسة تختلف شكلا ومحتوى وأسلوبا ووظيفة وتطبيقا وإطارا عن بقية المؤسسات نظرا للفلسفة التي دفعت بالأمم والحكومات إلى إنشائها.

إن هذه الخطورة أو تلك الأهمية تنبع من كونها "تصنع" الإنسان - فردا أو إطارا أو قيادة - وهذه ميزة تنفرد بها الجامعة عن باقي المؤسسات كيفما كان نوعها، فإنتاجها مختلف عن سواها وهي لا تصنع هذا الفرد لفترة أو زمن معين بل هي تصنعه في حركة دائمة إلى مالا نهاية. ثم إن وظيفتها - بالطبع - مختلفة أيضا، فإذا كانت المؤسسات الاقتصادية مثلا تلبي حاجة الفرد والمجتمع المادية فإن الجامعة تلبي حاجتهما الروحية والفكرية والعلمية والحضارية في آخر الأمر.

وهذه الملاحظات التي أبديتها في هذا الحديث هي وجهة نظر متواضعة حول قضية هامة - كما أسلفت - وهي مبنية على تصوري الشخصي وعلى تفكيري الخاص الذي لا يستند على مثال سابق لأنني من تجارب الآخرين دون أن نتبناها كما هي لأن هذه التجارب ظهرت

في بيئات وظروف خاصة وارتبطت بواقع معيّن قد لا يشبهه واقعنا وإن تقارب معه في بعض الملامح والسمات وعليه فإن واقعنا هو الذي يحدد تجربتنا ويعطينا سماتها الخاصة وتفردها المتميز وبالتالي يجعل للخصوصية عندنا مذاقها وصورتها المثلى التي نعمل على رسمها في إطار يراعي حياتنا

ونظرتنا، ذلك أن استعارة القوالب من الخارج يبطل ملكة الابتكار لدينا ولا يعود بالنفع على مجتمعنا ولا يحقق تطلعاتنا في تغيير واقعنا نحو الأفضل ماديا وروحيا وحضاريا.

لهذا كله، بادرت بالمشاركة في الحوار الذي أتوقع أن يبدأ من الآن ويستمر ويشمل مختلف فئات المواطنين حتى نصل إلى مفهوم موحد لاستقلالية هذه المؤسسة وإلى منهج علمي دقيق وعقلاني يراعي الحاضر والمستقبل معا.

وفي تصوري فإن هناك كثيرة تتصل بهذه التجربة منها ما يمكن أن نعتبره قواعد عامة ومنها ما يمكن أن يكون روافد لها ومنها ما يكون تفصيلا لها حتى تكتمل الصورة، ويبدو أنه لا مناص من مناقشة الجوانب التالية:

أولا : مفهوم الاستقلالية كما نتصوره

ثانيا : التكوين في مجالي البيداغوجية والبحث العلمي

ثالثا : التسيير والتوجيه

رابعا : الإشراف الإداري والمالي

فيما يتعلق بالجانب الأول أي المفهوم، فإنه قد يصعب تحديده بدقة كبيرة لأن تصور الناس مختلف حسب القناعة والتجربة والهدف من استقلالية الجامعة. ولعل من المفيد أن نعرض لتجارب الآخرين ثم نحدد مفهومنا نحن أو على الأصح – تصوري الخاص لصورة الجامعة مستقبلا ولاستقلاليتها في العناصر التي سبقت الإشارة إليها.

وإذا نظرنا إلى تجارب الآخرين شرقا وغربا بل وفي البلدان الشقيقة وفي العالم الثالث بوجه عام فإننا نلحظ ما يلي من أنماط:

1- الجامعة الخاضعة لإشراف الدولة إشرافا تاما سواء في برامجها أم تسييرها أم العناصر المكونة لها، وبالتالي في سياستها وتوجهها مثلما هو الأمر بالنسبة لجامعتنا منذ الاستقلال وحتى اليوم، الأمر الذي فرضه نظام الحزب الواحد والتوجه الاشتراكي. ويوجد هذا النظام في كثير من البلدان التي تعتبر الجامعة مؤسسة حزبية عليها أن تخدم الشعب والنظام السياسي للبلاد.

2- الجامعة المستقلة، استقلالا تاما، وهذا في الأنظمة الليبرالية الغربية أو من يأخذ في هذه الليبرالية سواء في الغرب أم في العالم الثالث، وهي بطبيعة الحال لا تخضع لنظام الحكم مباشرة ولكنها تخدم المذهب السياسي للبلاد وتخضع لتوجيه أصحابها الذين أسسوها وينفقون على أجهزتها وعمالها وإطاراتها. وميزانية هذه الجامعة تأتي من الإسهام فيها ومن المشروعات التي تقوم بها لمن يتعاقد معها أو من رسوم الطلبة الذين يدرسون في كلياتها. ويوجد هذا النمط حتى في بعض الأقطار العربية مثل الأردن كما يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلدان الغربية.

في هذا النمط من الجامعات يتحكم قانون العرض والطلب في مناهجها وبرامجها ووظائفها وإطاراتها مثلما في ذلك مثل أية مؤسسة رأسمالية أخرى. على أنه في بعض هذه البلدان التي تأخذ بهذا النظام توجد جامعات "رسمية" ليست عامة ولكن لها خصوصية معينة بحيث يدرس فيها أبناء الصفوة من الطبقة الحاكمة أو التي ستحكم مستقبلا!

هذه خطوط عامة لتجارب متنوعة وربما توجد تجارب أخرى مختلفة عنها جزئيا ولكن تبقى الخطوط العامة تدور في هذه الدوائر وإن اختلفت ملامحها وسماتها.

وإذا كانت الجامعات في بعض الدول أو بعض البلدان العالم الثالث الذي ننتمي إليه اختيارات محددة بحيث أرست لها قواعد شبه ثابتة بحكم طول الممارسة، فإن هناك جامعات أخرى في هذا العالم الثالث الذي ننتمي إليه اختارت نهج التقليد واستسهلت النقل والاستعارة من الغير بحيث أصبحت صورة طبق الأصل للمفاهيم السابقة. وهناك من حاول التجربة الذاتية ولا يزال - كما هو شأننا منذ الاستقلال - لعلنا نصل إلى نموذج يلائمنا بحق ويناسب واقعنا وطموحنا واستقلالنا السياسي والثقافي والعلمي.

أجل، نحن حتى الآن لازلنا نبحث عن النموذج الأمثل فيما يتصل بمهمة الجامعة ودورها ونظمها وطريقة تسييرها ومدى ما تنجزه علميا وبيداغوجيا، ومن ذلك ما يتصل بمفهوم استقلالها الذي نحن بصدده والذي أصبح قرارا سياسيا جاء التفكير فيه بعد الهزة التي عاشتها البلاد منذ أكثر من عام وبعد ظهور الإصلاحات وإقرار مبدأ التعددية الحزبية.

على أنه ينبغي لنا أن نبحث عن مفهوم يتفق ونظرتنا وتصورنا وواقعنا ومصلحة الوطن بقطع النظر عن هذه الظروف التي فرضت علينا البحث عن تجربة جديدة في مفهوم استقلالية الجامعة.

ودون الدخول في التفاصيل فإنني أتصور أن هذا المفهوم لا يصح أن نجعله جدارا عازلا بين الجامعة بمعناها الواسع وبين المجتمع

وتاريخه ومستقبل أجياله القادمة، بحيث لا نتصور أن تصبح مؤسسة خاضعة لفكر جماعة أو طبقة أو لمصلحة فئة معينة، أو أن تكون "بيتا" لأصحابها وحدهم يفعلون فيها ما يشاؤون بالهدم والبناء دون أن يكون لغيرهم أدنى رأي حتى في الإصلاح أو التعديل لأن ذلك ملك خاص لهم فقط.

نحن لا نتصور ذلك لسبب واضح وبديهي هو أن الجامعة تجسيد للمستقبل وملك للشعب كله فوق أنها أداته وطريقة إلى التقدم وسبيله إلى الحضارة، وأي خلل فيها يؤثر في المجتمع بكافة فئاته، ومن الخطورة بمكان أن ننظر إلى الجامعة نظرتنا إلى الشركة أو مصنع أو مؤسسة اقتصادية نحدد مردوديتها بما تقدمه من عائد مادي ملموس، نستغلها حين نشاء ونبيعها حين تفلس لنستبدلها بمشروع آخر يكون أكثر ربحا، مثل هذا الفهم خطير للغاية لأنه يؤدي إلى فوضى في الرأي والفكر وإلى نتائج ضارة بالفرد والمجتمع.

إن التعدد هنا غير وارد إلا فيما يتعلق بالإصلاح والتطوير أما في المفاهيم والسياسات والاجتهادات والثوابت والأسس والمبادئ فهو مرفوض لأنه يؤدي إلى الانقسام والفوضى في حين أن الجامعة وجدت لتوحيد هذا المجتمع المزدهر المتماسك الذي نطمح إليه. يؤكد هذا الفهم أو التصور أن مجتمعنا حتى هذه اللحظة لا يزال يبحث عن الاستقرار السياسي والاجتماعي والثقافي والعلمي، وهذه الحيوية التي

يتمتع بها صفة جيدة ومطلوبة ولكن لا بد من وجود قدر من الاستقرار النسبي والجامعة تساعد على هذا الاستقرار مثلما تساعد عليه مؤسسات أخرى بحيث تعمل كلها على تنمية سليمة في نطاق الوحدة. ويجب ألا ننسى أننا لم نصل بعد إلى مستوى من التعليم العام الشامل لكل أفراد المجتمع حتى نفصل الجامعة عن المجتمع ونفكر في الربح والإنتاج المحسوس.

إذن ما هو التصور الممكن والمقبول لجامعة الغد واستقلالها؟؟ في اعتقادي أن هذه الجامعة يجب أن تكون أولا "وطنية" وألحّ على هذه الصفة لأنها هي التي تعطيها صورتها الحقيقية السليمة لا الجامعة التي تعكس صفة خاصة لأصحابها وحدهم. ونحن نعتقد أن الاستقلال هنا يعني أن يكون المعنيون بها مستقلين في وضع برامجها ومناهجها وتسييرها ولكن في نطاق المصلحة العليا للوطن حتى تكون صورة للمجتمع وتعبيرا عن مصلحة أفراده وفئاته كلها، تتحقق فيها الديمقراطية التي تمس الجوهر لا الشكل فقط، ولا تضر بمصلحة الأغلبية بل ولا تحول بين أي مواطن وبين دخولها والجلوس فوق مقاعدها.

وإذا كان من حقنا أن نناقش اليوم استقلالية الجامعة فليس من حقنا أن نضع الأسلاك الشائكة التي تعترض الأجيال القادمة وأن نصادر رؤيتهم لمستقبلها ومفهومها، فعامل التطور كما يصدق على

الإنسان يصدق على المؤسسات ومنها الجامعة، نريد من الجامعة أن تكون قطاعا استراتيجيا للحاضر والمستقبل لا يتصرف فيه سوى الشعب.

ثانيا: التكوين:

بعد هذه المقدمة النظرية في مفهوم الاستقلالية نصل إلى التطبيق، فمن خلاله يمكن أن نلمس ملامح الجامعة المستقلة وأنا مقتنع تماما بأن أهم شيء في الجامعة يتمثل في جانب التكوين بشقيه البيداغوجي والعلمي، وهذان العنصران لا يتحققان بقرار من السلطة - أيا كانت - خارج الجامعة لأن الذي يخوض التجربة ويمارسها هو الذي يعيشها ويعايشها يوميا وفي داخلها، لذلك فإن التخبط الذي عاشته جامعتنا حتى الآن كان نتيجة للقرارات الصادرة من خارجها والتي تتسلسل حسب السلم الإداري، الأمر الذي أوجد تراكما من "البيروقراطية" وأشكالها وأنواعا من "البيروقراطيين" وأشباههم غير مؤهلين للتخطيط والابتكار ولا حتى الاجتهاد مما جعلهم يفضلون الاستعارة والنقل المباشر أو المعدل بوعي أو بغير وعي ويستخدمون أدوات عاجزة أو ناقصة مما زاد من تفاقم الأوضاع.

فإذا أردنا اليوم أن يتحقق هذا الاستقلال فعلا ويحقق المصلحة الوطنية فما علينا سوى أن نحرر الجامعة من الوضع القديم ونعطي الثقة الكاملة في إطاراتها الوطنية المخلصة القادرة على وضع البرامج

والتخطيط للمستقبل ومتابعة التطور - كماً وكيفاً - في الجامعة وخارجها وفيما يلي اقتراحات في هذا الجانب تتمثل في أمرين:

1- الجانب البيداغوجي:

ضرورة إحداث دوائر مستقلة متقاربة أو متماثلة تشمل كافة الجامعات حسب التخصصات تخطط وتشرف وتقارن بين التجربة

والأخرى وتتابع التطبيق وتستخلص النتائج، مثلا يمكن أن نحدث دائرة للغة وعلومها وأخرى للأدب ومدارسه وثالثة للترجمة وما يتصل بها (مثل معهد الترجمة الفورية) ورابعة للغات الأجنبية وخامسة للعلوم الدقيقة التي تجمعها جذور واحدة، وينطبق هذا على العلوم الاجتماعية والإنسانية بوجه عام.

هذه الدوائر مستقلة في التخطيط والبرمجة والإشراف، وبكلمة واحدة تكون مسؤولة عن كل ما يشمل هذا الجانب من قريب أو بعيد، توحيدا للرؤية وإغناء للتجربة.

2- الجانب الخاص بالبحث العلمي:

بهذا النظام نفسه ننشئ دوائر للبحث العلمي تكون مستقلة أيضا في تخطيطها وتتابع تجربتنا - تقويما وتعديلا وإضافة - ويشرف على هذه الدوائر من لهم تجربة وخبرة في البحث العلمي وبرهنوا فعلا على ذلك بدراستهم الجديدة الجادة في مختلف العلوم

الإنسانية والدقيقة بشتى فروعهما وأنواعهما وتكون لهم الصلاحيات الكاملة في التوجيه والتنفيذ مع مراعاة المصلحة الوطنية وأولويات ما يقدم وما يؤجل في هذا المجال.

فنحن في هذا المضمار لا نعرف ما يجري في هذه المؤسسة أو تلك بحيث تتكرر أحيانا البحوث بلا طائل وتبدد جهود كان أجدى أن تبذل في موضوعات أخرى ويمكن أن نضرب مثالا بميدان الأدب، وهو ما أزعم أن لي صلة قوية به، فنحن لا نعرف ما يتم من البحوث في الجامعات الجزائرية فضلا عن الجامعات العربية بل العالمية، فلو كانت هناك دائرة تلم شتات هذا التخصص في نظام هرمي لأمكننا أن نوحد الجهود وننسق العمل ونحقق الهدف من البحث العلمي ومفهومه ونتائجه التي نطمح إليها.

وفي هذا الشأن أقترح إنشاء (ماجستير) تكون خاصة بالبحث توضع لها مقاييس محددة وينجزها طلبة الدراسات العليا ولكنها تكون مقصورة على الباحثين الذين يرغبون في مواصلة البحث داخل الجامعة أو في مراكز البحث العلمي التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد.

وفوق أن ذلك يشجع الباحثين من الشباب ويسهم في تقدم البحث وإغناء تجربة الباحثين فإنه يسهم أيضا في تنمية عالم الشغل،

وقبل هذا كله يتيح الفرصة للذين تتوفر فيهم القدرات والكفاءة لإثراء البحث العلمي.

وهناك جامعات كثيرة في العالم تأخذ بهذا النظام ولكن علينا نحن أن نراعي ظروفنا حين ننشيء مثل هذه الشهادة، وليس المهم التسمية بقدر ما علينا أن نفكر في قنوات جديدة للبحث العلمي، فربّ باحث شاب يبتكر نظرية في صفحات قليلة تفيد المجتمع أكثر من بحث في مئات الصفحات، ثم إن هذا يتماشى مع الديمقراطية فأنا أفضل أن يكون عندنا باحثون وحاملو شهادات عليا حتى ولو لم يجدوا الفرصة، لتحقيق ذلك في الميدان، وكذلك لكي نخرج من مفهوم تقليدي أصبح شائعا وهو أن الشهادة العليا تعطي فقط للتدريس في الجامعة أو في الثانوي، فلماذا لا نغير من هذا التفكير ونحن نبحث عن طريق جديد أو أسلوب جديد في مفهوم الجامعة ومستقبلها؟؟

إن هذه الشهادة - مثل غيرها من الشهادات الجامعية - ينبغي أن تعطي باسم الجامعة والمجلس الأعلى للجامعات، وهو ما سيرد القول فيه، وباسم الوزارة حتى تكون لها قيمة علمية ووطنية وعالمية مثل أية شهادة في الجامعات التي تحترم نفسها وتعتز بشهادتها وتدافع عنها بل وتعادلها مع غيرها في نطاق التبادل الثقافي مع البلدان التي تربطها بها اتفاقيات علمية أو ثقافية.

يستتبع ذلك ضرورة إنشاء دوريات متخصصة حسب الدوائر التي سبق الحديث عنها تنشر فيها البحوث عنها تنتشر فيها البحوث والدراسات التي ينجزها الباحثون الجدد والأساتذة القدامى وكذلك الطلبة المتفوقون تشجيعا للبحث والباحثين، على أن يكون نشر هذه البحوث والمؤلفات حسب الدوائر نفسها. كذلك فإنه من الضروري العمل على ترجمة ما يساعد الباحثين والبحث العلمي من مؤلفات ودراسات من العربية وإليها إغناء لثقافتنا من ناحية وللإطلاع على الجديد في العلوم والآداب بمختلف فروعها من ناحية أخرى. وفي هذا السياق يمكن إنشاء معهد للترجمة الفورية كما سبق القول وأهميته لا تخفى على أحد.

ثالثا: التسيير والتوجيه:

لاشك أن هذا العنصر مهم جدا مثل السابق فيما يتعلق باستقلالية الجامعة وفيه تتحقق الديمقراطية الحقيقية لأنه المنطلق والمنتهى فيها، وهو الذي يعطي أيضا مفهوما حقيقيا للديمقراطية وتطبيقها وقد أظهرت التجارب التي مرت بها الجامعة - في هذا المجال - سلبيات كثيرة منذ الاستقلال حتى اليوم وإن لم تخل من إيجابيات معتبرة أيضا وأصبح معروفا أن الإيجابي فيها هو توحيد التوجه في الجامعة لخدمة الشعب بجميع فئاته ولكن أوضح سلبياتها

هو أن الرأي الواحد عامة كان هو الغالب والمسيطر، وحتى نحقق الديمقراطية الفعلية في هذه الناحية فلا بد أن نطبقها كاملة وإن تصورنا الأخطاء التي تقع فأنا أقول سلفا أنه في التطبيق ستتدخل المصالح وتتعدد القناعات ويتكتل الأفراد وتنتشر الشعارات وتكثر المناورات، ولكن أيضا ستتكشف النوايا ويتبين الخيط الأبيض من الأسود!

وليس هناك مهرب من "الانتخاب" لأنه المقياس الوحيد للديمقراطية ويشمل جميع المستويات من أبسط مسؤولية إلى أعلاها في هرم الجامعة أي يشمل ما يلي:

المعاهد:

1- إدارة المعهد تنتخب حسب القواعد محددة تخضع للعدد والمهام، بكلمة واحدة توضع للمعاهد درجات تراعي ظروف كل معهد من مختلف النواحي، فربما يكفي لتسيير معهد ثلاثة أفراد ولا يكفي غيره سبعة أفراد وأقصد الدرجات في التسيير لا في القيمة العلمية والثقافية فهي متساوية بالنسبة للجميع ومهمة المعهد الإدارية معروفة.

2- المشرفون على الدوائر والإطارات التي توجهها وتتابع أعمالها.

4- أعضاء مجلس البحث العلمي بكل معهد ورئيسه مع وضع قواعد للعضوية وللرئاسة.

5- هيئات المعهد الأخرى مثل اللجان التي تسهم في نشاطه من قريب أو بعيد كالموجودة حاليا ويمكن إضافة لجان أخرى حسب الحاجة ومتطلبات التطور.

الجامعات:

1- "رئيس الجامعة" وينتخب لمدة ثلاث سنوات مثل القيادات المستويات، ينتخبه مجلس الجامعة بالطبع المكون من المسؤولين عن المعاهد وعن البحث العلمي وعن الدوائر.

2- "منسقو الجامعة" وأنا أفضل هذه التسمية الجديدة لأن الاستقلالية ستلغى وظيفة نواب الرئيس آليا، فالدوائر وإدارات المعاهد ستقوم بالتسيير والبحث العلمي ويكون التسيق بين الهيئات هو الأساس، ويخضع هذا إلى ظروف كل جامعة، إذ قد يكفي منسق واحد وقد لا يكفي ثلاثة أو أكثر.

المجلس الأعلى للجامعات:

يكون بالطبع منتخبا لأنه يتكون من الأطر السالف ذكرها وهو رؤساء المؤسسات الموجودة أو المقترحة في هذا الحديث. إن مهمته واضحة وهي الإشراف الكلي على الجامعات من شتى النواحي ويرأسه رئيس منتخب من هذه الهيئات، كما يضع مقاييس محددة

للالتحاق بالجامعات وتوحيدها واستمراريتها حتى يبتعد عن "المحسوبية" والنظرة الذاتية خاصة في مجال البعثات إلى الخارج.

المجلس الأعلى للبحث العلمي:

ويشرف على هذا المجلس رؤساء الدوائر، كل في مجاله، وتديره هيئة منتخبة منهم تطبق سياسة هذا المجلس كما تتطلبها المصلحة العليا للبلاد وتوجد فيه جميع مراكز البحث العلمي في شتى أنحاء الوطن.

وينسق بين المجلسين الوزير المعني كما ينسق بينهما وبين إدارة الجامعة وبين الوزارة المعنية في نظام هرمي متناسق على أسس واضحة تراعي الحرية والضرورة وتراعي الكفاءة والمساواة بين الجميع.

4 - الإشراف الإداري:

حين تتحقق الاقتراحات السالف ذكرها وتصبح كل الهيئات مستقلة ومنتخبة فإن دور الجامعة يتحدد في المتابعة اليومية وفي التنسيق بين الهيئات التابعة لها. ويكون دورها أيضا في صرف الميزانية وشراء ما تحتاجه هذه الهيئات وتوفير الأدوات والوسائل الضرورية لسير المحددة وفقا للقوانين المعمول بها.

وهنا لا بد أن نعرض بشيء من التفصيل إلى ميزانية الجامعات والقنوات التي تسهم فيها وفي رأي أن الدولة يجب أن تقدم سنويا

ميزانية محددة للجامعات لسد نفقاتها الضرورية أما بالنسبة لمشروعات الجامعة وتطويرها وتوسيعها وإنشاء مصالح جديدة بها لصالحها وصالح المنتمين إليها فإني أقترح - بالإضافة إلى ما تقدمه الدولة - ما يلي:

1- تؤخذ نسبة رمزية من مرفق عام (مثل النفط أو الغاز الطبيعي أو غيرهما مما هو من أملاك الدولة كالجمارك مثلا..) هذه النسبة تكون حقا للجامعة مهما تغيرت الحكومة وسياستها.

2- إحداث ضريبة رمزية بسيطة لذوي الدخل المرتفع مثل كبار التجار أو أصحاب العقارات التي يستفيدون من الجامعة سواء فيما تقدمه لأبنائهم أم في المشروعات التي تسعى الجامعة لتحقيقها.

3- فرض رسوم معقولة على غير الجزائريين ممن يلتحقون بالجامعة ومعاهدها كما تفعل بلدان كثيرة حسب قواعد محددة تخضع لسياسة البلد والاتفاقيات بينه وبين البلدان الأخرى.

4- إنشاء مطبعة خاصة بالجامعة - بالمفهوم العام والخاص - تطبع مؤلفات وبحوث المعنيين بالأمر من جهة كما تطبع لغيرهم بالأجر مما يوفر مدخولا للجامعة من جهة أخرى.

5- يمكن أيضا أن تعطى الدولة قطعة من الأرض أو عقارات يكون ريعها للجامعة كما يستفيد منها الأساتذة لسكناهم وتستثمر أيضا فيما يعود على الجامعة بالنفع.

6- يمكن أيضا لأي مواطن أن يسهم في هذه الميزانية بأية مساعدة يرغب فيها كالهبة والوصية و"الحبوس" وغير ذلك.

7- يمكن للجامعة أن تتعاقد مع الجهات التي تحتاج إلى خبرتها مقابل ميزانية معينة تسهم في مداخيلها وفي تقدمها، على أن تكون هذه المشروعات بعيدة عن الاستغلال أو النفوذ من أي نوع وبشرط أن توضع لها قواعد محددة لا تمس استقلال الجامعة وتوجهها.

وأخيرا يأتي دور الوزارة وهو يتحدد بما سبق ذكره وتصبح أداة تنسيق بين الجامعات تتابع الإنجاز والتوجيه وتحدد مسؤولية الجميع حسب قواعد يضعها المجلسان اللذان أشرت إليها سابقا بالتعاون مع الوزارة.

وبعد..

هذه بعض التصورات التي تعتبر خطوطا عامة يمكن أن تكون مدار نقاش مع من يعنيهم الأمر من قريب أو بعيد حتى ترسم الصورة المثلى التي تسعى لأن تكون عليها الجامعة الجزائرية مستقبلا. ولا

أتصور مطلقا أن نصل إليها إلا إذا كانت جامعة تعبر عن هويتنا وشخصيتنا المستقلة وأن تكون العربية – وهي لغتنا الوحيدة- هي القاسم المشترك والأداة التي تحقق هذه الأهداف كلها سواء في الإدارة أم التعليم أم في البحث العلمي، وتكون عنايتنا بالغات الأجنبية إثراء لها وللبحث العلمي والتطور التقني. وبدون تعريب حقيقي شامل مع تحقيق ما ذكرته آنفا لن نخلق جامعة جديدة تعبر عنا وعن المستقبل الأجيال وعن آمالنا في الغد المشرق السعيد.

ملاحظة: نشر هذا المقال في حلقات بجريدة "الشعب" بتاريخ 6 و7 و10 ديسمبر 1989. وبعد نشره أثيرت ضجة حول الموضوع في الصحافة الوطنية وفي الجامعات حتى توقف هذا المشروع نهائيا.

الديمقراطية
والحوار الساخن في الجامعة

الحوار الساخن الحي الذي تموج به الجامعات الجزائرية اليوم ويملأ جنباتها ويسود هو ظاهرة بقدر ما هي جديدة بكل هذا الزخم والحرارة والحرية بقدر ما هي صحية طيبة تستدعي الوقوف عندها وتأملها.

هذا الحوار الذي انطلق عقب الأحداث المؤلمة التي عرفتها بلادنا والظروف القاسية التي عشناها وأثرت فينا جميعا وتركت بصماتها في نفوس وستبقى جراحها تنزف في داخلنا حتى يعود إلى النفوس اطمئنانها، بل وستبقى تجربة مريرة تستدعي البحث العميق في أسبابها ونتائجها وستنقش في ذاكرتنا، أفرادا وجماعات حاكمين ومحكومين، ستبقى في أذهاننا مدى الحياة ولن يمحوها سوى أن نعيد النظر في مسلمات وتصرفات وقناعات كثيرة وأن نراجع أحكامنا في أمور ومواقف شتى.

والواقع أنني منذ هذه الأحداث المفجعة كنت أحاور نفسي وأصارعها، ولو طاوعتها لما كتبت حرفا لأن الصدمة كانت شديدة زلزلت كياننا وفكرنا جميعا ودفعت اليأس إلى النفوس المتفائلة

وكادت أن تحطم الحلم الذي ظل يراودنا طيلة ربع قرن ليحل محله واقع قاس قاتم فامتلأت الحلوق بالغصة والمرارة وتطامن الكبرياء القديم وتضاءلت القامة المرتفعة التي كنا نظن أن أحدا بعد ثورة نوفمبر المجيدة لا يمكن أن يؤثر فيها أو يغطي على ضوئها ويحجب ضياءها.. وانكمشنا نجتر آلامنا في صمت ونشرب أحزاننا في ألم قاتل..

ولعل هناك من الزملاء من يشاركني الصمت، ولعل كتابتنا تفسر على أنها نوع من التنفيس أو نوع من المشاركة ثم ينتهي كل شيء ونعود إلى الصمت من جديد وتبقى تلك الأحداث مجرد ذكرى عابرة لا أثر لها ولا تأثير. ولكن الواقع أنه حين أعلن عن الإصلاحات السياسية تفاءلنا خيرا وداعبنا الأمل مرة أخرى.. ومن هنا انتصرت على نفسي وعلى أحزاني وفضلت أن أفكر بصوت مسموع بدلا من الحديث إلى النفس وأن أسجل خواطري وأفكاري وأعبر عن رأيي فقد يكون فيه ما يساعد من يهمه الأمر في المؤسسة التي قضينا فيها أحلى أيامنا وأعني بها الجامعة التي تزخر - كما قلت - بالحوار الساخن.

وقبل أن أبدي رأيي أقول إننا نلحظ في هذا المناخ ظاهرة كانت خفيّة من قبل بل كانت كامنة منذ سنين وبرزت الآن للعيان، وهي أن

مفهوم الديمقراطية اتسع ليشمل أية دعوى كيفما كانت بحيث اختلط الحابل بالنابل وأصبح المنطق والعقل لا يجد من يستمع إليه في أحيان كثيرة. أكثر من هذا ظهرت تيارات كانت تخشى أن تظهر ورفعت شعار الديمقراطية لا بقصد خدمة القضايا الوطنية الأساسية ولكن كي تخدم أهدافا معينة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب(!) وليتها كانت وليدة قناعات خاصة تحركها دوافع مخلصة صادقة، فنحن مع الديموقراطية الصحيحة التي تخدم مبادئنا وأهدافنا لا تلك التي تدفعنا إلى التبعية لأية جهة كانت، فهذه الأخيرة مرفوضة اليوم وغدا داخل أسوار الجامعة أو خارجها.

وأعود إلى الجامعة، لقد عاصرت تجارب كثيرة منذ الستينات وحتى اليوم سواء منها ما يتصل بالجانب البيداغوجي أم البحث العلمي أم التسيير الإداري، ولا شك أن هذه التجارب تساعدنا الآن في هذه المرحلة التي نتحاور فيها جول الديمقراطية حتى مع أطفالنا الذين أصبحوا مثل الكبار لا يكتفون بما نقوله لهم وما نقدمه لعقولهم فما بالك بالطلبة الجامعيين والأساتذة؟!.. إذن فالحوار معهم أضحى ضرورة ملحة تتطلبها المرحلة وتستدعيها الظروف ويدفعنا إليها إيماننا بالدور الهام الذي تلعبه الجامعة في مستقبل الوطن والأجيال وفي خدمة المجتمع.

أجل فقد حان الوقت لكي تلعب الجامعة الجزائرية دورها في ريادة الفكر ونشر المعرفة والثقافة الحية الجادة بدلا من المهمة التي اقتصرت على أدائها منذ الاستقلال حتى اليوم وأعني بها تكوين الإطارات التي تشغل مناصب داخل الجامعة وخارجها. يجب أن تعمل الجامعة على تغيير الفكر السائد المألوف وترسيخ الفكر الجديد والقيم الحقيقية التي تخدم التقدم والمجتمع وتربي فيه حب المعرفة والدفاع عن الحق والعدل والحرية ثم الإسهام في التنمية الوطنية بمختلف جوانبها المادية والثقافية والحفاظ على الروح الوطنية وإذكائها في نفوس الأجيال كي نحافظ على شخصيتنا التي نسجناها عبر العصور.

ولكي يتم هذا لا بد من مراجعة مناهجها وأساليب التوجيه والتسيير فيها ونبذ التقليد في ذلك كله فقد حان الوقت كي نفتح باب الاجتهاد ونشجع الابتكار ونترك الطرق التي نقلناها حرفيا عن غيرنا وحاولنا تجميلها وتزويق ظاهرها وأسبغنا عليها مسحة من "المحلية" حتى نخفي وجهها "المستعار" من جهات بعيدة عنا وعن واقعنا وحياتنا ومفاهيمنا.

ولكن كيف يتحقق هذا؟؟

هل يكفي أن نرفع شعار الديمقراطية ليحقق لنا ذلك في لمح البصر؟ إن الديمقراطية ممارسة قبل كل شيء فلو مارسناها في الواقع - ولو بقدر قليل - لما وقع ما نعاني منه الآن لأنه حين تصبح المؤسسة الثقافية "إقطاعية" يتحكم فيها فرد واحد، يخطط وينفذ، يشرف ويوجه، يعين من يشاء و"يزيح" من يشاء.. فماذا يبقى لهذه المؤسسة من مبادرة؟ وماذا يبقى للإنسان من دور؟!

لقد عشنا في الجامعة منذ الاستقلال تجارب مختلفة فشلت لأنها اعتمدت على الرأي الواحد وعلى الفئة الواحدة وعلى المصلحة الفردية فانعدمت المبادرة المبدعة وضاعت الرؤية الجماعية لأن حرية الرأي والتعبير تجابه بالضغط وأصبح صاحب الرأي الحر يحارب بشتى الطرق أقلها عرقلة مشروعاته العلمية أو عرقلة ترقيته وما إلى ذلك بسبيل وباتت الجامعة في مأزق وبقيت النصوص حبرا على ورق بعد أن أفرغت من محتواها الديمقراطي ومن مضمونها الجاد السليم.

ولو عدنا إلى الماضي، ولا بد أن نعود إليه قبل الحديث عن الحاضر وعن آفاق المستقبل، لو عدنا إلى التاريخ القريب الذي عشناه بعد الاستقلال واستعرضنا تجاربنا فيما يتصل بالجانب البيداغوجي من ناحية وبجانب التسيير أيضا لرأينا حقلا للتجربة التي نبدؤها ثم نلغيها فجأة دون دراسة عميقة لها ولنتائجها ودون أن نأخذ منها المفيد

ونترك غير الصالح، فمن نظام "الشهادات" الذي استمر معمولا به في الجامعة طوال عقد الستينيات إلى نظام "الوحدات" في السبعينيات وأخيرا نظام "السنوات" ولست أدري ما هو النظام الذي يمكن أن نجربه من جديد فيما يستقبل من الأيام.. وهذه التجارب لها إيجابياتها وسلبياتها بطبيعة الحال كأي تجربة في الحياة ولكن المرء يتساءل هنا: هل من الطبيعي والمعقول أن نجرب في مجال حيوي كالتعليم العالي باستمرار وفي زمن قصير جدا، في حين أن الدول الأخرى والتي تملك تاريخا عريقا في التعليم والتربية والتكوين لا تقوم بمثل هذه التجارب إلا بعد دراسة متأنية وعميقة وعلمية وزمن طويل يثبت أن الواقع يتطلب التغيير نحو الأفضل، بينما نحن نجرب لمجرد التجريب ولا نترقب النتائج التي تؤكد ضرورة التغيير بالإضافة إلى عوامل أخرى يطول الحديث فيها أدت إلى ضعف في التعليم أقل ما يذكر فيه انعدام الديمقراطية الحقيقية وسيطرة الرأي الواحد كما أشرت فضلا عن تحكم البيروقراطية في التوجيه والتسيير، بينما المطلوب هو المشاركة الجماعية وتجميع التجارب والأخذ بالأفضل منها سواء كانت لفرد أم جماعة مارست المهنة وعاشتها فكرا ودراسة وعملا.

وإذا كان هذا قد حدث في الطريقة فإنه أيضا حدث في المحتوى، فهناك مواد تقترح في مشروع للإصلاح وتختفي في آخر، وهناك أخرى ضرورية للطالب ولثقافته قد تعتبر غير ضرورية لأن

المخططين للتعليم العالي يصدرون عن فهمهم الخاص أو لأنهم لم يدرسوها في الجامعات التي تعلموا فيها أو لأنهم لا يربطون بين الحاجة الآنية وبين النظرة الوطنية، وإذا اهتموا بذلك فإنهم يحدثون هذه المواد في نطاق التخصيص وحده بينما المفروض أن تدرس في كافة التخصصات وفي كافة الجامعات..فمثلا: الحضارة العربية الإسلامية من المفروض أن تدرس في كافة الجامعات وفي مختلف التخصصات وكذا التاريخ الوطني.. أكث من هذا فنحن ننشئ تخصصات ثم لا ننشئ لها مناصب عمل في المؤسسات، ويكفي أن نذكر مثالا على ذلك علم الاجتماع فحين يتخرج الطالب من هذا الفرع لا يجد مكانا للعمل لأننا لم ننشئ وظائف في المؤسسات التربوية أو في الشركات أو في البلديات والمجالس الأخرى التي من المفروض أن تستعين بهذه الخبرات من أصحاب المؤهلات الجامعية. وهناك تخصصات كثيرة ننشئها ولكن دون أن نفكر في الهدف منها وهذا يرجع إلى عدم التخطيط وعدم التنسيق بين الجهات المعينة، كل هذا انطلاقا من النظرة الفردية التي تعرف كل شيء ولا تشرك الآخرين في شيء!!

فإذا انتقلنا إلى مجال البحث العلمي وجدنا الأمر نفسه ينطبق عليه، فحين نتأمل الوضع نتساءل: ما جدوى البحث العلمي وأين نتائجه؟؟

بالطبع أنا هنا لا أتحدث عن تحضير الأطروحات ومناقشتها ففي هذا الحقل حققنا نتائج جيدة دون شك بالقياس إلى الفترة الزمنية القصيرة، ولكني هنا أتحدث عن المؤسسات التي تحمل هذا الاسم والتي أنشئت بغرض البحث العلمي وتقدمه في مختلف مجالات العلوم والمعرفة العامة أو الخاصة، فمثلا أسسنا منظمة للبحث العلمي وأطلق عليها اسم (المنظمة الوطنية للبحث العلمي)، انطلقت منذ سنوات على أساس أن تكون هي المنظمة الأم التي تنشر البحث وتعمل على تنميته في مختلف ميادينه ولكن بعد سنوات ألغيت بجرة قلم بعد أن انفق عليها وعلى إدارتها والباحثين فيها أموال طائلة ذهبت أدراج الرياح واختفت المنظمة فجأة دون أن نعرف لماذا ذهبت!!

وقد كان من الممكن لو أتيح للباحثين إبداء الرأي وأن يناقشوا الإيجابيات والسلبيات ويعدلوا أو يحذفوا أو يضيفوا إليها ما يجب أن يضاف بل ويستشار في ذلك أناس حتى من خارجها، وأن تبقى المنظمة منطلقا للبحث العلمي في بلادنا تتفرع عنها مراكز لهذا البحث في الجامعات أو في غيرها وبهذا نهيئ مناخا عاما للبحث العلمي ونقوم بتجارب مختلفة باختلاف الوسائل والأهداف حتى نطور من مفهومه من ناحية ونحقق الهدف من ناحية أخرى.

لكن ما حدث هو أننا أحدثنا نظاما جديدا للبحث العلمي يقوم على أسلس إعطاء الحرية لكل معهد في أن يقوم بالبحث في نطاق تخصصه، ولست أدري إن كان هذا النظام قد حقق شيئا

يذكر فأنا لم أشارك فيه ولا وافقت عليه لأنه - في اعتقادي - سيخلق مصالح معينة ولكنه لن يخلق بحثا علميا جادا، ولو استبدلناه بتجميع التخصصات الواحدة في مختلف الجامعات والهيئات المعينة ووضعنا هيكلا إداريا وعلميا يتوجه مجلس وطني للبحث العلمي لأحدثنا نظاما جادا منتجا ولحققنا ثمارا مهمة تسهم بحق في تقدم البحث العلمي عندنا. والأعجب من هذا كله أن نسمع من يقول: لقد اكتفينا في بعض التخصصات فلنوقف تسجيل الطلبة في الدراسات العليا... ونحن لا نزال في بداية الطريق وكأننا قد حققنا ما لم تحققه الدول المتقدمة حتى الآن، وكأن الحث العلمي يخضع لقانون العرض والطلب مثل أية سلعة في السوق في حين أنه قيمة دائمة مستمرة يضيف فيها الجيل القادم إلى الجيل الحاضر والماضي ما يستجد من تطور في حياة الإنسان وتقدمه، ومن هنا فلا يحق لنا أن ننظر إلى البحث العلمي نظرة عملية (براغماتية) كما ننظر إلى الأمور اليومية الزائلة.

لماذا لا يكون الموظف حاملا شهادة الماجستير أو الدكتوراه؟بل لماذا لا يكون الإنسان البسيط حاملا لشهادة عليا؟

هنا يكون الحديث عن الديمقراطية في الصميم لأن النظرة المتعالية الطبقية هي التي تنظر إلى المنصب أو الشهادة أو المعرفة نظرة متعالية - كما قلت - وتفرق بين الفرد وبين آخر فأين الديمقراطية إذن إذا يتساوى الناس وتتكافأ الفرص بينهم؟ ولكن لو فتحنا مراكز للبحث العلمي لاحتجنا إلى آلاف من الباحثين بل إلى عشرات الآلاف من الباحثين كما هو الشأن لدى من يؤمن بقيمة البحث العلمي ودوره الفعّال في شتى المواطن والميادين.

لقد قدمت اقتراحات في هذا الشأن منذ أكثر من عام لكن لا أحد يستمع أو يناقش أو يتابع ذلك أننا تعودنا على الرأي الواحد وعلى الأمر من أعلى في أي مستوى من المستويات - علمية كانت أم غيرها - فأين الرأي العام؟؟ وأين المشاركة في التوجيه؟؟ وأخيرا أين الديمقراطية في إبداء الرأي والعمل بالصالح منه؟؟

أما في مجال التسيير والإدارة والتوجه فلعل الأمر أكثر سوءا، لقد قمنا بتجارب أيضا في هذا المجال، كنا ننتخب رئيس القسم والعميد ونوابه وحين ألغي نظام العمادة أخذنا بنظام التعيين وبعد أن راجعنا هذا الأخير وجدنا أن الإدارة أصبحت تمثل نفسها فقط ولا تمثل

الأستاذ والطالب فأحدثنا نظاما جديدا يحاول الجمع بين السلطة بالنسبة للجامعة والوزارة كي تختار المدير وكان "المركز الأعلى" هو الذي يعين ويملك الحق في أن يفرض هذا ذاك على هيئة التدريس، وأصبح عضو هيئة التدريس يعتبر نفسه غير معني بما يجري في الجامعة فيقف موقفا سلبيا لأن صوته لم يعد يسمع غالبا كما أنه "متعاقد" مع هذه المؤسسة لا حق له في المشاركة أو إبداء الرأي فيما يتصل بمستقبله ومستقبل الجامعة والأجيال، "فإذا حضر لا يستشار وإذا غاب لا ينتظر"(!) وكان أن ألف الناس هذا الأسلوب وتعودوا على هذا الوضع مما جعل الأساتذة يزهدون في هذه المناصب بل ويزهدون في أبسط ألوان المشاركة في أي نشاط يتصل بالجامعة التي ينتمون إليها، وكذلك أصبح الطالب يتخرج بشهادة الليسانس وتسند إليه مهمة تسيير معهد وهو ما زال لم يجرب بعد يوما واحدا في تحمل المسؤولية سواء في التدريس أم في التسيير!

من جهة أخرى أحيانا يقضي المسؤول في الجامعة سنوات وسنوات رغم تحديد فترة المسؤولية هذه فتسود الرتابة وتتفشى البيروقراطية ويصبح الرأي المخالف معارضة ونشازا والمطالبة بالديمقراطية خروجا عن المألوف، وتترسخ هذه العقلية حتى يصبح طبيعيا عندنا تقديس الفرد والرأي الواحد... وحتى أولئك الذين درسوا في جامعات أجنبية امتازت باحترامها للرأي الآخر وتشبثها

بالديمقراطية قولا وفعلا، حتى هؤلاء ينقلبون على الديمقراطية حين يتحملون مسؤولية ما في الجامعة.

وبعد.. ما هو المخرج من هذا المأزق الذي وصلت إليه الجامعة عندنا الآن؟؟

الإجابة ترتبط بالمرحلة التي نعيشها الآن وبالإصلاحات التي بدأت أخيرا، فنحن مقبلون - كما هو واضح - على إصلاحات تحمل شعار الديمقراطية في كل ما يتصل بحياتنا فما بالك بالمنظومة التربوية في مختلف مراحلها ومستوياتها من الأولى ابتدائي إلى شهادة الدكتوراه. والإجابة من مسؤوليتنا جميعا وعلينا أن نشارك بالرأي والاقتراح لعنا نحقق شيئا فيما يتصل بالجامعة ومستقبلها. والحقيقة أن الموضوع ليس سهلا وليس لأحد الحق في أن يزعم أو يدعي أن ما يقوله هو الصحيح أو المثال الذي يجب أن يحقق، ولكن واجبنا أن نسهم بالملاحظة والفكرة ونتبادل الرأي والتجربة ونفسح المجال للخبرات مهما كان صاحبها لأن الجامعة مؤسسة وطنية ملك للجميع وليست ملكا خاصا لأحد يتصرف فيها كما يشاء.

وإذا نظرنا حولنا والتفتنا إلى التجارب غيرنا - سواء كانوا أشقاء أم أصدقاء أم غيرهم - فإننا نجدهم مروا قبلنا بتجارب وعاشوا ظروفا مشابهة وسبقونا إلى البحث عن سبل تطبيق

الديمقراطية في تسيير الجامعة جربّوا أنواعا من الهياكل استمروا فيها أو تخلوا عنها أو عدلّوها حسب ظروفهم وفلسفتهم، فبعضهم أخذ بنظام «القسم» باعتباره اللبنة الأولى التي يبدأ منها نظام الجامعة واستمر فيه حتى اليوم مع إبقاء على نظام «الكليات». والبعض الآخر أخذ بنظام «المعهد» واستمر فيه وطوره حسب اتجاهه وبما يتفق وحياته العلمية والوطنية.

وفيما يتعلق بالتسيير بعضهم أعطى للتقاليد الجامعية مفهوما راسخا استمر في تطبيقه كأن يراعي في رئيس القسم مثلا الأقدمية والسن والتجربة بحيث يتحمل مسؤولية هذا المنصب الأقدم في الأسرة الجامعية. والبعض يعين العميد بناء على مقاييس معينة مثله مثل مدير الجامعة، كما أن بعض الجامعات تأخذ بنظام للتعليم فيها حسب النظام السياسي المعمول به وتتدخل عوامل أخرى مثل تمويل القسم أو الكلية أو الجامعة إلى غير ذلك من أنظمة تتصل بالتسيير في المؤسسات التي ترتبط بالجامعة بمفهومها الواسع.

ومن الطبيعي الآن أن نعيد النظر في تجربتنا ونبحث عن شيء جديد يكون أقرب إلى الديمقراطية في صورتها أو محتواها. وفي تصوري أن مبدأ الانتخاب هو أقرب شيء إلى النمط الذي نبحث عنه ، بحيث ينتخب مدير المعهد وأعضاء الهيئة التي تتحمل معه المسؤولية بل

ومن الأفضل أن ينتخب حتى نواب مدير الجامعة، الأولى تختار من أسرة التدريس والثانية تختار من الهيئة المنتخبة من المعاهد حسب مقاييس معينة.

والأمر نفسه ينطبق على مجالس البحث العلمي ورؤسائها. فالمفروض أن ينتخبوا من هيئة التدريس حسب مقاييس يتفق عليها الجميع ولم لا ينتخب أشخاص آخرون في مسؤوليات معينة؟؟

كذلك فإنه يمكن تطبيق النصوص التي صدرت أو نصوص أخرى جديدة تحدد زمن البقاء في المسؤولية، بل لماذا لا تحدد الفترة التي يقضيها مديرو الجامعات ومسؤولوها تحديدا واضحا؟؟ وفي كل الأحوال يجب تقديم تقارير وافية عن نشاط هذا المسؤول أو ذاك للهيئة المعنية حتى نقضي على البيروقراطية من ناحية ونرسخ مفهوم الديمقراطية من ناحية أخرى بل وحتى نحدث الحيوية المطلوبة في الجامعة ومؤسساتها ونشجع المبادرة الخلاقة من ناحية ثالثة، على أن يكون هذا كله في نطاق المصلحة الوطنية العليا وحسب أصول متفق عليها وقواعد يلتزم بها الجميع ودون أن تكون الجامعة حقلا للتجارب المتسرعة وحكرا على أناس يخلطون بين نزعاتهم وأهوائهم الخاصة وبين المصلحة العامة في أحيان كثيرة.

هذا وأنا أدرك سلفا أن تحقيق هذه الاقتراحات ستظهر فيه سلبيات أخرى فينجح البعض دون غيرهم وتتدخل عوامل بعيدة عن روح العلم والديمقراطية الحقيقية، ولكن أن نخطئ ونصلح الخطأ أفضل من أن نستمر في الخطأ إلى ما لا نهاية. ثم إنه من الطبيعي أن نعطي الثقة في الإنسان، في الأستاذ، في العنصر الجامعي ونضعه في محك التجربة ونترك الحكم عليه أو له بعد ذلك.

هذه خطوط عامة تأملتها وأردت أن يتأملها معي الزملاء والمهتمون بمستقبل الجامعة عندنا طلبة وأساتذة ومسؤولين... هي أفكار راودتني ونحن نعيش فترة الحوار الساخن داخل الجامعة وخارجها، فترة النقاش وإعادة ترتيب البيت الكبير، ومن حقنا - نحن الجامعيين - أن نرتب بيتنا الصغير كي تقوى دعائمه ويقوى صرح الجامعة. فالمهم أن نضع قواعد نتفق عليها ونحترمها جميعا، قواعد تتحقق فيها الفرص أمام الجميع وللجميع كما هو شعار ثورة نوفمبر الخالدة وتكون الجامعة موئلا للعلم ومنارا للمعرفة وطريقا لحرية الفكر والتعبير ومسارا للديمقراطية.

وهنا لا بد من القول بأنه لا يمكن تحقيق الديمقراطية بدون تعريب وهو موضوع حديثي القادم بإذن الله.

جريدة «الشعب» في 13 ديسمبر 1988.

على هامش النقاش
حول المنظومة التربوية
كلمات بلا انفعال...

في هذه الأيام كثر فيها الحديث عن المنظومة التربوية وبعد أن انتهت اللجنة الوطنية من مناقشاتها في الموضوع وقدمت تصورها لإصلاح التعليم في جميع مراحله، في هذه الفترة التي نتطلع فيها إلى أن تصبح المنظومة التربوية قاعدة الانطلاق إلى المستقبل بل وتصبح منظومة وطنية بأتم معنى الكلمة فتتحرر من مخلفات الماضي وما علق بها من أو شاب عاقتها عن آن تكون متطورة بعيدة عن «أبوة» التجارب البعيدة عن واقعنا وعن آمال الأجيال الجديدة. في هذه المرحلة رأيت أن أسهم برأي متواضع في هذا المجال باعتباري واحد من الذين عانوا التجربة قبل الاستقلال وبعده، ولأن قضية التربية والتعليم هي ملك للشعب كله والوطن بكل فئاته ولأنها ببساطة هي المستقبل، مستقبل الوطن والمواطن.

ولما كان الحديث العام عن الموضوع قد لا يضيف جديدا لأن قضايا التربية والتعليم متشعبة منها ما يتصل بالإنسان ومنها ما يتصل بفلسفة التربية وأهداف التعليم ومنها ما يتعلق بالمناهج والطرق وما له

صلة بالأدوات والوسائل وغيرها مما لا بد من دراسته وإبداء الرأي فيه وما قام به زملاء ومربيون كثيرون نشروا آراءهم على صفحات الجرائد وقدموا اقتراحات بناءة نتيجة خبرة طويلة ومعاناة كبيرة، ولعل آخرها ما تم من مناقشة في القاعدة وفي الندوة التي عقدت هذه الأيام بغرض إثراء المشروع المقدم من الجهات المعنية.

لذلك فضلت أن أقصر حديثي على اللغة ودورها في المنظومة التربوية لأنه لا قيمة لأي مشروع يتصل بالتربية والثقافة إذا لم نحدد موقفنا من اللغة ولم نصل إلى تصور علمي وبيداغوجي ووطني واضح لهذا الدور.. هذه بديهية لا تحتاج إلى نقاش فأي معنى للمنهج أو المحتوى أو الشكل أو فلسفة التربية وأهدافها إذا لم نعط اللغة حقها من الدراسة ونجعل لها المكانة الأولى التي تستحقها داخل المنظومة التربوية، هذه المنظومة التي يتوقف إصلاحها على فهمنا للغة ودورها ووظيفتها فيها. ولعل التخبط الذي عشنا فيه منذ الاستقلال حتى اليوم فيما يتعلق بالتربية والتعليم راجع إلى أننا لم نحسم موقفنا في هذه القضية الجوهرية. فبعضنا تصور الحل السحري في الفرنسية وأن تكون العربية تابعة لها وقد وجد لذلك مبررا بالماضي الموروث خاصة بعد الاستقلال مباشرة، وبعضنا تصوره في الازدواجية بحيث تكون العربية والفرنسية كفرسي رهان تتنافسان في خط متواز في ميدان السباق، والبعض الآخر تصور الحل في تعدد اللغات ونشرها بين

الشباب لأن هذا هو سبيلنا إلى التقدم، ولكن بعضنا الآخر الذي يعرف أن التقدم لا يكون إلا انطلاقا من الذات نادي بلغة واحدة للتعليم هي العربية وأن تكون اللغات الأجنبية روافد لها ومتممة لدورها في الحياة العلمية والوطنية.

ولكن.. ولسوء الحظ مازال بعض الناس عندنا لم يتقنعوا بهذا الموقف الأخير وخاصة أولئك الذين بيدهم مصير التربية والتعليم تخطيطا وتطبيقا.

وقبل أن أعرض للموضوع رأيت أن أقدم له بملاحظات تبدو ضرورية:

أولا: إننا في كثير من الأحيان نهتم بالموضوع وننسى صاحبه، ننسى الإنسان الذي هو مدار أي شيء، فنحن نولي اهتماما بالتربية والتعليم وننسى أو نهمل الحديث عن المعلم وعن الأستاذ والمربي الذي أبعد عن قصد أو غير قصد عن المشاركة في التخطيط والتكوين والتقويم ووجعلنا دوره ثانويا، ولم نطلب رأيه أو مشورته في نجاح تجاربنا أو فشلنا وكأن دوره فقط هو أن ينفذ كما هو شأن الموظف العادي في أية إدارة من الإرادات بينما المربي هو الذي يلاحظ ويجرب ويطبق ويستنتج ويحكم - عن ممارسة وخبرة - على مدى ما تحقق أو لم يتحقق فيغني التجربة ويثريها بآرائه وتجاربه.وحين نفكر في الإصلاح

- كما نفعل اليوم - نلجأ إلى هذا المربي لا إلى الإداريين الذين لم يمارسوا التجربة في حياتهم!

ثم إن هذا المربي الذي يعيش التجربة ويمارسها له مشاكله ومطالبة المادية والمعنوية التي أهملناها وكأنه ليس من حقه أن يفكر مثل الآخرين في سكن مريح أو زواج أو ترفيه لأن هذا كله يتحقق له في الجنة بإذن الله. إذن فلينصر حتى ينالها في الآخرة!! وإلا فكيف نفسر ما شاهدناه في أكثر من تحقيق في التلفزة أو ما قرأناه ونقرأه كل يوم مما يتعرض له المربي من إهانة وهو ينام في الحمامات مثلا أو يشارك الطلبة في غرف المدن الجامعية أو يقيم لدى الأصدقاء أو نراه وهو يصحح دفاتره ويحضر دروسه في المقاهي أو الحدائق العامة أو يدخل يده في جيبه فلا يجد دينارا يشتري به كتابا أو دورية تساعده على تغذية عقله وإثراء تجربته؟ كيف نطلب منه الإخلاص في عمله - في تربية الأجيال التي هي أمانة في عنقه - والقمع مسلط عليه من مدير أو مفتش أو إداري غير أهل للمكان الذي وضع فيه فنراه - أي المربي - يدخل المؤسسة التعليمية وهو خائف يترقب العقاب على ذنب لخم يرتكبه أو يتجنب ملاقاة ولي أمر آخر السنة لا يتذكر وجوده إلا في شهر جوان. أليس من العجب أن نهتم بالجسم ونترك الروح؟! نعني بالدم ونترك القلب؟! إن المربي هو القلب فإذا أهملناه أهملنا العملية كلها حتى لو جئنا بعلوم الأولين والآخرين وبآراء الفلاسفة منذ

العصور القديمة حتى اليوم. لن تتقدم المنظومة التربوية ولن تتحقق أهدافنا فيها ولن نصل إلى مبتغانا وإلى آفاق المستقبل إذا لم نغير نظرتنا إلى المربي ودوره وحقه علينا.

أسوق هذا الحديث بعد أن لاحظت مليّا الموقف السلبي الذي وقفته منه الصحافة الوطنية وحتى بعض المواطنين حين عرض الأساتذة والمعلمون مشاكلهم وطلبوا بحقوقهم في الآونة الأخيرة.

ثانيا: إننا في الديمقراطية والشفافية نطمح إلى شيء واحد فقط لو تحقق لخرجنا من عنق الزجاجة التي تخبطنا فيه طويلا وهو أن نحترم فعلا آراء وإرادة من لهم خبرة بأية قضية كانت لا نظريا فقط بل وفي التطبيق أيضا لا أن نطبق ما يراه المنفذون وأصحاب الختم والتوقيع، وهذا ينطبق على مجالات كثيرة ومنها التربية والتعليم الذي هو مجال حيوي هام.

ثالثا: ملاحظة أسوقها في سؤال واحد: ما هو مصير الملتقيات العديدة والندوات الوطنية والقرارات الرسمية التي تمت فيما يتصل بالتربية والتعليم والتكوين؟؟!

رابعا: ملاحظة أخيرة وهي أيضا في صيغة سؤال: لو كان المعنيون بالأمر يقرؤون ما كتب عن التربية والتعليم ويتابعون ما ينشر في صحفنا الوطنية من آراء ومقترحات فهل كنا نحتاج إلى أن نكرر

القول في بديهيات أو نجتر الآراء والأفكار في قضايا المفروض أننا حسمناها منذ سنوات طويلة؟؟! ومن المسؤول عن ذلك؟!

هذه جملة ملاحظات رأيت أن أبدأ بها الحديث عن اللغة ودورها في المنظومة التربوية وهي قضية لم نحسمها أيضا حتى الآن. قد نقول إننا متفقون على أن اللغة الوطنية هي لغة التعليم ولكن مازال الخلاف قائما حول اللغات الأجنبية، ماذا نأخذ منها وماذا نترك وكيف؟؟

والواقع أن الحديث عن اللغة في التعليم والتكوين له جانبان أو وجهان لا ينفصلان، الأول هو الجانب الوطني والثاني هو الجانب البيداغوجي أو العلمي.

فالجانب الأول يتصل بفلسفة الموضوع وبهدفه والغاية منه والنتائج التي يحققها، وبالنسبة لموضوعنا فإن اللغة هنا ليست «شكلا» ولكنها «محتوى». إنها روح التربية بصرف النظر عن أنها أداة للمعرفة، فنحن لا نقرأ نصا من النصوص لمجرد أنه نص جميل من الأدب أو نص علمي محايد فقط لأنه ينقل إلينا علما من أمريكا أو روسيا أو فرنسا أو ألمانيا أو غيرها ولكن لأنه ينقل إلينا فكرا ورؤية وفهما وتجربة وطنية في بلد معين وفي مجال خاص له نظرته الخاصة للحياة والكون والعالم. ومن هنا تصبح اللغة قضية وطنية فليست أداة أو وسيلة أو آلة مثل الآلات التي نستخدمها في حياتنا، نشتريها من

الأسواق العالمية مثلما نشتري السلع الاستهلاكية أو نستعيرها أو نستأجرها كما نستأجر طائرة مثلا في مناسبة ما لأننا لا نملك طائرات كافية أو نقترضها كما نقترض دينا لنحقق مشاريع صناعية أو اقتصادية معينة ثم نعيد الدين بفوائده إلى صاحبه مرة أخرى. لذلك فإن استعارة لغة ما دليل على ضعف في الحس الوطني مثلما في ذلك اللغة الألمانية كي يتعلمها وينشرها ويستخدمها في حياته الخاصة والعامة، كيف سيكون موقفه وردود فعله؟؟ تصور هذا الشخص الذي ظل يعتز بلغته الوطنية ثم تأتي أنت وأنا ونعرض عليه أن ينسى ذلك في لحظة جهل أو نسيان أو تخدير أو عقوق ولكنه حين ينتبه ويفيق ماذا سيكون وقع الأمر عليه؟؟!

الجواب معروف طبعا لكننا في بلادنا - لسوء الحظ - لا يزال البعض منا يرفض المسلمات ويغض الطرف كي لا يرى الحقيقة الساطعة سطوع الشمس. فكيف نقنعهم بهذه المسلمات؟!

أما الجانب الثاني من موضوعنا وهو الجانب البيداغوجي، فمن المفيد فيه أن نعود إلى تجربتنا وتجربة غيرنا سواء من ينتمون إلينا أو لا ينتمون إلى بيئتنا وحضارتنا. لقد اعتمدنا منذ الاستقلال مبدأ «الازدواجية» اللغوية، نقول هذا تجاوزا فما هي النتيجة؟؟ دعنا من عوامل كثيرة أسهمت في الضعف الذي يعاني منه التعليم ويدركه

الجميع - حاكمين ومحكومين - فهذه الازدواجية هي سبب أساسي في هذا الضعف لأن التلميذ منذ الطور الثاني في المدرسة الأساسية وهو يعاني تمزقا في لغته وفكره وعقله وإحساسه أيضا، فولاؤه موزع بين لغتين إحداهما قيل له إنها وطنية والثانية قيل له إنها لغة العلم والحضارة والتقدم، الأولى لغة الماضي عليه أن يقرأها فقط للارتباط بهذا الماضي أما الثانية فيقرؤها لكي يتطلع إلى المستقبل، فماذا سيكون إحساس هذا التلميذ بلغة آبائه وأجداده؟! ماذا سيكون موقفه من اللغة التي تمثل الماضي؟! وموقفه من الأخرى التي تمثل المستقبل؟! وهذا التمزق الذي يعيش فيه التلميذ من السنوات الأولى في الابتدائي يستمر معه في المرحلتين المتوسطة والثانوية وحتى التعليم الجامعي والعالي بعد ذلك.

هذا عن التجربة الأولى، والثانية حين طبقنا نظام المدرسة الأساسية فقد تصورنا - وكان هذا هو المنطقي - أن التلميذ قد ارتاح من الازدواجية في المرحلة الأولى من تعليمه ولكننا فوجئنا ببقاء الفرنسية لغة ثانية في الابتدائي وكأن قدر التلميذ عندنا هو أن يدرس مرغما هذه اللغة وهو لا يزال طفلا لا يدرك الأشياء بوعي وفهم فينشأ في أعماقه أن عليه التفكير بلغتين مختلفتين تماما؛ الأمر الذي يجعل ولاءه للعربية ولاء غير كامل فيتساءل بينه وبين نفسه وفي لاوعيه عن قيمة اللغة الوطنية وعن مكانتها في حياته التعليمية وغيرها بل وقد

يقارن بينها وبين الفرنسية سيلاحظ الفرق الواضح في الطرق والمناهج والنصوص، في المكونين، في طغيان الفرنسية في الشارع والبيئة والإدارة وانحسار الأخرى، في امتياز من يعرفها وامتلاكه للسلطة والمهابة فماذا تكون النتيجة؟؟ النتيجة هي شعور بالإحباط كما كان الوضع قبل المدرسة الأساسية!!

فإذا أضفنا إلى هذه الازدواجية «ازدواجية» أخرى عديدة، في المنزل، في الشارع، في الإدارة، في السوق، في وسائل الإعلام - مرئيا ومكتوبا ومسموعا - فماذا يكون طفلنا هذا في المدرسة الأساسية؟؟!

صحيح أن التلميذ في المدرسة الأساسية اليوم أصبح أكثر وعيا وفهما وإدراكا للواقع وللعالم من حوله ولكن الظروف التي أشرت إليها تؤثر في لغته ومفرداتها وعلى نطقه وأسلوبه في التعبير والكتابة، فهو حين يتحدث يحتاج إلى جهد كبير وإلى مفردات وتراكيب تضعف منها هذه الازدواجيات التي تعوقه عن امتلاك ناصية لغته الوطنية أي العربية والامتلاء بها فيثري بها فكره وإحساسه ووجدانه ويتذوق سحرها وطلاوتها.

وإذن فإن توحيد اللغة ينبغي أن يبدأ من هنا، فلكي نحرر التلميذ والطفل من ضغوط لغوية كثيرة علينا أن نجعل التعليم

الأساسي في المرحلة الابتدائية أي اصطلحنا على تسميته بالطورين الأول والثاني باللغة العربية وحدها وبهذا نحقق الهدفين معا: الوطني والتربوي. وهذا ما فعلته الشعوب الأخرى - عربية وأجنبية - إن فرنسا نفسها تعلم أبناءها بلغتها في المرحلة المذكورة وكذلك بريطانيا وأمريكا وروسيا وكافة البلدان التي تحترم نفسها وقيمها وتاريخها وغدها أيضا. ولو ضربنا أمثلة ببلدان عربية مثل مصر أو سوريا أو العراق أو غيرها لقيل: هذه دول «نامية» مثلنا فلا ينبغي أن نقلدها، ولذا بدأت بضرب الأمثلة من دول أجنبية، والسؤال الذي يطرح هنا هل نحن تقدمنا الاستقلال ونحن نستخدم الفرنسية في كل شيء؟؟!

من حقنا وحق الأجيال علينا أن نبحث عن تجربة تلائمنا وتلائم حياتنا وواقعنا، وهذا يقتضي أيضا أن يبدأ التلميذ في تعلم لغة ثانية في الطور الثالث من التعليم الأساسي (السنة السابعة) وهنا تكون شخصيته قد تكونت ووعيه قد تفتح وأصبح قادرا على أن يفرق بين لغته القومية وبين اللغات الأجنبية فيحتاج إلى التفتح فعلا لا فرضا وإرغاما(!) فنقرر له لغة ثانية ولكن نخيره بين الفرنسية والإنجليزية ونعطيه الحرية كي يختار حتى ينجح فيما يختار ويملك اللغة التي يختارها عن طواعية. أما في التعليم الثانوي وقد أصبح التلميذ يدرك أهمية اللغات الأجنبية بالنسبة لحياته ومستقبله نضيف

إليه اللغة الأخرى التي لم يخترها في المرحلة السابقة، وفي المستقبل حين تتوفر لنا الوسائل والإمكانيات يمكننا إن نخيره بين لغات حية أخرى.

أما في الجامعة فإني أفضل أن تكون الإنجليزية إجبارية فيها واللغات الأخرى اختيارية لأنها ببساطة أول لغة في العالم انتشارا وتقدما وعلما.

المهم في كل ذلك أن نضع برامج ومناهج وطرقا محددة انطلاقا من واقعنا ومستقبل أبنائنا ثم نعطيهم حرية الاختيار كي ينجحوا ولا تفرض عليهم سوى ما يتصل بالشخصية الوطنية من قريب أو بعيد لأن هذا يتعلق بتكوينهم وطنيا وفكريا وعقائديا ثم نحترم إدارتهم وحريتهم وذوقهم وميولهم فهم ليسوا صناديق نملؤها كما نشاء ونفرغها متى نريد!!

لن يكون هناك إبداع حقيقي إلا إذا كان بلغة الوطن ولن تبتنى شخصية الفرد إلا إذا غرسنا فيه حب العربية من المهد حتى النهاية وحررناه من ولاءات مختلفة ومن ازدواجيات كثيرة بل ومن مركبات نقص تعوق انطلاقه وتقدمه...

حرروا الطفل الجزائري من تجربتكم الخاصة.. من عطفكم الأبوي الزائد.. وأعطوه الحرية لكي يبدع فعلا وانظروا إلى اللغات

الأجنبية من حيث الأهمية ومن حيث ما تقدمه لنا. كيف تختارون في كل شيء إلا اللغات الأجنبية فتختارون الفرنسية؟ إنها ليست قدرنا ولا ضربة لازب لنا ، وأطفالنا ليسوا يتامى لا لغة لهم كي تستعيروا لهم لغة أخرى والفرنسية بالذات التي لا أظن أن هناك في العالم من يعمل لها مثلنا مجاناً وبلا مقابل!!

فلنترك أبناءنا ينظرون إلى العالم من نوافذ كثيرة لا من «كوة» واحدة ولنعطيهم الفرصة كي يحلقوا في الفضاء بأجنحتهم لا بأجنحة مستعارة وعندئذ نحكم لهم أنو عليهم.

بين التعريب والتغريب

- 1 -

عندما كتبت مقالي السابق عن «الديمقراطية» والحوار الساخن في الجامعة «التزمت للقراء الكرام بمواصلة الحديث عن الديمقراطية والتعريب وقلت بأنه لا ديمقراطية بل تعريب، وكان يمكن أن يكون هذا هو عنوان مقال اليوم ولكنني فضلت هذا العنوان الجديد أيضا بالنسبة للتاريخ والواقع والمستقبل كما أنه كذلك يأتي ضمن الحديث عن التعريب و«التغريب»...

أليس من المفارقات العجيبة أن تلعب واحدة دورا كبيرا في التفريق بين حضارتين وثقافتين،بين عرب وغرب هذه النقطة نفسها؟! هل هي الصدفة وحدها التي تجعل الإنسان عندنا في العالم العربي يبحث عن التوازن بين الروح والجسد، بين القلب والعقل، بين الدنيا والآخرة، وتجعل الإنسان هناك ينظر إلى هذه الأمور كلها نظرة أخرى مخالفة مناقضة..؟!

حقا، إن هذه النقطة تلخص أشياء كثيرة ومصالح عديدة وتصورات ورؤى مختلفة متباينة بل وقد تكون متناقضة!!

على أنني في هذا المقال سأثير سخط أناس أعرف سلفا أنهم لا يؤمنون بالرأي الآخر وإن ادعوا أنهم ديمقراطيون ولن يعجبهم ما سأقوله في هذا المقال، ومتى كنا نبحث عن إعجابهم أو رضاهم، فنحن نعرف أن هذا من المستحيلات التي لا تجتمع كما لا يجتمع الماء والنار أو الليل والنهار!!

أقول إن هؤلاء سيغضبون كما غضبوا منذ خمسة عشر عاما حين ناديت بتعريب الفكر أولا قبل اللسان وقبل أي شيء آخر، وحين ترجم المقال إلى الفرنسية ازداد عدد الساخطين ممن تغربت أفكارهم إلى حد عدم قراءة ما يكتب بالغة الوطنية، وسبب الغضب واضح لأن التعريب في مفهومهم ينبغي أن يمس الشكل دون المضمون، ولعل من المفيد أن نعيد إلى الأذهان فقرة من ذلك المقال لأن القضية لا تزال مطروحة فهم ينادون بتعريب لغوي، ونحن ننادي بتعريب حقيقي:

{لأن من يقرأ بالعربية أو يكتب بها قد يلتقي مع أي أجنبي يحسن العربية، يلتقي مع المستشرق الذي يتقن العربية مثل أهلها وربما أكثر منهم ويلتقي مع من يتعلم لغة أجنبية بغرضَ التعامل مع أصحابها في حين أن التفكير هو المهم في الموضوع، فربما وجدنا مواطنا لا

يحسن العربية ومع هذا يدافع عن العربية والعروبة أكثر من بعض الذين يتقنون العربية...} [1].

سقت هذا الرأي الذي مضى عليه خمسة عشر سنة كي أؤكد أننا مازلنا نعيش مناخ بداية السبعينات والستينيات لأن القناعات مازالت كما كانت بالنسبة للتعريب، ولأن التفكير العربي يقلق أصحاب التغريب ويرغبهم، ذلك أن من يرفض التعريب بالمعنى الذي سقناه آنفا يرفض العروبة ويرفض الحضارة العربية الإسلامية وبالتالي يرفض الوحدة العربية لأنه ينطلق من نظرة إقليمية ضيقة متعصبة لاتجاه غريب عن شعبنا وعن أصالتنا وتاريخه وحضارته. فمثلا عندما تحدثت عن الوحدة العربية منذ خمسة عشر عاما أيضا فغر بعضهم فاه من الدهشة إذ كيف يمكن لنا رأي في قضية كهذه مع أنها قضية تمس ماضينا وحاضرنا ومستقبل أجيالنا، ولقد ذكرت حينذاك أن أقرب تصور للوحدة العربية هو: (أن تبدأ بلدان متقاربة في الأرض وفي مختلف الظروف والعوامل المادية والفكرية وفي المصالح المشتركة وهي وإن كانت مصالح تهمّ العالم العربي ككل فإن

[1] ص: (3) من كتاب عروبة الفكر والثقافة أولا - المؤسسة الوطنية للكتاب - عبد الله ركيبي.

مصلحة منطقة قد لا تكون بعينها وبالضبط كمصلحة المنطقة الأخرى وإن التقت في النهاية على المدى البعيد كما ألمحت سابقا...[1]

وأذكر أنه منذ عامين كتب أديب جزائري في مجلة عربية تصدر في لندن سلسلة من المقالات ناقش فيها - ضمن أمور عديدة- رأيي هذا في الوحدة العربية واعتبر ما قلته ضربا من الخيال يستحيل تحقيقه بينما الواقع الآن يؤكده بعد أن أصبح الوطن العربي يضم أشكالا وحدويّة كلها تنطلق من هذا الموقف وهذا المفهوم على درب الوحدة الشاملة.

فالصلة إذن بين التفكير والتعريب وبين الوحدة العربية صلة لا تنفصم ومن هنا فهي تناقض الدعوة إلى «التغريب» أساسا يدعو إلى الارتباط بالحضارة الغربية. هذه مسلمة لا تحتاج إلى بيان أو إيضاح والأفضل أن نسمي الأشياء بأسمائها لا أن نغمغم أو نغمض العين مجاملة لإحساس أناس نعرف تماما مواقفهم، فعندما يأتي الحديث عن اللغة العربية تثار قضية اللغة الفرنسية أو غيرها، وحين يأتي الحديث عن الفكر العربي يتحدثون هم عن الفكر الغربي والفرنسي بوجه خاص ويتحدثون عن التقدم والتخلف، وعندما يكون الحديث

---

[1] 35 نفس المرجع.

عن الوحدة العربية يأتي الحديث عن البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا، وهذا كله ينطلق من الموقف الذي ذكرناه وهو «التغريب».

بالطبع، نحن لا نعمم هذا الحكم على كل من ثقف ثقافة فرنسية أو ثقافة أجنبية أو تعلم لغة من اللغات الأجنبية كيفما كانت ولكننا نقصد بالتحديد فئة من الفرانكفونيين تغربت فكرا وثقافة وروحا وإحساسا، وأنا أعرف ولي أصدقاء ممن ثقافتهم فرنسية ولكنهم وطنيون يدافعون عن العربية والعروبة كانتماء بحماس ويؤمنون بهما إيمانا عميقا، بل ربما أكثر من يعرفون العربية "ويتعيشون" منها ومع ذلك يحتقرونها أو يناصبونها العداء، لها ولكل ما هو عربي أو إسلامي...

وهذه الفئة التي نسوق الحديث عنها ولها هي التي تحاول أن تلبسنا ثوبا نتنكر لا نتحرر. إن المنطقي عند هذه الفئة المنسلخة عن أصولها وجذورها هو أن نستكين لا أن نثور ونقاوم، كان هذا دأبها ودأب آبائها قبل الثورة وأثناءها وهو دأبها اليوم وسيبقى إلى ما شاء الله فإن هوجم الاستعمار الفرنسي أشادوا بحضارة المستعمر القديم فهو - عندهم - ليس شرا كله! وهم حين يشاهدون الراية المثلثة تنسج في اللباس أو القماش أو اللعب أو الأدوات المختلفة بين أيديهم فإنهم يعتبرون ذلك شيئا عاديا بل هو تقدم وتفتح وتحضر، وإن قلت

لهم: ارسموا رايتنا - رمز حريتنا ودماء شهدائنا - ابتسموا سخرية ومالوا برؤوسهم جهة الغرب. وإن قلت لهم: حاولوا أن تخرجوا من هذه القوقعة التي حبستم أنفسكم فيها قالوا هذا غير ممكن، فهم مثل الذين خاطبهم الخليفة الراشدي (رضي الله عنه) حين دعاهم إلى القتال في الشتاء فقالوا هذه قرة، وحين دعاهم في الصيف قالوا: هذه حرة وأترك للقارئ الكريم تذكر الكلام الباقي الذي ينطبق على واقع هؤلاء اليوم. إذا تحدثنا عن العربية قالوا: أين التفتح إذن؟ وإذا ذكرنا الإسلام قالوا: أين حرية الاعتقاد؟ وإذا ذكرنا الوطن وأشدنا به قالوا: أين الإنسانية؟ وإذا نادينا بالعروبة انتفخت أوداجهم وأرغوا وأزبدوا واعتبروا ذلك كفرا ومروقا حتى إن أحدهم أخيرا تجرأ على شعبنا وعلى تاريخه وحضارته فألغى أربعة عشر قرنا من النور والضياء والعلم والحضارة وقال إن الجزائر لم تكن في يوم من الأيام إلا جزائرية وحتى بعد استقلالها عادت جزائرية كما قال ديجول في خطابه المعروف وهكذا يتساوى الفرنسي والجزائري في الفكر وفي الرؤية وفي الاتجاه وفي فهم التاريخ، والغريب أن ينشر له الكلام ولغيره في صحيفة وطنية ناطقة باللغة العربية وباسم الديمقراطية(!)

والأكثر غرابة أنه أمثاله يكتبون باللغة الوطنية، إذن فالتعريب - كما قلت - لا ينطبق فقط على ذوي اللسان هذا أو ذاك...

إن دعاة التغريب هؤلاء يصح أن يقال عنهم بأن عقولهم هاجرت إلى هناك وبقيت أجسادهم بيننا، فهم لا يشاركوننا همومنا وهموم الوطن لأنهم وضعوا قدماً هنا وقدما هناك فإن تغيرت الأحوال فالجنسية الأخرى تحميهم المال أو العقار الذي جمعوه أو بنوه أو اشتروه لا ندري كيف في الضفة الأخرى...!

هم لا يفرقون بين نهر «الشلف» وبين نهر «السين» لأن الثاني مياهه أكثر غزارة ولأن السفن تمخر عبابه ونهرنا لا سفن فيه، وهم - لإيمانهم العميق بالديمقراطية - لا يفرقون بين الأنهار ولا بين البلدان ولا بين اللغات ولا بين العقائد. إنهم «الإنسانيون» الجدد كما كان آباؤهم «الإنسانيون القدامى» ولأن «من شابه أباه فما ظلم» فإنهم قد ورثوا حب ما هو أجنبي وخاصة فرنسي منه. وهذه ميزة امتازت بها هذه الفئة عندنا يحسدنا عليها العرب في المشرق والمغرب وربما يحسدنا عليها أولئك في «الكيبيك» وفي قارات أخرى. فإذا كانت الفئات الوطنية ثارت لأنها أحبت الوطن فهذه الفئة استكانت لأنها هي الأخرى أحبت الوطن بطريقتها الخاصة مثلما كان الفرنسيون - ولا زالوا - يحبون الجزائر والجزائريين بطريقتهم الخاصة!!

جريدة «الشعب» جوان 1989.

بين التعريب والتغريب

-2-

بعد مناقشة ما بين التعريب و«التغريب» من تناقض فإما أن يكون هذا أو يكون الآخر، حان الوقت لنناقش القضية وما يتفرع عنها من قضايا انطلاقا من مبدأ الديمقراطية، وليس معنى ذلك أن المثقفين الجزائريين لم يناقشوا هذه القضايا بل فعلوا ومازالوا يفعلون لأنها تتصل بوجود الشعب ومصيره ومستقبله. ونحن نناقشها اليوم من هذا المنظور الجديد بعد أحداث أكتوبر المؤلمة من جهة، ومن جهة أخرى لأن الجيل الجديد الذي نخاطبه اليوم كان في مقاعد الدرس حين تحدثنا عن هذه القضايا من قبل ولم يتح له أن يقرأ ما كتب أو نشر أو نوقش من آراء وأفكار.

ولا أحد يجادل في حق هذا الجيل من الشباب أن يفهم ويعي ما حوله ولا في حقنا في إبداء الرأي والنقد و«الغربلة» في ظل الديمقراطية الحقيقية لا تلك التي يرفع شعارها كي تغيب الحقيقة تحت ركام من الألفاظ والكلمات المنمقة والمصطلحات الخادعة، بل قل المصالح الخفية التي تحرك أصحابها، وأخشى ما أخشاه على مبدأ الديمقراطية أن يقع له ما وقع للتعريب...!

ولنبدأ من البداية، فمنذ الاستقلال حتى اليوم ونحن نرفع شعارا أصبح محفوظا وهو: «لا خيار بين العربية والفرنسية» هذا الشعار الذي مازال يردده حتى بعض المسؤولين - ربما عن حسن نية - يوحي بإمكان الخيار والاختيار، أي بإمكانية أن نختار لغة المستعمر وأن تصبح لغة وطنية. إن هذا التشكيك في مقوم أساسي من مقومات الشخصية الوطنية هو الذي أدى إلى تمييع القضية وأعطى الفرصة للمتغرّبين والانتهازيين أن يناقشوا - ما دام كل شيء الآن قابلا للنقاش - مبدءاً مقدسا لدى الشعب الجزائري وأن يفضلوا لغة الأجنبي الدخيل بل ويكرسوا حضورها الدائم في التعليم والإدارة والعديد من المرافق العامة والهامة. وربما لو أعطيت الفرصة أيضا للفئة التي تحدثت عنها كي تختار بين الحرية والإنعتاق وبين البقاء تحت سلطة الاستعمار لاختارت الأمر الثاني لأن الولاء عندها للمصلحة لا للوطن أو التاريخ رغم أن مصلحتها مثلما تحققت في الماضي تحققت اليوم أيضا.. وإذا أردنا أن نميع الأشياء الجوهرية وفتحنا الباب للاختيار بين الوجود والعدم، بين الحق والباطل، بين العز والذل، بين الكرامة والمهانة..فهل هذه هي الديمقراطية؟؟!

ولنتحدث بصراحة أكثر، نحن منذ الاستقلال - الذي لم يبق على مروره سبعة وعشرون عاما عليه إلا القليل - ونحن نستخدم لغة

المستعمر في مجالات كثيرة ومنها مجالات حيوية هامة فماذا كانت النتيجة؟؟

كانت النتيجة انفجارا رهيبا عشناه بأعصابنا وشاهدناه بأعيننا وكان ما كان من أحداث أكتوبر المؤلمة. فأين إذن حجة من يزعمون أن الفرنسية ستكون سبيلنا إلى التقدم والعلم والتكنولوجيا؟؟! ولو بقينا بدعوى العقلانية والتفتح والعلم واستمر منهجنا هذا ربع قرن آخر فماذا ستكون النتيجة؟؟!

إن الوطنية لا تتجزأ، وإن الولاء لا يتجزأ، وإن الانتماء لا يتجزأ، إما أن يكون كاملا أو لا يكون. فإذا كنا نرفع اليوم شعار الديمقراطية فإننا نرفعه كي نميز بين الوطني وبين غيره لا أن نسوى بينهما، ولا نسوى بين لغة شعبنا وبين لغة أو لغات أجنبية، نحن مع كل ما يساعد على تقدمنا ومع كافة الثقافات التي تثري تجربتنا وتنمي وعينا وفهمنا للحياة ولكن بشرط ألا تصبح بديلا لأصل، بديلا للغتنا وثقافتنا بدعوى الديمقراطية أو غيرها...

إني أتساءل: هل من الديمقراطية أن نختار بين تاريخنا وبين تاريخ غيرنا؟! هل من حقنا أن نختار بين الجزائر وطنا لنا وبين غيرها؟ هل من حقنا أن نختار عقيدة غير التي اختارها شعبنا منذ قرون؟! وهل الفرنسي لو طرحت عليه هذه الأسئلة - وهو لن يقبل طرحها

أصلا - يرضى بغير الفرنسية لغة وبغير فرنسا وطنا وبغير الحضارة الغربية حضارة؟!

إن التعلق بالأرض والوطن والتاريخ بالنسبة لأي شعب من الشعوب مثل التعلق بلغته وعقيدته وهويته وسمأته وطبيعته وانسانه. فهذه المقومات هي التي تمنحه الوجود والحضور فوق خريطة العالم. إن حب الوطن ليس كلمة نتغنى بها بلا مضمون أو محتوى وإنما هو ارتباط بكل هذه المعاني والقيم ودفاع عنها.

إذن نحن لا نريد لشعار الديمقراطية أن يستخدم لتمييع القضايا المبدئية، القضايا الأساسية، أن يستخدم لمصلحة الفئة المذكورة، فحين نقول لهم هناك لغات حية في العالم يقولون: صحيح لكن الفرنسية أسبق لأنها من المكتسبات ولأن لها أرضية هنا من الصعب أن نلغي الماضي بجرة قلم، وحين نقول لهم: أفسحوا المجال لتجربة العربية يقولون: نفعل ولم لا ولكننا سنتخلف ونتأخر عن غيرنا، وحين نقول لهم: هذا انغلاق فلماذا تتهمون غيركم به؟ يقولون: إن اللغة التي ندعو إليها لغة حية متطورة وهكذا إن جئتهم من هنا جاءوك من هناك، وإن حاورتهم بالمنطق التجأوا إلى التاريخ وإن استخدمت التاريخ استخدموا مناهج كثيرة لتفسيره كي يؤيدوا نظرتهم وأفكارهم مثلما استخدم المنظرون الفرنسيون مناهجهم لتحطيم شخصية شعبنا.

والغريب أنهم يعتبرون أن من يعرف العربية وحدها متعصب أو منغلق فلماذا لا يعتبر أيضا من يعرف الفرنسية وحدها متعصبا أو منغلقا؟!

وهم أيضا ينسون أو يتناسون أن كثيرا ممن يؤلفون باللغة العربية قرأوا ودرسوا لغات حية كثيرة مثل الإنجليزية والألمانية والفرنسية وغيرها، وكل هذا باسم الديمقراطية فكل ما يأتي من هناك أي من بلاد الغال صالح ولكنه حين يأتي من العرب فهو مرفوض!!

ومن هنا رأينا رعبهم الشديد حين قرر الشعب بواسطة ممثليه وإطاراته وأبنائه الوطنيين المخلصين أن يتم تعريب العلوم في الجامعات في السنة القادمة، كما رأينا مناوراتهم التي ألفناها منذ الاستقلال!!

أنا أعترف لهذه الفئة بأن لها ميزات تميز بها أساتذتهم الذين لقنوهم حب الديمقراطية والدفاع المستميت عنها بشرط أن يكون لها وجه واحد ورأي واحد وفكر واحد وهدف واحد يعرفونه جيدا ويعملون له بكل ما أتوا من مكر وقوة ودهاء يعجز عنه دهاء معاوية. ومن ميزاتهم المدهشة أنهم يحسنون الانحناء للعاطفة حتى تمر فيرفعون عقيرتهم بالصراخ والصياح بينما الابتسامة الناعمة على الشفاه..!

على أن بعضهم يراهن على أننا سنكسر أقلامنا كما فعل يوسف إدريس القاص العربي المعروف ولكنهم أخطأوا الظن لن نعدهم سوى بشيء واحد أننا لن نفعل.. نراهنهم على شيء واحد هو أننا لن نسكت على تغريبهم وانحراف تفكيرهم وهم في النهاية خاسرون!

بقيت كلمة أخيرة: لقد أزف الوقت كي يتحد الوطنيون جميعا على اختلاف اتجاهاتهم وثقافتهم كي يوحدوا جهودهم ويواصلوا دفاعهم عن الوطن وهويته وعن مستقبل الأجيال التي نريد لها أن لا تعيش «غربة» أو «تغريبا» في وطنها الحر المستقل.

جريدة «الشعب» في جوان 1989.

القسم الثالث

بين 8 ماي 1945
وفاتح نوفمبر 1954

- 8 ماي والإبداع الثقافي والأدبي
- إنتفاضة 8 ماي في كتابات وطنية وعربية وأجنبية
- الإنسان ومنابع الثورة
- الأوراس.. في عين كاتب إنجليزي
- في زمن الإستقلال...

8 ماي والإبداع الثقافي والأدبي

حين دعاني الأخ المناضل بشير بومعزة رئيس جمعية 8 ماي 1945 مشكورا إلى المشاركة في ملتقى قالمة 1991 الخاص بذكرى 8 ماي فكرت في أن أتناول الجانب الثقافي والأدبي من التعبير عن هذه المأساة التي مازالت آثارها غائرة في نفوس جيلنا الذي عاش تلك الفترة الدامية حتى ولو كان وقتها صغير السن فقد فتح عينيه على أخبارها وآلامها وسمع عنها من آبائه وأقربائه كما قرأ ما كتب عنها في الصحف التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية وهو شيء قليل، أو أتيح له مثلي أن يلتقي بمن عاشوها واصطلوا بنارها وشاهدوا الجرائم البشعة التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي وجنوده ضد شعبنا في مدن كثيرة ولاسيما قالمة وخراطة وسطيف وسعيدة.

وعادت بي الذاكرة إلى عام 1947 حين قصدت تونس للدراسة وهناك التقيت بإخوة أعزاء مثل عبد الحميد مهري ورشيد سحري وعبد المجيد عجابي الذي نجا من الموت بمعجزة في ذلك اليوم المشؤوم. وقد قصّوا علينا تفاصيل رهيبة عما فعله الفرنسيون آنذاك والتي لا تختلف عن تلك المجازر التي ارتكبها هتلر النازي ضد الإنسانية.

علي أنني وقفت حائرا إذا ليس في حوزتي وثائق أو مصادر كافية لكتابة بحث علمي موضوعي حول هذه المأساة وخطر على ذهني السؤال: لماذا تأخر ظهور جمعية مثل هذه أسسها الأخ بومعزة ورفاقه من المناضلين المخلصين؟! لماذا لم تظهر قبل عودته؟! لماذا لم يفكر فيها أمثاله قبل اليوم؟! أسئلة كثيرة تزاحمت في خاطري دون جواب لأن كثيرا من المناضلين عاشوا تلك الفترة في المدن والقرى التي تعرضت للموت والدمار والخراب مع هذا لم يعطوا لهذا الحدث ما يستحق من اهتمام وخاصة تلك الجوانب التي تهتم بها هذه الجمعية بل اكتفوا بالجانب السياسي فقط.

وهناك أسئلة أخرى جالت بنفسي تتصل بالجانب الثقافي والأدبي وكذا ما يتعلق بالبحث العلمي. فالواضح أن هناك تقصيرا كبيرا في هذه المجالات الثلاثة. ففي الجانب الثقافي العام إذا استثنينا ما يقام في الذكرى من ندوات أو ملتقيات وما يلقى فيها محاضرات تتحدث عن المأساة وتتناول أبعادها السياسية والتاريخية، نجد النزر اليسير من المقالات التي تتحدث عن تلك المرحلة مبثوثة في الصحف هنا وهناك ولكن أحدا لم يتناولها بالدراسة والتحليل الآن حسب علمي.

وفيما يتصل بالفن والأدب، لا شيء في عالم المسرح فأنا لم أقرأ ولم أسمع عن مسرحية كتبت أو مثلت تدور أحداثها حول 8 ماي

وتصور من خلال هذا الحدث مقاومة شعبنا التي تهدأ للاحتلال بينما كتبت مسرحيات عن موضوعات أقل خطورة. كذلك الأمر فيما يتصل بالأشرطة السينمائية تمثيلا أو تسجيلا، فأنا لا أعرف أننا أنتجنا عملا فنيا يصور أحداث 8 ماي وربما ينسحب هذا الحكم على الأحداث التاريخية الأخرى مثل الثورات التي قامت منذ بداية الاحتلال حتى قيام ثورة نوفمبر 1954 باستثناء شريط واحد عن ثورة بوعمامة ولا شيء عن الآخرين: الأمير ، المقراني، أولاد سيدي الشيخ وغيرهم الذين هم جديرون بعشرات الأشرطة. كذلك لا أعرف مسرحية واحدة عن الأحداث البارزة في تاريخنا القريب أو البعيد إلا القليل النادر. فمعظم الأفلام والمسرحيات ركزت على الثورة التحريرية المجيدة وهي تستحق أكثر من ذلك، لكن هذه الثورة - كما نعلم جميعا - لم تأت فجأة ولم تكن معزولة عن تيار المقاومة المتدفق السابق عليها وخاصة انتفاضة 8 ماي، فهي في تصوري كانت الشرارة والانطلاقة لثورتنا الكبرى التي أعدت لها التربة ومهدت لانفجارها.

ثم ماذا عن الجوانب الثقافية الأخرى مثل الرسم والنحت والموسيقى؟ فهل هناك أعمال تخلد كفاح شعبنا في تلك المرحلة من ناحية وتصور فظاعة الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون ضد مواطنينا ومازالت آثارها باقية حتى الآن، بل وما زال الأحياء يروونها بحرقة بالغة حتى هذه اللحظة، والحقيقة أنني لا أعرف أن هناك إنتاجا في

هذه الفنون التي ذكرتها وإن وجد فمن يستحق اللوم على جهلنا بذلك؟؟ وإذا لم يوجد فعلا فمن المسؤول؟! هل هم المبدعون أم المسؤولون عن الثقافة أم من؟ وهناك أسئلة أخرى تتصل بمجال البحث العلمي في جوانب كثيرة تتعلق بالموضوع. وحين بحثت في هذا المجال وجدت كتابا واحدا يعد دراسة موضوعية جادة تستحق التنويه ويمكن اعتبارها نواة لمركز خاص بأحداث 8 ماي تنشئه الجمعية، هذا الكتاب صدر سنة 1986 بعنوان «8 ماي 45 في الجزائر» لمؤلفه الأستاذ رضوان عينات تابت وقد صدر عن «ديوان المطبوعات الجامعية» باعتبار أن المؤلف يعمل بالتدريس في معهد العلوم السياسية جامعة الجزائر.

يقع الكتاب في حوالي 275 صفحة من الحجم المتوسط وهو رصد للمأساة بوقائعها الدامية ودراسة للملابسات التي أحاطت بها والأحداث التي سبقتها، ثم كيف كانت هي تمهيدا لثورة نوفمبر، وقد حصل على شهادات حية لأشخاص عاشوا المأساة ورووا ما شاهدوا كما أنه ذكر بعض شهدائها، وفي الأخير قدم عرضا مبسطا لبعض الإنتاج الأدبي حول الحدث ولاسيما الشعر الملحون الذي يقرر بأنه كان أكثر الألوان التعبيرية تجسيدا لهذه المأساة. قيمة الكتاب لا تكمن في أنه أول بحث جاد في الموضوع بل لأن فيه بعض الوثائق الهامة التي تلقي الضوء على ما وقع في ذلك اليوم وما اقترفته فرنسا

في حق شعبنا آنذاك، وحبذا لو أننا شجعنا الطلاب الجامعيين على اختيار 8 ماي موضوعا لأطروحاتهم ورسائلهم. لقد خطر بذهني ذلك حين قرأت الكتاب السالف الذكر وأيضا حين قرأت كتاب المناضل الأستاذ عبد الرحمن بن عقون وهو يتعرض إلى فترة الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر للفترة التي سبقت أحداث 8 ماي حيث يصف التوتر الذي عاشته الجزائر قبل الانفجار.

يتصل بهذا الموضوع، الجانب الإعلامي عامة والصحافي خاصة فهناك الصحف الوطنية والأخرى الفرنسية التي عرضت لوصف الحوادث أو التعليق عليها وهناك وجهات نظر مختلفة حول الدوافع والأسباب وأيضا حول الجرائم التي ارتكبت ووصف ما جرى وهذا أخمر طبيعي ولكن غير الطبيعي هو أن نهمل الأمر ولا نقوم بدراسات تعكس الحقيقة من خلال الشواهد والأدلة والوثائق خدمة للتاريخ أولا والأجيال الجديدة ثانيا.

إلى جانب هذا كله كان المتوقع أن تظهر دراسات اجتماعية ونفسية تولي عناية لأثر هذه الأحداث على المجتمع الجزائري من مختلف النواحي النفسية والعاطفية والاجتماعية، ومدى تغلغل هذه كلها في نفوس من عاشوها. أو من جاء بعدهم من الأجيال الأخرى التي سمعت عنها وربما لم تسمع عنها الكثير حتى الآن. فضلا عن تدريس

هذه الأحداث والوقائع في مختلف مستويات التعليم ومراحله حتى العالي، فهل حققنا هذا وأدرجنا هذه الحوادث في برامج تعليمنا للتاريخ والذكرى والتوعية؟!

أما الجانب الثالث في هذا الحديث فيتصل بالأدب - قصة ورواية ومقالا وشعرا - ويوشك الحكم السابق على الجوانب الثقافية أن ينطبق على هذه الأشكال الأدبية، فأنا لا أعرف رواية أو قصة طويلة تناولت أحداث 8 ماي والشخصيات التي قامت بدور بارز فيها سواء كانت شعبية أم قيادية. صحيح أن بعض الروايات انطلقت من تلك الفترة أو عاش أصحابها فيها ولكنني أقصد عملا أدبيا يصور الحدث في حد ذاته ومدى تأثيره في واقع الشعب ووعيه مثلما قرأنا في روايات عربية وأجنبية عن حادث أو واقعة معينة لها ظروفها وملابساتها الخاصة أو تلك القصص التي تحدثت عن الثورة ودور الشعب فيها أفراد وجماعات. ولعل هذا يفسر حتى دور الشعر في هذه الأحداث الذي يبدو قليلا أو ضعيفا بالقياس إلى ما قيل في الثورة ونضال شعبنا فيها. ربما مرد ذلك على اندماجنا في الثورة كحدث مصيري ونقطة فاصلة في تاريخ شعبنا مما أنخسانا كثيرا من الوقائع التي سبقتها وكان لها تأثير في حياتنا بل وفي الثورة ذاتها.

والمفروض أن الشعر أسرع من غيره في التعبير عن الأحداث وتجسيدها للأسباب المعروفة إلا أننا نجد بين أيدينا إنتاجا قليلا، الأمر الذي يصدم الباحث وهو يفتش عن النماذج الشعرية التي تتحدث عن انتفاضة 8 ماي 1945 سواء من حيث الكم أم من حيث الجودة، وكنا نتوقع أن نجد قصائد طويلة لجيل الشعراء الذين عاصروا تلك المأساة من أمثال: محمد العيد، مفدي زكريا، سحنون، بوشامة، السائحي، العقون... لأنهم اصطلوا بنارها وسجن الكثير منهم في الفترة نفسها ولكن ما نشر من مقطوعات أو قصائد على ندرتها فهي لا تصور المأساة وفظاعتها كما توقعنا، فهل هذا راجع إلى أن الصحف الوطنية كانت مصادرة فلم يكتبوا إلا بعد أن بدأ أثرها يخفت في النفوس؟ لكن من الصعب أن يضعف أثر مأساة مهولة كهذه في سنوات قليلة في نفس من ذاق ويلات الإرهاب الفرنسي!!

ما هو التعليل السليم؟؟ هل هو الخوف من البطش وجبروت الحكم الاستعماري؟ لا أظن ذلك لأن ما نشر بعدها يدل على أن بعض الشعراء تحدّوا جبروته وغطرسته وكانوا في مستوى التحدي. أم هل هي الأحداث والصراعات السياسية التي جاءت بعد هذه الفترة قد استنفذت جهود الشعراء فتجنبوا ما أمكن الخوض في الجراح وإثارة المواجع من جديد؟!

هذه الأسئلة تسلمنا إلى أسئلة أخرى تتصل بجيل الثورة الذي لم يترك لنا لا قليلا ولا كثيرا مما له علاقة بهذه القضية باستثناء قلة نادرة مثل الشاعر أحمد معاش الذي وضع عنوانا لقصيدته: «في ذكرى 8 ماي» وأهداها له دون أن نجد تفصيلا فيها عن الحدث وتصويره وإن كتب بعد الاستقلال قصيدة طويلة في هذه الذكرى سنتعرض لها فيما بعد، ربما نجد المبرر المنطقي لهذا الجيل أنه لم ينضج في تلك الفترة لأن سنة وثقافته وموهبته آنذاك لم تكن تسمح بأكثر من ذلك، ثم إن الثورة تفجرت فتغنى بها وغنى لها وركز عليها لأنها كانت النهر العظيم الذي غطى على الروافد والفروع. وهذا الحكم ينطبق على جيل ما بعد الاستقلال فهو أيضا ركز على الواقع الجديد وعلى الأحداث التي عاشها ويعيشها يوميا أو اهتم بالثورة لأنها قريبة منه ومن نفسه ومن سنة فلم يعن - كما كان متوقعا - بمأساة 8 ماي ولا نغيرها من الأحداث التاريخية في بلادنا. والواقع أنه معذور في هذا التقصير لأنه لم يجد من يساعده على التعمق في هذا الماضي والعودة إليه سواء ممن سبقته من الأدباء أم غيرهم، فالجيل السابق مسؤول عن الجيل القادم وهذا ليس في الأدب وحده بل في كافة المجالات الأخرى.

ولا بأس هنا من أن أنطلق من التجربة الذاتية، فعندما فكرت وأنا مازلت طالبا في جامعة القاهرة أن أكتب الجزائري لم أجد سوى

نماذج قليلة جدا أشرت إليها في كتاب «دراسات في الشعر الجزائري الحديث» الذي صدر في بداية الاستقلال وعرضت للبعض منها تحليلا ونقدا، وبعد ثلاثين سنة حين فكرت في كتابة هذا الحديث عدت إلى دواوين الشعراء في الأجيال الثلاثة لعلني أعثر على قصائد كثيرة في الموضوع لكني - كما سبق القول - وجدت النزر القليل وجالت بنفسي الأسئلة التي سبق أن ذكرتها وحاولت الإجابة عن بعضها البعض ويبقى البعض الآخر لمن يملك ذلك. وهنا مرت بخاطري أحداث أخرى وقعت في الأقطار العربية قبل 8 ماي وبعده فكتب عنها الشعراء العرب قصائد كثيرة كما كتبت مسرحيات وظهرت أشرطة وأفلام تصور هذه الأحداث. يكفي أن أشير فقط إلى حادثة «دنشواي» في مصر سنة 1906 التي قتل فيها ضابط إنجليزي وأصيب آخرون فحكمت محكمة اللورد كرومر بالإعدام على أربعة من الأهالي وسجن وجلد ثمانية آخرون ونفذ الحكم علنا أمام المواطنين، فكتب الشعراء عن هذه الحادثة قصائد جميلة وألفت عنها المسرحيات.

سقت هذا كمثل من أمثلة كثيرة لنلاحظ الفرق بين اهتماما لأدباء والشعراء والمثقفين بمثل الحدث الذي نحن بصدده وبين اهتمامنا نحن رغم أن الفارق كبير بين ما حدث في 8 ماي وبين ما حدث في أقطار عربية أخرى بما لا تصح معه المقارنة، وبين اعتناء أشقائنا

بالتاريخ وإهمالنا نحن له مع علمنا بأن لا تاريخ له لا وجود له ولا مستقبل ولا مكانة في الحياة.

وحتى لا أكرر ما قلته عن الشعر الذي قيل في هذه الانتفاضة - وهو بالطبع شعر مناسبة وإن كانت مناسبة من نوع آخر - أقول حتى لا أكرر ما ذكرته في دراستي السابقة أشير فقط إلى تلك النماذج وأضيف إليها النماذج الجديدة التي لم تظهر سوى في السنوات الأخيرة.

ويبدو أن محمد العيد - رحمه الله- كان من السباقين - مثل بوشامة - إلى تسجيل الأحداث التي مر بها شعبنا منذ بداية القرن حتى انتقاله إلى الملأ الأعلى، ولم أعثر له إلا على قصيدته التي يبدؤها بالتساؤل الحزين عن هذا اليوم الذي يثير في نفسه الحزن والألم ويدفعه إلى اليأس من الذين كانوا السبب في جراح الشعب ومآسيه، عنوان القصيدة «لا أنسى» فهو يتذكر ويدعونا إلى التذكر حتى لا ننسى فظائع الاستعمار الفرنسي ووحشيته.

يقول:

أأكتم وجدي أو أهدئ إحساسي وثامن ماي جرحه ما له آسي

وأراقب ممن أحدثوه ضمادة وهم في جماع لم يميلوا لإسلاس

تمر الليالي وهويدمي فلم نجد له مرهما منهم سوى العنف والبأس

ثم يواصل تشاؤمه ووصفه لوضع الشعب وما يعانيه تحت حكم فرنسا وفي النهاية يدعو إلى الثورة ورد المظالم بالقوة:

ولا خير في عد المظالم وحدها　　　إذا لم تبن عن مرهفات وأتراس

والقصيدة في الديوان ولها تحليل في المصدر الذي أشرت إليه ويمكن أن تدرس بعناية وتعمق أكثر.

ولعل الشاعر الربيع بوشامة قد جاء بعد العيد كي يجسد إحساسه بظلم فرنسا والغرب عامة للشعب الجزائري في قصيدته 8 ماي التي يبدؤها بهذا البيت:

قبحت من شهر مدى الأعوام　　　يا مايو كم فجعت من أقوام!

وهو يدين الاستعمار وحكامه ويدين الغرب لأنه تنكر لوعوده نحو الجزائر رغم تضحيات أبنائها من أجل أن تحرر فرنسا وغيرها، لذلك يدعو على هذا الغرب بأن ينتقم الله منه:

عجل لهذا الغرب من رب السما　　　بقواسم مجتاحة وضرام

والشاعر في قصيدة أخرى يربط بين مأساة ماي في خراطة وبين الزلزال الذي وقع بها بعد الانتفاضة. يقول عنها:

أسفا عليك بليدة مسكينة　　　رصدتك أحداث بكل مجال

ويقول عن ماي والزلزال:

بالأمس أنت طريدة معروضة　　　للظلم أضناك بسيف نكال

والهوم أنت فريسة مقهورة في مخلب البركان والزلزال

ومن بين الشعراء الذين انفعلوا بالمأساة الشاعر الشهيد عبد الكريم العقون، وقد كتب قصيدته في إحدى ذكريات ماي المشؤوم، وهو يعتبر الانتفاضة معركة خاضها المجاهدون وهي نظرة جديدة للذين أسهموا فيها وقادوها وشاركوا فيها بشكل من الأشكال، لأن هدفها هو الحرية والتحرر من عبودية المحتل، يقول الشاعر:

ذكرى على مر الزمان تكرر لمجاهدين جهادهم لا ينكر
ضحوا بأنفسهم لشعب مسلم والنفس أنجع للفداء وأجدر
وسعوا لشعب طامح متطلع رام الحياة طليعة تتنور

ثم يستمر في وصف هؤلاء المجاهدين الذين أخلصوا لشعبهم ولدينهم ولوطنهم واستشهادهم في هذه المعركة هو الذي كتب النصر للشعب على عدوه ولأن هذا الطريق هو الوحيد للحرية:

كتبوا صحائفهم بحبر من دم نعم الدماء بها الشعوب تطهر

ويصف شجاعتهم وثباتهم لأن إيمانهم أقوى من بطش الأعداء ومن ظلمهم:

ما ضرهم سجن ولا نفي ولا موت كذاك الحر لا يتغير
ألفوا المعارك والبطولة والفدا خاضوا غمار الموت كي يتحرروا

وهنا يصف شجاعة الشبان الذين خاضوا المعركة في أحداث ماي، يصف تضحيتهم وجرأتهم النادرة من أجل حرية الوطن، وقد أظهر الشاعر حماسة واضحة في هذه الأوصاف المعبرة ولو أنها تعتبر تقليدية ولكنها بالنسبة له كانت تجسيدا صادقا لشعوره الفياض بجسامة التضحية وسمو البذل:

نشء تجهز للكفاح تخاله أشبال غاب في الكريهة تزأر

ويواصل استصراخ الشعب للثورة والدفاع عن الدين والحق والحرية ويعدد المظالم التي تعرض لها زمنا طويلا وكلما طالب بحقه لم يجد من المستعمرين سوى النار والدمار:

قد هب يطلب حقه فهو عتم للقتل، للتشريد. لم تتبصروا

على أن ما نلحظه من النظرة ومن الأسلوب لهؤلاء الشعراء الثلاثة أن العيد وبوشامة يعبران عن الألم والحزن مما حدث بينما "العقون" يهاجم المحتل ويدعوا إلى الثورة ويحث الشباب على النضال والتضحية، فهل هذا راجع إلى الاختلاف في المزاج بين الشعراء أم إلى الانتماء السياسي؟؟ نقول هذا لأن قصائدهم هذه قيلت قبل الاستقلال، ومن هنا نجد أن القصائد التي قيلت في 8 ماي بعد الاستقلال ربما أكثر عمقا وشمولا وطولا أيضا. ربما يرجع هذا لظروف الشعراء قبل الاستقلال وبعده من جوانب مختلفة سواء منها

الثقافية أم السياسية، ولعل هذا ما يفسر مثلا طول قصيدة أحمد معاش الذي هو من جيل الثورة ولكنه قال قصيدته في الذكرى التي أقيمت بقالمة سنة 1985 بعنوان (ذكرى الشهداء) فالشهادة هنا أصبحت موضوعا يكتب فيه الشعراء من الأجيال الثلاثة لأن الثورة فرضته على الجميع مثل الجهاد. الجبل. الثورة. المجاهد والفدائي وغير ذلك من الموضوعات التي انتشرت أثناء الثورة وبعدها وأصبحت من علاماتها ورموزها إذ ارتبطت بها وبواقعها وزمنها وحتى الآن لأنها أصبحت تراثا حيا نعيشه دائما بوجداننا ووعينا وحتى لا وعينا، تراثا يصبغ حياتنا بوجه عام.

ومن ثمة فإننا لا نفاجأ حين يبدأ معاش قصيدته المشار إليها بالحديث عن الشهيد، وهو يعني شهيد 8 ماي وانتفاضة الشعب فيه.

فالشاعر كتب القصيدة بعد مرور أربعين عاما على المأساة ولكنه يشعر بالفرق بين الماضي وبين اللحظة التي ينشد فيها قصيدته وهو حر في وطنه المستقل وهو بذلك سعيد بالطبع:

حي الشهيد بيوم ماي الأسود ... واكتب ملامحه بباب المسجد
واسعد بحظك في التحرر بعده ... واركع بذاكره الأليمة واسجد
وأعد على السمّار صرخة مؤمن ... قد واكب الأحرار منذ المولد

وطبعا تذكرة قالمة بخراطة وسطيف ويركز على قالمة لأنها تعيد إلى ذهنه ماضي الاستعمار الأسود خاصة وأن الشاعر ألقي قصيدته فيها أثناء هذه الذكرى الحزينة لأنه اليوم الذي يذكرنا جميعا بالمجزرة ولكنه في الوقت نفسه يذكرنا ببطولة شعبنا وكفاحه المتواصل:

يا يوم قالمة الجريحة مثلنا　　　يا يوم وادي الدماء الأمجد

والشاعر يعتبر هذا اليوم يوم الجزائر كلها شعبا ووطنا، أفرادا وجماعات وهو أيضا تجسيد لبطولة الشعب بأجمعه:

يوم الجزائر كلها لا تنكروا　　　يوم البطولة والفدا والمحتد

ويمزج الشاعر بين فكرة التضحية والشهادة والجهاد بالأمس في ماي وبعده وهذا بالطبع من تأثير الثورة، ولكونه مجاهدا كان يكتب القصيدة وفي خاطره وأعماقه ماضي الشعب ونضاله المستمر والشهداء الذين عاش معهم وعرفهم عن قرب:

حي الجهاد بكل شبر ها هنا　　　وأقم سرادق للشهيد الأمجد
واذكر رفاقا في الجهاد أحبه　　　في كل روض هادئ أو مشهد
غابوا لتبقى أرضنا لوفائها　　　تحييهمو كالعيد أو كالمولد
ذهبوا ضحايا قامع متطاول　　　قتل الألوف لحكم شهر أزيد

ثم يصف الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون مثل بقر بطون الحوامل من النساء والاعتداء علي أعراض الفتيات العذارى وكيف كانوا ينهبون المواطنين ويسلبونهم حتى قوتهم اليومي ويتبارون أو يراهنون بعضهم على من يقتل أكثر:

يا للسفاهة يبقرون حواملا	ويقامرون على الجنين الأمرد
ويراهنون على إصابة هارب	بتقاسم لحشاه أو بتفرد
ويسارعون إلى اغتصاب لذائذ	أو قدر سمن أو بقايا مزود

فهذه الأعمال الدنيئة هي نفسها التي يعاقب عليها القانون الدولي، ونفسية الجندي الفرنسي لم تتغير سواء فيما ارتكبه في مجازر ماي أم أثناء الثورة. ولاشك أن الشاعر يعرف هذا كله ويعرف أن العدو لم يغير جلده، لذلك فالموقف واحد ولا فرق بين ما اقترفه في هذه المأساة أو قبلها أو بعدها.

ويستطرد الشاعر بعد ذلك في قصيدته ليصف بعض الأماكن مثل «تاملوكة» و«وادي الزناتي» و«قالمة» و«سطيف» و«خراطة» وغيرها وجميعها تجاوبت مع نضال الشعب ورفعت شعارات وطنية مسالمة ولكن العدو ردّ عليها بمثل ما عرف عنه من حقد وكراهية ويحدد عدد الضحايا من شهداء هذه المذبحة ويعطي رقما قال به بعض

الباحثين ويصف في سخرية كيف ابتهج الفرنسيون واحتفلوا بتقتيل الجزائريين:

خمسون ألفا من ضحايا ضربة مجنونة قد عذبوا في المحشد

ثم انبري الإعدام يرقص بهجة في عيد نصر كافر مستعبد

وهو يعتبر ثورة نوفمبر ردا علي ما جرى في 8 ماي وانتقاما للأبرياء وللكرامة:

حتى ثأرنا في نوفمبر واعتلت رايات نصر في البلاد مخلد

ويوجه بعد ذلك خطابه إلى الأحياء بعد الحديث عن الشهادة والشهداء فيدعوا إلى الوحدة والاتحاد ويلح على الواقع ويخشى على الدين الإسلامي كما يخشى على العرب من المؤامرات التي تحاك ضدهم وكأنه كان يتوقع ما حدث مؤخرا في حرب الخليج ويعزو ذلك - وهو صادق - إلى طمع الغرب في نفط العرب:

والطامعون بنفطنا ودمائنا يخفون ناب الغدر طي تودد

ويوغل الشاعر في تقضي هذه الأطماع وأصحابها ويرسم صورة دقيقة وحقيقية لنواياهم وغدرهم، ويحث العرب على رد الفعل لأن العالم لا يحترم سوى الأقوياء. ويرد على الذين يحاولون جرنا إلى نفوذ الأعداء وخاصة أولئك الذين عرفناهم وخبرنا نواياهم وشربنا من

علقمهم ونعرف ما يبيتونه لنا وإن كان تحت ستار اللغة والثقافة أو ستار من وقع تحت تأثيرهم ولو كان يلبس «البرنوس» و«العمامة»:

إن التفرنس نكبة مدروسة ومخطط يرمي لما بعد الغد
إن العدو إذا بدا، بانت لنا منه المقاتل فاغتدى رهن اليد
لكن إذا أن العدو معمّما ومبرنسا مثل الزبير و أحمد..
كيف السبيل إلى اكتناه ميوله والخنجر المسنون تحت المثرد

وعلى نهج الشعراء في القديم يخبص إلى الحكمة فينشئ أبياتا كثيرة استقاها من الحياة أو من التراث والثقافة ويطيل في هذا الموقف كما يطيل في التعبير عن إحساسه نحو ماي فيتوجه إليه في مناجاة صادقة يمزج فيها بين الذات والموضوع في نبرة حزينة أحيانا وثائرة أحيانا أخرى ولكنه يختمها بالإعلان عن حبه لهذا الشهر (ماي) والوفاء له وللجزائر:

إني سأبقى رهن حبك حاملا ذكراك والأمل المجدد للغد
فالحب عندي منه نهر صاخب جار كنبع العاشقين مخلد
فاشرب – فديتك- من دمائي إنها وقف عليك وأنت تدري مقصدي
إن لم أروى من دمائي روحه تدعى الجزائر من تراني افتدي

(110 بيتا) فلعل ظروف الشاعر والوطن والموضوع أسهمت كلها في هذا الطول، بينما نجد غيره ممن كتبوا عن ماي قبل الاستقلال لم يغوصوا في الحدث كثيرا كما سبق القول باستثناء

الشاعر محمد الأخضر السائحي الذي ضرب على الوتر نفسه في قصيدته «أيها الذاهبون أمس ضحايا» التي قالها في الذكرى العشرين لمأساة ماي حيث ربط الحاضر بالماضي، حاضر الشعب بعد أن تحرر وماضيه الذي عانى فيه ما عانى. وهو مثل أحمد معاش يتحدث عن المناسبة ويبدأ بسؤال في دهشة لأن الشعر لا يستطيع تصوير هذا الحدث الضخم:

اي شعر وأي لحن تعيد؟!	أيها الشاعر تئدا ماذا تريد؟
هو أسمى من القريض بيانا	ما القوافي ياصاحبي؟ ما النشيد؟!

والشاعر يرى - وهو صادق - أن الدماء التي سالت في شهر ماي كانت بداية اليقظة ومنطلق الثورة، وتلاقي شهداء ماي مع شهداء نوفمبر فتحقق حلم الشعب في الحرية والإنعتاق:

دمكم فجر الحياة عليها	فهي بعد الدماء شيء جديد
جرف الغاصبين كالسيل حتى	لم يعد غاضب لدينا وحيد
طلب الثار بعدكم فانطلاقنا	وتلاقى شهيدة وشهيد

ثم عدنا ترفرف الراية الخضراء من فوقنا ويعلو النشيد ويعبر بعد ذلك عن إحساسنا جميعا بهذه الذكرى وبالتضحيات التي قدمها الشعب والتي ستبقى في خواطرنا مدى الدهر لأن صراعنا بالأمس في ماي هو نفسه في ثورتنا الكبرى وتضحيات الشهداء هي التي أعادت للجزائر عروبتها وحريتها ومجدها ومكانتها بين الشعوب الحرة.

أما الجيل الجديد - بعد الاستقلال - فلم أقرأ له إنتاجا كثيرا حول هذه المأساة أو الحدث البارز من تاريخنا المعاصر، هناك قصيدة للشاعر محمد بن رقطان كتبها عام 1977 وألقاها في قالمة في الذكرى نفسها ونشرت في ديوانه. وبدايتها تؤكد أصالة الشاعر رغم صغر سنه آنذاك كما أن هذا يبدو واضحا في موسيقى القصيدة وفي صورها وتعابيرها المناسبة تماما للموضوع. فهو يرى في 8 ماي يوما يدل على صلابة الشعب من ناحية وعلى قسوة العدو ومزاعمه وأكاذيبه من ناحية أخرى:

يوم تعانق فيه الحزن والطرب — ناغاه شعب سرى في روحه الغضب

وبات يهتف للآمال في غده — وفي الضلوع هتاف الشوق يضطرب

وفي حناياه إحساس يقول له — إن الوعود النشاوى كلها كذب!

والشاعر مثل سابقيه أحمد معاش والسائحي يقرن انتفاضة ماي بثورة نوفمبر لأن الأولى تمهيد للثانية، ولأن التاريخ لا يتجزأ فهو حلقات مترابطة كما يربط بينها أيضا وبين الأوراس:

وجاء مايو يغني كل من ذهبوا — ضحية الحرية الحمراء في وطني

وعاد يروي لنا ذكرى وأمثلة — من البطولات في الأرياف والمدن

وفي ذرى قمم الأوراس ملحمة — نشيدها لم يزل في مسمع الزمن

هناك في الأفق النشوان موعدنا — مع الخلود الذي صغناه من محن

وللشاعر قصيدة أخرى تتصل بالموضوع وقد حرك قريحته التمثال الذي أقيم لأول شهيد يسقط في انتفاضة ماي بقالمة وهزه الموقف فعبر عن إحساسه بالماضي المشرف من خلال رمز للشهيد في نغمة فيها فخر بالانتصار بعد ثورة نوفمبر، وهي طويلة عرض فيها لقضايا تتصل بالحرية وبالاستقلال وتشييد الجزائر بعد التحرر من الاستعمار وأسلوبها قوي ولغتها صافية، يقول في مطلعها:

إن لاح طيفك في الجود فطالما   سكر الفؤاد بفجرك المختال

أو رف شوق في الضلوع فكم هفت   تلك العيون لوقفة التمثال

والقصيدتان جديرتان بالدراسة مثل الديوان كله ففيه روح عربية وأصالة واضحة لغة وأسلوبا والتزاما بالقضايا الوطنية والعربية ومعظم قصائده قالها في قالمة التي قضى بها سنوات عديدة ونشعر بارتباطه بها وبالأحداث التي جرت في ماي 1945.

على أن هناك شاعرا شابا آخر هو الأديب الموهوب عز الدين ميهوبي له قصيدة في الموضوع قالها في الذكرى السادسة والثلاثين لماي يقول في مطلعها:

نطق الدهر فكان الشعر نايا   وأتى التاريخ يحي اليوم مايا

ولكنني للأسف لا أملك نصها كاملا الآن ولكننا نلحظ من المطلع أسلوب الشاعر الجزل ولغته المتميزة وموسيقاه القوية، والواقع

أن شعر ميهوبي ممتع ملتزم وشيق حقا يمتاز بالأصالة، والموهبة والثقافة العميقة إلى جانب الحساسية المرهفة وفوق هذا فهو ممن يتمتعون إلى جانب الخلق الرفيع بروح عربية صادقة مثل ابن رقطان وكم أمتعنا في السنوات الأخيرة بملصقاته التي كان ينشرها في جريدة الشعب وكذلك إيداعاته المتفردة أثناء حرب الخليج وحتى اليوم.

وهناك شباب آخرون أسهموا في الحركة الأدبية والثقافية في بلدنا منذ السبعينيات حتى اليوم وهم يستحقون - سواء على صعيد هذه المناسبة أم غيرها - دراسة جادة متكاملة لجهودهم التي أغنت الأدب والإبداع في بلدنا ولعل الفرصة تتاح لي مستقبلا أو لغيري للقيام بهذه المهمة..

وتجدر الملاحظة إلى أنني لم أعثر على قصائد كتبت بطريقة الشعر الحر، لست أدري هل أن الشعر الحر لا يميل إلى المناسبات؟ أم أن الحديث عن الماضي لا ستهوي أصحاب الشعر الحر لأنهم مهتمون بالواقع أو بالمستقبل أكثر؟!

على أنني عثرت على بعض المقطوعات والقصائد التي كتبت بالعامية وتدخل في نطاق الشعر الملحون وبعضها تغنى بها الشعب بعد تلك الكارثة وردده الأطفال في الكشافة وفي المدارس في تلك الفترة.

ومع ما ذكرت من قصائد فإنني لا أزعم أنني قرأت كل ما قيل من شعر عمودي أو غيره أو ملحون في هذه الملحمة أو في هذه المأساة التي عانى منها شعبنا وربما نشر إنتاج لم أطلع عليه وربما يكون هناك إنتاج مخطوط لدى أصحابه نتمنى أن يخرج إلى الوجود فيدرسه الباحثون ويرصدوا فيه تجاوب الأدباء والفنانين مع هذا الحدث التاريخي البارز الذي يستحق اهتمامنا جميعا لكن لا ننسى أن هناك كتابات باللغة الأجنبية عرضت قليلا أو كثيرا أو بأشكال مختلفة للحدث وتحتاج إلى من يهتم بها.

أما المقالات الأدبية التي كتبها أصحابها بهذه المناسبة مثل الشيخ البشير الإبراهيمي فقد تحدثت عنها في كتابي «تطور النثر الجزائري الحديث» وحللت نموذجا للإبراهيمي قاله في هذه المحنة بأسلوبه القوي المعهود لا داعي لأن نعود إليه، ولكن يمكنني أن أشير أيضا إلى أن هناك مقالات متفرقة في الصحف وربما في مصادر أخرى تحتاج إلى من يبحث عنها ويدرسها حتى تكتمل الصورة التي عبر عنها الشعراء والأدباء وكيف صوروا أو استوحوا من هذا الحدث أو جسدوه في إيداعهم الأدبي والثقافي.

جريدة «الشعب» في 8 و9 ماي 1991 .

انتفاضة 8 ماي
في كتابات وطنية وعربية واجنبية

في العام الماضي بمدينة «قالمة» وفي مثل هذا الوقت أتيح لي أن أناقش - في محاضرة - دور التراث الأدبي والثقافي والفني وما قدمه المبدعون الجزائريون في انتفاضة 8 ماي 1945، ووصلت إلى حكم وهو أن هذا التراث، فضلا عن أنه يجمع كله فإنه لم يصل إلى مستوى هذه القضية من شتى النواحي صياغة ومحتوى، وأننا مازلنا دون مستواها، تعبيرا وتصويرا ودراسة وبحثا.

ومرة أخرى يطلب إلي الأخ المناضل بشير بومعزة أن أسهم في المناسبة نفسها وفي مدينة مناضلة أخرى هي «سطيف» التي تعرضت مثل كثير من الأماكن أثناء تلك الانتفاضة إلى القمع والبطش والتدمير بل وإلى القتل الوحشي الذي مارسته القوات الفرنسية الغاشمة على العزل من أبناء «سطيف» الشجعان.

ولكنني وجدت نفسي مترددا فأنا بعيد عن مجالات القانون والسياسة والتاريخ وهي الموضوعات والتخصصات التي تعالج ما يحيط بهذه الانتفاضة من دوافع وما انجر عنها من نتائج، فاهتماماتي في

الواقع تنصب على النقد والأدب والدراسات الأدبية والثقافية بشكل عام.

ومع ذلك فقد اهتديت إلى موضوع - رغم أنه لا يدخل في اختصاصي - إلا أنه يمكن أن يكون مثار نقاش وموضع اهتمام الباحثين والدارسين الذين أشرت إليهم سابقا، وأعني بهذا الموضوع ما كتبه الباحثون والدارسون - من مؤرخين وسياسيين - عن انتفاضة 8 ماي سواء على النطاق الوطني أم العربي أم العالمي، ولأنني لا أملك مراجع كثيرة فقد اعتمدت على ما يوجد بمكتبتي وهو قليل بالقياس إلى أهمية الموضوع وإلى ما كتب عنه في فترات مختلفة شرقا وغربا.

ومن هنا فإن ما أسوق الحديث فيه لا يعدو أن يكون عينة مما كتب كما أنني لا أدعي أن هذا سيجيب عن الأسئلة الكثيرة بقدر ما يثير أسئلة جديدة ربما نجد جوانبها لدى الدارسين إذا قيض لمجموعة منهم جمع هذا التراث الذي كتب أو سجل عن 8 ماي سواء باللغة الوطنية أم بلغات أجنبية في شتى أنحاء العالم خدمة للتراث الوطني والعالمي.

ومن الأسئلة التي تجول بالذهن: هل كان من الضروري أن نعتمد فرنسا ومستوطنوها بالجزائر إلى كل هذا العنف وهذا الإرهاب على هذا النحو البشع؟؟ وهل المظاهرات السليمة في بعض المدن

الجزائرية شارك فيها أناس مسالمون كانت تحتاج إلى استعراض هذه القوة العاتية أمام العالم في مناسبة سلمية؟؟ وهل رد الفعل الفرنسي كان تلقائيا دفاعا عن مصلحة الأوروبيين في الجزائر كما قيل، أم كان تعبيرا عن حقد دفين قديم؟؟ وهل كان تلقائيا فعلا أم مدبرا بإحكام؟؟!

وهكذا يمكن أن نثير السؤال تلو السؤال حتى نصل إلى تحديد الملابسات التي أحاطت بهذه الانتفاضة من قريب أو بعيد، ونناقش الظروف والعوامل والدوافع والمعطيات التي تتعلق بهذه المأساة سواء بالنسبة إلى الوطنيين الجزائريين أم بالنسبة للمحتلين الفرنسيين في الجزائر أم في حكومة فرنسا في تلك الفترة.

وأعتقد أن من اهتم - قليلا أو كثيرا - بتاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ومنذ احتلال أو غزو فرنسا لبلادنا سنة 1830، يدرك جيدا أن رد الفعل الفرنسي في القرن الماضي أو الحالي كان دائما متعصبا يعتمد على القوة والبطش، وليس هذا خاصا فقط بالثورات أو «تتمرد» فيها مدينة صغيرة، فضلا عن منطقة كاملة أو مناطق متعددة كما حدث في ماي 1945 التي نتحدث عنها الآن. فصراعنا مع العدو الفرنسي يؤكد أنه صراع طويل من ناحية وأن العدو يصدر فيه عن عنصرية وحقد وانتقام، فإذا كانت العوامل

الاقتصادية والسياسية والعسكرية ومكانة فرنسا في العالم قد أسهمت في هذا الصراع فإن بؤرة في هذا المنطلق هو الصراع الحضاري البعيد الجذور بين حضارتين...

وهذا يفسر شراسة الفرنسيين في قمعهم للشعب الجزائري قبل الثورة وأثناءها لأن الجزائر قاومت هذا الاعتداء بمختلف الوسائل والسبل ورفضت الاستجداء، كما رفضت أن تكون تجربة للاستيطان الفرنسي والغربي بوجه عام. فكان رد الفعل الفرنسي رهيبا، فظيعا.

وليس من الطبيعي ولا من الموضوعية أن نكتب هذا التاريخ مثلما تفعل اليوم عن هذه الانتفاضة بأن نكتفي بوصف الأحداث والإشارة إلى بعض العوامل ونترك هروبا من الحديث عن الحقيقة لغرض ما أو دافع ما.

ولعل هذا الفهم هو الذي يساعدنا على تفسير ما أحاط بهذه الانتفاضة من غموض من ناحية وقلة الكتابات عنها من ناحية أخرى.

نحن نعرف أنه من الصعب أن يتفق الباحثون والدارسون في تعليل ما حدث، ولكن كثيرا من هؤلاء - رغم اختلاف النظرة والمنهج والتناول - اعتبروا أن هذه الانتفاضة كانت بداية العد

العكسي للوجود الفرنسي في الجزائر وأن ثورة نوفمبر المجيدة بدأت في الحقيقة من هذه الانتفاضة وإن تأخرت في الزمن.

والكتابات التي أتناولها هنا هي كتابات جادة من باحثين عنوا بهذه الانتفاضة كل من زاويته الخاصة وقناعته وتفسيره، ويمكن الخلاف أيضا في معالجة الموضوع، فبعضهم وربما أغلبهم أوجز في الحديث واهتم بوصف المجازر التي ارتكبها الفرنسيون كما تحدث عن الجرائم البشعة التي طالت المواطنين العزل، فهذه الكتابات عنيت بالشكل دون الجوهر، أي أنها عمدت إلى وصف الخارج دون الغوص في الأعماق، يستوي في هذا الجزائريين وغيرهم من العرب والأجانب.

هذا الحكم أصدره على ما بين يدي اليوم من المراجع، فحجم الكتابات فيها لا يزيد عن صفحتين أو ثلاثة وكأن الحديث لا يحتاج إلى تفصيل أو تحليل أو تعليل، ويبقى السؤال واردا: لماذا هذا الإيجاز؟؟

على أن هناك كتابات أخرى عمد فيها أصحابها إلى التحليل العميق لمختلف جوانب القضية وغاصوا في التاريخ والاجتماع والسياسة ورصدوا دوافع فرنسا الحقيقية لارتكاب هذه الجريمة الوحشية التي لا تختلف عن جرائم النازية والفاشية والصهيونية ضد الإنسانية.

وإذا كانوا لا يصرحون بذلك في كتاباتهم - خاصة منهم الأجانب - فإن ما يمكن أن نستخلصه من آرائهم أن هذه الجريمة

مدبرة عن قصد وعمد وأن الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون هي ردع لمن يفكر في التحرر من هيمنة فرنسا ويتمرد على سلطتها وسطوتها.

ونحن نجد عذرا لكتابنا وباحثينا الذين لم يولوا الموضوع حقه من الدراسة والبحث، فهم يعيشون داخل الحدث، واقعا أو شعورا، وبعضهم عاش الظروف ولربما أسهم فيها، وبعضهم الآخر لم يعش الحدث في وقت بسبب السن فاعتمد على غيره في وصف الوقائع واكتفى بالقليل دون التحليل، وفي حين نجد بعض الأجانب - بوجه خاص أولئك الذين يتعاطفون معنا أو ينظرون نظرة محايدة أو موضوعية نسبيا ويتأملون الواقع من بعيد - فإن هؤلاء أقدر على استنتاج الدوافع الحقيقية التي دفعت الفرنسيين على ارتكاب جرائمهم البشعة ضد الجزائريين الذين طالبوا بحقهم في الوجود والكرامة والحرية.

وطبعا نبدأ حديثنا هذا من الجزائر، وما كتبه بعض باحثينا عن هذه الانتفاضة انطلاقا من المحلي إلى العربي ثم العالمي حتى يكون منهجيا سليما وحتى نلحظ الفرق في التناول وفي الفهم والتفسير، وقد اخترت من كتابات الجزائريين عدة نماذج يختلف أصحابها ثقافة وتكوينا وتوجها أيضا.

في البداية لا أنسى التنويه مرة ثانية كما فعلت بالتفصيل في العام الماضي بكتاب الأخ رضوان عيناد تابت «8 ماي 1945 في الجزائر»[1] وهو بحث قيّم خصص كله لهذا الحدث التاريخي الهام وجمع فيه الكثير مما كتب عنه حتى الناحية الأدبية والفنية، ثم انتقل إلى كتاب المرحوم أحمد توفيق المدني الذي صدر أثناء الثورة «هذه هي الجزائر»[2] وقد وصف فيه الانتفاضة في صفحتين لا غير واعتبرها حادثة أو حوادث وعذره في ذلك أنه كتب عن تاريخ الجزائر في كتيب صغير عرض فيه إلى الموضوع طوال فترة الاحتلال وغرضه التعريف ببلادنا في المشرق العربي ومن هنا فإن ما ذكره عن 8 ماي يرجع إلى حجم الكتاب وإلى مناسبته. والكتاب يوعز ما جرى إلى حجم الكتاب وإلى مناسبته. والكتاب يوعز ما جرى إلى المظاهرات التي قام بها الجزائريون تعبيرا عن المشاركة في الاحتفال بانتهاء الحرب العالمية الثانية وأنهم أرادوا: أن يتخذوا منه وسيلة لإظهار عواطفهم وبيان أهدافهم[3] أي أن الجزائريين كانوا يطمحون إلى أن يقف العالم إلى جانبهم ويساند مطالبهم العادلة في الحرية والاستقلال.

---

[1] ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر 1986.

[2] مطبعة النهضة – القاهرة 1958.

[3] ص:177.

وميزة هذا الباحث أنه أشار بصورة موجزة إلى أن رد فعل الفرنسيين كان مقصودا وليس كما يقول بعضهم كان دفاعا عن الوجود بالنسبة للمعمرين بل كانوا مبيتين للأمر ويترقبون الفرصة المناسبة لارتكاب ما قاموا به من مجازر، فجاءت المظاهرات لتعطيهم الحجة:

«لكن الاستعمار قد هيأ برنامجه واختار مكان المعركة فما كادت مظاهرة سلمية بمدينة سطيف صبيحة ذلك اليوم حتى تحرش بها الفرنسيون بدعوى أن المتظاهرين كانوا يرفعون علما جزائريا محجرا، وقتل محافظ البوليس بيده غلاما مسلما كان يرفع العلم[1].

ولكن هذه الإشارة غير كافية لتحديد الدوافع التي حركت غريزة الانتقام في نفوس الفرنسيين حتى يرتكبوا هذه المجزرة فالتعليل بالمظاهرة هو وصف للظاهر مثلما حدث في الماضي حين تعللت فرنسا بقصة المروحية لتحتل الجزائر في القرن الماضي، ثم إن الباحث كي يؤكد التواطؤ يذكر أن الفرنسيين تألبوا: «على المسلمين في الجهة الممتدة بين سطيف وخراطة وقالمة. رجال الجند الفرنسي بين مشاة وطيارين وفرق مصفحة ورجال البحرية الفرنسية

---

[1] ص: 177.

الذين كانوا مستعدين في السواحل ورجال الجالية، الأوربية الذين كانوا قد تسلحوا واستعدوا لذلك اليوم الأحمر الرهيب [1].

وهذا ما جعل الكاتب يصف تلك المذابح بانفعال واضح، فيصف قصف الطائرات للقرى والمداشر وزحف الدبابات على مساكن المسالمين من سكان سطيف وقالمة وخراطة ويصف دور «الميليشيات الأوروبية» في القتل الجماعي وكيف كان المثقفون الجزائريون في هذه المناطق يساقون ويؤمرون:« بحفر القبور الجماعية ثم يقتلون، الفوج إثر الفوج، ويأمرون كل فوج بدفن الفوج السابق» [2].

فهذا الوصف يدل على فظاعة هذه الجريمة كما يدل على تأثر الكاتب بما جرى، وهو يعيد إلى الأذهان أن ما حدث في 8 ماي ليس جديدا بل وقع مثله في الماضي أيام الاحتلال الأولى وما تلاها، ويتفق الكاتب مع غيره في وصف ما حدث للنساء الجزائريات من انتهاك للحرمات وتقطيع للأوصال تقشعر أبداننا من هول ما ذكر: «وقطعت آذانهن من أجل الأقراط وأيديهن من أجل الخواتم وأرجلهن من أجل الخلاخل، وكان الجند يتباهى بتلك الغنائم ويتفاخر بالإحراز على أكبر عدد منها...» [3]. ويختم وصفه بما حدث من محاكمات

---

[1] ص: 178.

[2] ص: 177.

[3] ص: 178.

للوطنيين بالإعدام أو بالسجن المؤبد وبمدد مختلفة ويخرج بنتيجة مؤكدة وهي أن هذه «الحادثة» - كما يطلق عليها - كانت الأساس أو البداية لانطلاق ثورة نوفمبر 1954 ويبدو أن ما كان يعنيه هو التأثير قبل التحليل والإقناع للسبب الذي أشرنا إليه سابقا.

أما الكاتب الأخ محمد حربي [1] الذي تحدث هو الآخر عن هذه الانتفاضة فقد سار على نفس الدرب من حيث الحجم إذ كتب صفحتين وعذره أن كتابه عن جبهة التحرير والتطورات التي مرت بها ولكنه أوجز كثيرا في الموضوع لأن كتابة صدر في الثمانينات في عهد الحرية والاستقلال وتوفر المراجع عن هذه المأساة بالقياس إلى ما سبقه، فهي إذن تستحق صفحات أكثر وتحليلا أعمق لما أحاط بها من مختلف الجوانب إلى جانب أن الحديث عن دور «حزب الشعب» في هذه الانتفاضة لا يكفي.

والكاتب يرى أن الهيجان الذي صاحب تلك المظاهرات في سطيف وقالمة ساعد عليه تدخل الشرطة العنيف وسفك الدماء الذي لا يتناسب وحجمها وقد اتخذت بعض الأحداث: «التي أمكن حصرها لولا تدخل الشرطة غير المتناسب مع حجمها (شرطة الميليشيات

[1] محمد حربي – جبهة التحرير الوطني، الأسطورة والواقع ، ترجمة قيصر داغر- مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت 1983.

الأوروبية وشرطة الجيش الفرنسي) منحنى خطيرا وأعلن حزب الشعب الجزائري عن مقتل 45000 شخص لكن دون أن يحدد مصادره»[1].

والكاتب أطلق عليها صفة «الأحداث» ويكشف لنا عن الدوافع الحقيقية التي دفعت الفرنسيين بالدرجة الأولى والأوروبيين بالدرجة الثانية إلى ارتكاب ما ارتكبوه من إرهاب فضيع ضد السكان البسطاء.

وهناك نموذج ثالث من الباحثين الجزائريين[2] درس بالمشرق العربي وعاش فيه فترة واهتم بالتاريخ الجزائري وبالثورة التحريرية، كتابه تناول الموضوع في ثلاث صفحات وقد أطلق على هذه الانتفاضة مصطلح «مجزرة 8 ماي 1945» وهو يصف المظاهرات والقتل الجماعي واغتصاب النساء وبقر بطون الحبالى وذبح الأطفال والشيوخ، وهو يلتقي في هذا الوصف مع ما ذكره «أحمد توفيق المدني» ولكنه يضيف إليه شيئا آخر وهو أن الجنود الفرنسيين كانوا :«يوقفون بعض الجزائريين من سكان المدن في الساحات العامة ويبيدونهم بالرصاص ويجمعون بعضهم الآخر دون تمييز في السن والجنس داخل أكواخ خشبية ويشعلون النار فيها...»[3].

[1] ص: 37.

[2] أحمد الخطيب – الثورة الجزائرية – دار العلم للملايين- بيروت 1958.

[3] ص: 164.

بل يذهب إلى ابعد من هذا في وصف القتل الجماعي بطرق غاية في الوحشية لم يذكرها كتاب كثيرون أو لم يقفوا أمامها متأملين ومحليين ومقارنين بينها وبين وحشية النازيين والصهاينة ومدى تطابق بعضها مع بعض فهي تصدر عن نظرة عنصرية واحدة بصرف النظر عن الأصل الذي نشأت منه وعن الذين سلط عليهم هذا القمع، فالكاتب يذكر أن الجنود الفرنسيين: «كانوا يدخلون الشبان أفرانا شديدة الحرارة تخرج منها الجثة رمادا...» [1].

وإذا كان الكاتب لم يذكر أن بشاعة هذا تشبه ما ارتكبته النازية من جرائم كما أنه لم يذكر أن الفرنسيين استفادوا - في تعذيبهم للجزائريين - من الطرق الجهنمية للنازية، فإننا بقليل من التفكير نقارن بين ما وقع في الجزائر وما وقع أثناء الحرب الثانية من جرائم ضد الإنسانية ومازال العالم يتذكرها ويطارد مجرميها.

والجدير بالملاحظة أن وصف الخطيب للدمار الذي حل بالجزائريين في هذه المأساة هو من النوع الذي تقشعر له الأبدان حقا، وفيه تفصيل كثير غير ما ذكرنا فهو يقول مثلا: «إن الجنود الفرنسيين كانوا يرغمون الأهالي على الدخول إلى أكواخهم الطينية

---

[1] ص: 164.

المبنية باللبن ويوصدون الباب عليهم ثم تمر الدبابات الثقيلة على الأكواخ وتسحقها عمن فيها وتحيل الأرض عجينا من طين ودم...»[1].

لذلك لا نستغرب حين يذكر أيضا الأسطول الفرنسي نسف «خراطة» على أنه ينفرد وهو يتحدث عن هذه الانتفاضة بالقول بأن الفرنسيون واصلوا بعدها حملات على الجزائريين وفي مناطق مختلفة وتواريخ متتالية مثل عام 1947 في بلاد «القبائل» و1948 في «برقية» و«دشمية» وعام 1949 في دوار «سيدي علي بوناب» وحملة عام 1952 في منطقة «الأوراس» فضلا عن قتل كثير من المهاجرين بفرنسا سنة 1952 وحتى الثورة.

والواقع أن الباحث يختم وصفه للانتفاضة وما جاء بعدها حتى قيام الثورة بإلقاء المسؤولية على الفرنسيين وخاصة الشرطة التي تفننت في تعذيب الجزائريين وذلك في أسلوب مؤثر وينقل لنا ما حدث لشباب جزائري عام 1945 من تعذيب أثناء الاستنطاق (ولعل ذلك كان حين اكتشفت السلطات الاستعمارية المنظمة السرية لحزب الشعب الجزائري 1950) أقول يصور المؤلف أنواع التعذيب الذي تعرض له الفتى من استخدام الكهرباء والزجاج والكيّ بالنار إلى آخر ما عرفه الشعب الجزائري الثائر من أساليب التعذيب أثناء الثورة، ولكن

---

[1] ص: 164.

الجديد فيما فات ذكره المؤلف أن هذا الشاب الذي لم يذكر اسمه كان كلما تعرض لنوع من التعذيب وبعد أن يفرغ منه جلادوه يسأل: هل من طريقة أخرى؟؟ فيأتيه الجواب فورا بنعم... [1].

والرأي الذي استقر في ذهن الكاتب أن هذه الأعمال الوحشية تعتبر «إبادة جنس الجزائريين بقصد وعنصرية» [2] وحكمه هذا يتماشى مع ذكره وما سجله غيره من جرائم ارتكبها الفرنسيون في تلك المرحلة وفي تلك الواقعة التي أصبحت تعرف بالانتفاضة.

فيما يتعلق بحجم ما كتب نلحظه أيضا لدى الباحثين والكتاب العرب حتى لدى المتخصصين منهم في التاريخ الحديث والمعاصر مثل صلاح العقاد الذي ألف كتابا اسماه «الجزائر المعاصرة» [3] وهو عبارة عن محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة، إذ نجده أيضا قد كتب ثلاث صفحات عن هذا الموضوع واعتبر ما جرى: «انتفاضة» ولكن نسبها إلى قسنطينة أي إلى الناحية الشرقية من البلاد بل اعتبرها "ثورة وطنية" تعد أعظم انتفاضة شهدتها الجزائر بعد ركود طويل ساد البلاد منذ القضاء على حركة

---

[1] ص: 165.
[2] ص: 166.
[3] صلاح العقاد – الجزائر المعاصرة - معهد الدراسات العربية- القاهرة 1964.

المقراني [1]. ثم يصف المظاهرات في إيجاز ويجعل انطلاقتها إلى شتى أنحاء البلاد من «سطيف» ويرى أن تركيزها كان في الشمال القسنطيني كما تحدث عن هجوم الجزائريين على الأوروبيين مثلما حدث في بلاد القبائل على حد تعبيره. ويعرض الفرنسية سواء من الجيش بأسلحته الثلاثة أم من «الميليشيات» الفرنسية، كل هذه المطاردة للجزائريين بلا رقيب أو ضمير. وبالطبع لا ينسى الاعتقالات والمحاكمات الجزافية، وقد حدث هذا كله في عهد «ديغول» وبوجود ثلاثة وزراء شيوعيين في حكومته، كما أن: « الصحف الشيوعية نددت بحوادث قسنطينة وقالت أن الذين أثاروها هم أنصار النازية القدماء...» [2].

ويفهم من كلام الباحث أن هذه «الأحداث» هي من تدبير المستوطنين بقصد الانتقام من الزعماء الوطنيين ويبدو أن قناعته هذه استمدها من حكم الجزائريين الذين يشاركونه هذه النظرة وهذا التفسير، ولكنه يجعل هزيمة فرنسا وانكسارها أمام ألمانيا هو سبب قيام هذه المظاهرات وانتشارها في أنحاء كثيرة من الوطن بحيث: «بعثت في نفوس الجزائريين الهمة للعمل من أجل الاستقلال» [3]

---

[1] ص: 50.

[2] ص: 52.

[3] ص: 52.

وكذلك حسب رأيه ظهور الأمم المتحدة التي « روجت لمبدأ حق تقرير المصير». [1] بينما نجد غيره ممن سبقوه لم يعلل الأمر على هذا النحو مما يؤكد أن العقاد كان واعيا للظروف التي دفعت الجزائريين إلى مثل هذا الموقف. ثم أن باحثين آخرين كتبوا أقل من هؤلاء مثل الكاتب «بسام العسيلي» [2] الذي كتب نصف صفحة فقط رغم أن كتابه طبع سنة 1984، واعتبرها «مذبحة» كما أنه يعد سقوط هذا العدد الكبير من الشهداء الذي بلغ 45 ألف شخص «تحولا حاسما إذ أدرك الجزائريين أنه من المحال عليهم بلوغ أهدافهم إلا بواسطة الصراع المسلح» [3] لان الباحث اهتم بالثورة التحريرية أكثر من اهتمامه بغيرها.

هذه بعض النماذج من الكتابات العربية وهي كثيرة مشرقا ومغربا ولكنها لم تدرس من ناحية ولم تهتم بهذه الانتفاضة كما كنا نأمل من ناحية أخرى، وربما لهم عذرهم فنحن لم نقدم لهم المادة التي تساعدهم على التوسع والتفصيل، كذلك فإن هذه الكتب. كما سبق القول لم تؤلف أصلا للانتفاضة أو يعني أصحابها بها

---

[1] ص: 52.
[2] بسام العسلي – أيام جزائرية خالدة – دار النفائس- بيروت 1984.
[3] ص: 15.

بوصفها حدثا هاما بارزا في تاريخ الجزائر المعاصر وإنما جاءت الكتابة عنها - غالبا - في سياق الحديث عن الثورة ومرتكزاتها.

*****

وتماشيا مع المنهج الذي اخترته في تناول الموضوع لابد لي الحديث عن كتابات أجنبية عالمية حتى تكتمل الصورة نسبيا أو يمكن أن نرصد تصور الكتّاب ومدى اهتمامهم بالأمر ونظرة القريب والبعيد لهذه الانتفاضة.

ولا شك أن الفرنسيين كتبوا في الموضوع مؤلفات كما سجلوا آراءهم في بحوث أو صحف في قربها أو بعدها واعتبروها حوادث أو تمردا. والواقع أن كتاباتهم تستحق دراسة مستقلة لأن القضية تمسهم ولأنهم هم سبب هذه الكارثة التي حلت بالشعب الجزائري، ولكنني سأقتصر على باحث منهم وهو باحث جاد «جان كلود فاتان» الذي ألف كتابا عن الجزائر [1] تناول فيه هذه القضية في ثلاث صفحات ونصف وأطلق على هذه الإنتفاضة مصطلح

[1] **L'ALGERIE politique, histoire et socété_ Gean CLAUDE VATIN_presse de fondation nationale des sciences politiques_ France_ 1983.**

«الفتنة L'emeute de 1945» وليس فيها جديد سوى ما يتعلق بوجدان الشعب الجزائري وهذا ما لم يهتم به غيره من الباحثين السابقين فقد رأى أن هذا الحدث قد أعاد

«ميثولوجيا المناضلين القدامى»[1] فهو يقول أنه قد عادت من جديد هذه الروح المقاومة بعد ماي فظهرت القصائد الشعبية والأغاني الوطنية والحكايات التي انتعشت بسبب هذه الأحداث، وهو يقول أن النصوص التي استخدمها الوطنيون كان منبعها هذا الماضي وكانت تؤكد على أن الجزائر المعاصرة تملك قوافل من الشهداء[2] ويستطرد قائلا بالنص: «ومن خلال كل النصوص المهمة التي استخدمها التيار الوطني لا نعدم هذا المنبع ابتداء من«حركة انتصار الحريات الديمقراطية» في منشوراتها ووثائقها وقصاصاتها وفي حملاتها وحتى اليوم أيضا فلم ينقطع استيحاء هذه النماذج»[3] وهذا ملحوظ كما يقول حتى في أحاديث الوطنيين وصحفهم لأن الكفاح الوطني قد اتخذ صورة جديدة على حد تعبيره. ولا شك أن آراء هذا الباحث تحتاج إلى مناقشة الباحثين عندنا والمتخصصين في تاريخ الجزائر المعاصر.

---

[1] ص: 278.

[2] ص: 278.

[3] ص: 279.

وقد اهتم باحثون آخرون - أوروبيون وأمريكيون - بهذا الموضوع ضمن الحديث عن أقطار عربية أو في سياق الكلام عن الجزائر وثورة نوفمبر. ففي الاتحاد السوفييتي صدر كتاب عام 1975 يؤرخ للأقطار العربية أصدرته أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي بعنوان «تاريخ الأقطار العربية المعاصر[1] وشارك في تأليفه مجموعة من الباحثين وعلى رأسهم فوبليكوف، وقد خصص في الجزء الثاني منه فصلا للجزائر كذلك فإن الحديث عن 8 ماي يأتي في سياق الأحداث التي مرت بها الجزائر كذلك نجد أن عدد الصفحات لا يزيد عن اثنين، المهم أن الكتاب يصف المظاهرات بأنها كانت غير محضرة أو منظمة ويوعز ما جرى إلى استفزاز رجال الشرطة الفرنسيين في مدينة «سطيف» وكذلك في «قالمة» عندما أطلقوا النار على المتظاهرين مما دفع الجزائريين إلى الهجوم على مزارع «الكولون» وعلى خطوط الموصلات التي شارك فيها خمسون (50) ألف جزائري.

ولا نجد مصدرا اعتمد عليه الكاتب في تحديد عدد هؤلاء الفلاحين فإذا كان يحدد عدد الضحايا كما ذكره الباحثون

---

[1] تاريخ الأقطار العربية المعاصر - تأليف جماعة من المؤرخين - طبع في الاتحاد السوفييتي وترجمته دار التقدم إلى العربية – الجزء الثاني 1976.

الجزائريون وربما أكثر فإنه لا يحلل الدوافع الأخرى التي دفعت بالجزائريين إلى القيام بهذه المظاهرات، غير أن هناك شيئا جديدا من حيث أنواع القوات الفرنسية وغير الفرنسية التي شاركت في تقتيل الجزائريين أثناء هذه الانتفاضة كما جاء وصفها بالكتاب: «أغرق المستعمرون هذه الانتفاضة بالدم بعد أن أنزلوا في شرق البلاد قوات كبيرة من الجيش (قبل كل شيء من عتاة المجرمين في الفرقة الأجنبية) والطيران والأسطول والبوليس كما قاموا بتسليح أسرى الحرب الإيطاليين واستشهد أكثر من 45 ألف جزائري... [1] فضلا عن الاعتقالات والمحاكمات بما فيها الإعدام كما عرض له الكتاب الآخرون.

وربما تكون هناك مؤلفات أخرى فيما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي أو البلدان التي كانت تدور في فلكه، أقول ربما تكون هناك كتابات أخرى عرضت لهذه الانتفاضة ولكننا لا نعرف عنها شيئا حتى الآن لأسباب كثيرة أولها وأهمها إهمالنا لتراث هذه الانتفاضة.

---

[1] ص: 337.

ومن الكتب الهامة التي كتبت في الموضوع كتاب «حرب وحشية من أجل السلام» A Savage war of peace [1] الذي ألفه «اليستر هورن» وهو كاتب إنجليزي اهتم بثورة الجزائر واهتم أيضا بالانتفاضة وإن لم يطلق عليها وصفا خاصا ولكنه تحدث عنها من خلال «سطيف» التي ركز عليها بشكل واضح، بوصف جدرانها التي انتشرت عليها آنذاك شعارات مثل: «المسلمون يستيقظون» أو «سترفع الراية الإسلامية فوق شمال إفريقيا» أو أخرى فيها تهديد مثل: «أيها الفرنسيون سيذبحكم المسلمون» ويقول: «فمنذ أفريل انتشرت شائعات تقول بأن هناك تمردا عاما سيحدث في الجزائر ويصحبه تخريب واسع الانتشار والمسؤول عن هذا هو «حزب الشعب» ولهذا نفي مصالي الحاج إلى برازافيل» [2].

وإذا كان الكاتب يوعز الأمر إلى تأثير حزب الشعب وإلى العامل السياسي الذي عبرت عنه الشعارات فإنه لم يهمل العامل الاقتصادي بحيث انتشرت المجاعة حتى أن الكاتب الفرنسي «ألبير كامي» عبر عنها في كتاباته [3].

---

[1] A Savage war of peace- ALGERIA 1945/1962; MACMILLAN; LONDON; 1977

[2] ص: 24.

[3] ص: 24.

كذلك فإن الكاتب وهذا من الأشياء الجديدة التي ذكرها مثلما ذكر غيرها، يسجل شعارات المتظاهرين التي تقول: «يحيا مصالي» «من أجل حرية الشعب» «تحيا الجزائر حرة مستقلة» و«لأول مرة يحمل العلم الأبيض والأخضر الذي كان رمز الرايات التي حملها البطل الأسطوري عبد القادر...»[1] ثم يذكر أسماء بعينها من المسؤولين الفرنسيين الذين شاركوا وقادوا الحملات ضد الجزائريين ويعزو حماس المتظاهرين إلى الزغاريد التي كانت تطلقها النساء فكانت تتردد كلمة «الجهاد المقدس» "Holy War" أثناء هذه المظاهرات في «سطيف».

وحين يناقش عدد الضحايا فإنه يذكر تقديرات دار حولها الجدل كما يسجل آراء مختلفة منها رأي «الحبيب بورقيبة» الذي اعتبر الضحايا 50 ألف شخص وبعد أن يشير إلى آراء بعض الجزائريين وتعليقهم على الحدث يورد نصا لباحث آخر هو «إدوارد بهر» يقول فيه: «إنه من الصعب وصف ما حدث إنه شيء ترك بصماته - بصورة أو بأخرى - على كل جزائري مسلم حي في ذلك الوقت وكل واحد من الموجة الجديدة للوطنيين الجزائريين المنخرطين في جبهة التحرير اليوم يعود تصميمهم على الثورة إلى ماي 1945، كل

[1] ص: **25**.

واحد منهم أحس بعد ماي 1945 أن نوعا من الثورة المسلحة سيكون ضروريا آجلا أو عاجلا...»[1].

فالكاتب يرى مثل كثيرين غيره أن هذه الانتفاضة هي بداية النهاية للاستعمار وأن ثورة نوفمبر تعود جذورها إلى هذا اليوم، ويحلل بعض العوامل التي ساعدت على وحشية الفرنسيين، .وهو يذكرهم بوصفهم أوروبيين، كما فعل آخرون، فهل هذا مراعاة لحساسية الفرنسيين أم أنه نظر إلى المستوطنين باعتبارهم كانوا خليطا من أجناس مختلفة؟؟!

وهو يلقي اللوم فيما حدث على هؤلاء «المتعصبين» وأن رد فعلهم كان تحت تأثير الصدمة الممزوجة بالخوف يمثل مقاييس أبعد في «الوحشية» "Draconian" وهذا يشكك في جدوى أي إصلاح والدليل على ذلك ما نقله عن صحيفة «صدى الجزائر» آنذاك، وهي لسان حال المعمرين بغرب الجزائر جاء فيها ما نصه: «حينما يحترق المنزل وحينما تكون السفينة على وشك الغرق لا يستطيع المرء أن يطلب شركة التأمين أو أستاذ الرقص، فبالمناسبة للمنزل المطلوب

[1] ص: **28**.

رجل المطافئ وبالنسبة للسفينة المطلوب زورق النجاة، أما بالنسبة لشمال أفريقيا فإنها ساعة رجال الدرك»[1].

فعقلية المستوطنين لا ترى إلا القوة سبيلا لقمع أبناء شمال إفريقيا وهم لا يتعظون بالتجربة ولا بالتاريخ بل ولا بنصح بعض المسؤولين الفرنسيين فهذا الكاتب يورد نصا من تقرير الجنرال الفرنسي «د.دوفال» وكان مسؤولا عن الدرك في الجزائر وأسهم في إخماد الانتفاضة وخاصة في «سطيف» يرسل تقريره إلى باريس محذرا من المستقبل جاء فيه: «لقد منحتكم السلام لمدة عشر سنوات لكن لا تخدعوا الآن أنفسكم...»[2].

والكاتب الإنجليزي هورن يدرك تماما أن القضاء على الانتفاضة لم يتحقق لأنه ألف كتابه المشار إليه آنفا عن ثورة نوفمبر، لذلك علق على رأي «دوفال» وأمثاله ممن انخدعوا بالمظاهر بعد الانتفاضة فيقول: «في الحقيقة أن هذا السلم «المقلق» " **Brecarious peace**" كان عليه أن يستمر تسع سنوات أخرى ونصف ولكن الحقيقة أن الحلقات الأولى اندلعت في سطيف فوضعت اللبنات الأولى لحرب الجزائر»[3].

[1] ص: 28.
[2] ص: 28.
[3] ص: 28.

والملاحظة أن الكاتب كما سبق القول ركز على مدينة «سطيف» وإن أشار إلى غيرها فهل وجد مراجع لما حدث فيها دون المدن الأخرى التي تفجرت فيها الأحداث؟؟ لا ندري بالضبط سبب اهتمامه الخاص بهذه المدينة، والملاحظة أيضا أنه كتب ست صفحات كاملة عن الموضوع وعرض لقضايا تحتاج إلى تفصيل فضلا عن الجديد في آرائه وعرضه وتحليله العميق والشواهد التي استند عليها وأكد بهام اذهب إليه من أحكام.

*****

وإلى جانب هؤلاء الكتاب والمؤرخين الأوروبيين نجد كتابا أمريكيين لفت انتباههم هذا الموضوع في سياق حديثهم عن الثورة نوفمبر التي هي بالطبع محور كثير من الكتابات المعاصرة عن الجزائر شرقا وغربا.ومن الصعب أن أصدر حكما على مستوى هذه الكتابات شأني في ذلك شأن ما عرضت لغيرهم فهذا من اختصاص المعنيين بالأمر، كما أن المراجع التي توجد بمكتبتي لا تعطي صورة كاملة عن اهتمامهم بهذه الانتفاضة لأن منهم من أشار إليها في الهامش واعتمد فيما كتبه على هذه المصادر. وبالإطلاع المتأني على هذه المؤلفات يمكن معرفة أصحابها وتحليلهم وتفسيرهم لما أحاط الموضوع من ظروف وما نتج عنه من تغيير لمسار الحركة الوطنية فيما

بعد. فالباحثة الأمريكية «جون جليسبي» في كتابها " ثورة الجزائر" [1] قد عرضت للموضوع في ثلاث صفحات كما أنها تطلق على هذه الانتفاضة مصطلح «ثورة 1945» وتذكر أنها اعتمدت في كتابها على بحث لم ينشر للكاتب «مانفريد هالبون» وعنوانه «الفرنسيون في الجزائر من 1944، 1948».

وهذه الكاتبة سردت الوقائع التي باتت معروفة كما تحدثت عن القمع الذي عم البلاد أثناء هذه «الثورة» كما أنها اعتمدت أيضا على ما نشرته «المجاهد» أثناء الثورة وتحديدا سنة 1958، ولعل إضافتها عمن سبقها أنها تحدثت عن إيقاف اللجنة الفرنسية التي كلفت بتقصي الأمر وفي النهاية تصل إلى حكم أجمع عليه المهتمون بتاريخ الجزائر المعاصر فتقول: « تحدد ثورة 1945 نقطة تحول في تاريخ الجزائر لكل من المستوطنين والمسلمين، فكانت بالنسبة للمستوطنين قمة البربرية التي كانوا دائما يصفون بها المسلمين، كما كانت تجربة خانقة مخيفة، وكانت في الوقت نفسه بداية تناقص قوتهم» [2].

---

[1] ثورة الجزائر – جوان جليسبي – ترجمة عبد الرحمن أبو طالب – الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1966 (وقد صدر في واشنطن أولا سنة 1959).

[2] ص: 79.

وعلى كل فأن كتابها مثل الكتب الأخرى انصب الحديث فيه على الثورة أساسا.

والأمر نفسه نجده في كتاب «الجزائر الثائرة»[1] حيث نجد أن الموضوع قد أخذ صفحة ونصف صفحة والجديد فيه هو ذكر اسم «الطراد الفرنسي» الذي ضرب خراطة بالمدافع واسمه «ديجواي تراون» "Duguay TROUIN". كما جاءت الاشارة إلى توقف لجنة فرنسية للتحقيق بعد بدء عملها بـ48 ساعة بأمر من الحكومة الفرنسية ويعلل المؤلفان ذلك بالقول: «ولعل ما حدا بالحكومة إلى إصدار أوامرها للجنة على هذا النحو ما أثبتته من أن جماعات المزارعين الفرنسيين (أي المعمرين) كانوا يعطون أنفسهم حق محاكمة الوطنيين وإعدامهم رميا بالرصاص أو ما جمعته اللجنة من معلومات عن عدد القتلى من الوطنيين...»[2].

كذلك فإن المؤلفين يعرضان لعدد الشهداء من الجزائريين وعدد القتلى من الأوروبيين والخلاف بين المصادر الفرنسية والجزائرية

---

[1] الجزائر الثائرة – كوليت وفرنسيس جانسون – ترجمة وإصدار دار الهلال- القاهرة 1957

[2] ص: 58.

في ذلك ويؤكدان أن عدد الموتى من الجزائريين يبلغ أربعين ألف، وهذا ما أيده القنصل الأمريكي بيانات من عنده [1].

وهما يعتبران هذه المأساة قد عمقت الهوة بين الجزائريين وبين الفرنسيين والجديد فيما ذكراه أن «هناك منشورات صدرت باسم الرأي العام الفرنسي تطالب بإعدام متزعمي الحركة الثورية» [2]، وتطالب أيضا: «بعزل الحاكم العام العسكري وإبداله بحاكم مدني تكون له السلطات الكافية لسن سياسية حازمة تدرأ الخطر عن السيادة الفرنسية [3]، وهذا ما يؤكده باحث جاد آخر وهو أمريكي أيضا وقد عرض للموضوع بإسهاب وسنعرض له فيما بعد».

قلت إن هذا الرأي يعتبر جديرا بالقياس إلى الكتابات التي سبق عرضها. فالإشارة إلى الإجماع في الرأي العام الفرنسي ومطالبته بإعدام الزعماء الوطنيين لم نلحظه لدى الباحثين السابقين بحيث أن القتل الجماعي لم يكف هؤلاء ولم يشف غليلهم فلابد من القضاء نهائيا على الوطنيين وزعماء الحركة الوطنية. فغالبا ما كانت التهمة توجه إلى المستوطنين المقيمين في الجزائر وينسى الباحثون أو يتناسون

---

[1] ص: 58.

[2] ص: 59.

[3] ص: 59.

«الرأي العام الفرنسي» خوفا من ردود الفعل أو هروبا من المواجهة أو سعيا لتبرئة أولئك الذين يحركون الأحداث من بعيد.

والكتاب الهام الذي أشرت إليه آنفا والذي درس الفترة بتوسع أكثر من غيره هو «رهان الفرنسيين على الجزائر» لمؤلفه «توني سميث»[1]، The frensh stak in ALGERIA 1945/1962 وهو كتاب جدير بالترجمة إلى العربية لأهميته وتركيزه على الموضوع وعلى الفترة الزمنية التي حددها في عنوان كتابه أي من الانتفاضة إلى الاستقلال وتبلغ صفحاته المائتين. وميزة الكتاب فوق أنه اهتم بهذه الفترة ابتداء من 8 ماي فإنه أسهب في تحليل الأحداث وعني بالجوانب النفسية والسياسية والاجتماعية والعسكرية وأوجز في الوصف مما يجعل من الكتاب دراسة جدية لمختلف العناصر التي أسهمت في تكوين نفسية معينة لدى الفرنسيين آنذاك بل وهذه النفسية صاحبتهم منذ احتلالهم للجزائر حتى خروجهم منها.

وحين يعرض للجرائم التي ارتكبها الفرنسيون والإبادة الجماعية فإنه ينسبها إليهم لا إلى الأوروبيين - كما فعل بعضهم - لأنه في تقديري يريد أن يحدد بوضوح مسؤولية ما حدث في الانتفاضة

---

[1] **The frenk stak in ALGRIA 1945/19628 Tony SMITH6 Cornell university press- (1)New York 1978**

من مذابح وما نتج عنها، وكما ذكرت فإن الذين يعيشون بعيدا عن الأحداث من الأجانب أقدر على فهمها والتعمق فيها وتحليلها بموضوعية أو حيادية نسبيا، لأن المصلحة هنا لا تكون هي الدافع للكتابة بل تكون هناك أشياء أخرى هي النطق والمحرك. ولكي نفهم ما يعنيه المؤلف - الذي هو أستاذ في السياسة بالجامعات الأمريكية ومؤلف له شهرته في بلده - برهان الفرنسيين على الجزائر كما جاء في عنوان الكتاب علينا إن نبدأ من البداية التي ارتكز عليها الباحث فهو يبدأ من تحليل سياسي عميق لظاهرة الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر وخاصة في السنوات الأخيرة بعد هزيمة فرنسا أمام الألمان أثناء الحرب الثانية وربط هذه الهزيمة ربطا محكما بما حدث في 8 ماي 1945 التي تعد في نظره «انتفاضة أو انفجار» "Out Break" والتي تمثل خطوة جديدة وخاصة في صراع الجزائر مع فرنسا.

وفي الفصل الثاني من الكتاب [1] يبدأ بعرض لبيان الذي أذاعه «ديغول» على الشعب الفرنسي المهزوم محاولا أن يبعث فيه الروح الوطنية وذلك بالإلحاح على ماضي فرنسا واتساع إمبراطوريتها وهدفه من ذلك هو بث الأمل وطرد اليأس من نفوسهم. وهذا هو دأبه في

---

[1] ص: 43.

خطبه كلها أثناء الحرب. ومن هذه النقطة ينطلق الباحث الأمريكي إلى سبر أغوار النفسية الفرنسية والهواجس التي كانت تحرك الفرنسيين وتتحكم في مواقفهم وتصرفاتهم، الأمر الذي يؤكد رهانهم أو تشبثهم بالجزائر والبقاء فيها قبل الحرب العالمية الثانية أم بعدها، وهذا يفسر أيضا استماتتهم في الإبقاء على المستعمرات التي هي امتداد لفرنسا وإمبراطوريتها والتي من خلالها تعبر فرنسا من حاضر داخلي منهار إلى مستقبل جديد تشارك به في اقتسام النفوذ في العالم بين أمريكا وروسيا آنذاك وألا تكون مجرد حلقة تدور في فلك أمريكا، يريد لبلاده أن تلعب دورا بارزا وأن تكون صوتا متفردا متميزا في العالم ما بعد الحرب.

هكذا يحلل المؤلف هذه النفسية وهذه «العقد» التي تتحكم في السلطة الفرنسية وفي «ديغول» نفسه ويقول أن هذا يظهر في المؤتمرات التي عقدت عقب الحرب في سان فرانسيسكو» وفي غيرها، إذ كانت فرنسا لا تعطي ضمانات للهيئات الدولية بخصوص المستعمرات الفرنسية لأنها - كما يقول المؤلف - تعتبر مسألة كرامة بالنسبة لها، وعلى «إمبراطوريتها» أن تستمر قائمة خلف البحر، لأنها تمثل في الأعماق وفي لاشعور الفرنسيين - ساسة

وأفرادا- « مسألة حاجات روحية لفرنسا».[1] Spritual psychology of the kanquished.

وهذا الإحساس بالهزيمة من ناحية والشعور بعظمة الإمبراطورية من ناحية أخرى، عبر عنه كتاب وأدباء وساسة ومثقفون فرنسيون مثل «مالرو» الذي قال «لقد تزوجت بفرنسا» وكذلك «كامي» و«سيمون ويل» وغيرهما ممن تغنوا بهذه العظمة[2].

فالمؤلف إذن يعتمد في تحليله لما حدث في الانتفاضة وما وقع فيها من مجازر، على هذا الإحساس والشعور بالمرارة التي توغلت في النفسية الفرنسيين في تلك الفترة فهو يذكر:

«من الهزيمة ومن الإهانة ولدت قومية الانبعاث وإرادة العمل والتضحية وهي مرتبطة بالثقة في أن فرنسا ستخرج من المحنة متجددة ملتحمة في النهاية مع مجتمع دولي موحد، مطهرة من اللعنة الشريرة، من عدم الثقة بالنفس، من اليأس خلال سنوات ما قبل الحرب، قادرة على أن تتجه إلى المستقبل بعزم جديد ثابت، كانت هذه المقاومة بقيادة «ديغول» وحدها هي التي مكنت لهذه المشاعر، مشاعر الفخر والكبرياء أن تترسخ»[3].

---

[1] ص: 45.

[2] ص: 45.

[3] ص: 46.

فهذا الأستاذ الجامعي الذي يوغل في تحليل هذه النفسية التي طغت على شعور الفرنسيين لا يستخلصها من تأمله أو من ثقافته الخاصة ولكنه يستند فيها إلى كتابات الفرنسيين و«ديغول» بالخصوص وكلها تصب في مجرى واحد هو التعويض عن هذه الهزيمة والحث على الشعور بالعظمة كما جاء في مذكرات ديغول: «فرنسا لا يمكن أن تكون فرنسا بدون عظمتها»[1]. ويستطرد الكاتب في تحليله لهذه النفسية مؤكدا على عمق الجرح وعلى اتساع الشرخ الذي أصاب هذه النفسية فيذكر ما نصه: «... لكن حسب حتمية التراجيديا الإغريقية فإن هذه الرغبة الجامحة لانبعاث الأمة وجدت طوفانها المأساوي في مبالغتها في القوة وكانت كلمات ديغول الحاسمة التي زادت من حدة الكارثة»[2].

فرجل فرنسا - كما يطلق عليه - كان ينفخ في جسم مريض مثخن بالطعنات، فتحول هذا النفخ إلى ادعاء وغرور انجرت عنها كوارث عدة:« في أوربا، في إفريقيا، في آسيا حيث عانت فرنسا من انهيار لم يسبق أن عرفته من قبل. هناك شفاء مدهش وتوافق

---

[1] ص: 47.

[2] ص: 47.

لمجموعة من الظروف مما أعطاها الفرصة كي تلعب دورا ينسجم مع عبقريتها»[1].

من هذا العرض والتحليل يصل المؤلف إلى حكم مفاده أن «ديغول» بتصوره هذا ومبالغته في دور فرنسا وعظمتها، هذا التصور جعله يخطئ سياسته تجاه المستعمرات سواء في الهند الصينية أم في الجزائر، وهو السبب نفسه الذي أدى إلى ما عرف بانتفاضة 8 ماي 1945 وما وقع فيها من جرائم بشعة ارتكبها الفرنسيون تحت كابوس الهزيمة من جهة والإحساس بالعظمة الكاذبة من ناحية أخرى، إذن فإن هذا الباحث ينظر إلى الموضوع من زاوية هامة وليس فقط من الخارج، وأيضا يحكم بأن ردود أفعال الفرنسيين لم تكن متسرعة ولا تلقائية كما حكم البعض ولكنها انبعثت من هذا «المركب المزدوج للنقص» إن صح التعبير، وبالطبع فإن المؤلف يصف الهجوم على الجزائريين وقتلهم بهذه الوحشية بتفصيل أكثر من غيره لأن جزءا كبيرا من كتابه كان عن هذه الانتفاضة.

وإذا نظرنا إلى ما سبق من تحليل فإننا نعتبره جديدا بالقياس إلى ما كتبه غيره وتحليله للوحشية الظاهرة للعيان من جانب الفرنسيين يعد مهما لأنه يصدر عن شخص محايد فهو يرى:« أن مظهر

---

[1] ص: 47.

الاستجابة الفرنسية التي تستقي من معظم التعليقات تتمثل في الوحشية التي لا حدود لها ولا قيود والمرتبطة ارتباطا وثيقا بالإيمان الراسخ بأن أية إشارة للتردد أو أي نوع من الرحمة يمكن أن يفسر على أنه ضعف وبالتالي يشجع الانتفاضة على الانتشار»[1].

على أن الباحث لا يكتفي بهذا التفسير والتحليل لما حدث بل إنه ينظر إلى هذا من خلال الحالة النفسية التي تحرك غريزة الوحشية في نفوس القوات الفرنسية وليس هذا وحده ولكن أيضا يضاف إليه نظرة الفرنسيين على اختلاف اتجاهاتهم إلى الجزائر وما تمثله لهم من مركز مرموق، دفعهم أيضا إلى الإمعان في الوحشية بحيث اتحد اليمين واليسار الفرنسيان على ضرب الجزائر على حد تعبيره: «لكن القاسم المشترك لمعظم دوائر الرأي العام الأوروبي من اليسار إلى اليمين في فرنسا كما في الجزائر، أن السلطة الفرنسية يجب ألا تكون مترددة أو متخاذلة. والموقف نفسه كان واضحا في مناسبات أخرى وفي فترات سابقة لكن انبعاثه سنة 1945 كانت له أسبابه المرتبطة مباشرة بالفترة المعاصرة، وفي الواقع هذا التصميم سيكون أحد الأهداف الثابتة لسياسة فرنسا في مواجهة الثورة، ثورة نوفمبر...»[2].

---

[1] ص: 114/113.

[2] ص: 114.

إذن فالموقف واحد تجاه الانتفاضة كما هو الأمر تجاه ثورة نوفمبر فيما بعد وتم هذا في عهد «ديغول» في المرتين معا، وأهميته تحليل هذا الباحث لما أحاط بانتفاضة 8 ماي هو أنه عكس الباحثين الآخرين يحاول الإجابة عن السؤال: لماذا حدث هذا؟؟ لا، ماذا حدث؟؟ يريد أن يعلل للمبالغة في القسوة من فرنسا التي وصلت إلى أوج التوحش(!!) ومن وجهة نظره - وهو صادق وموضوعي فيما يذهب إليه - فإن تشبث فرنسا ورهانها المستميت على الجزائر **Stake** في تلك المرحلة ولا حتى الاستقلال فضلا عما سبق فقد كان أيضا الدافع إليه اقتصاديا وأخلاقيا، استراتيجيا ونفسيا. والكاتب يعالج هذه العناصر كلها واحد واحد وبتفصيل لا يسمح المقام بعرضه بصورة مفصلة.

كذلك فإنه ينتهي في تحليله إلى حكم هام وهو أن ما أنهى النظام الاستعماري في الجزائر ليس طول مدة الوجود الفرنسي ولا تغيير النظام السياسي في فرنسا ذاتها بل نوع هذا الاستعمار وما أطلق عليه «الإجماع الاستعماري» **"Colonial Consenus"** فهو الذي كان السبب في مجازر 8 ماي التي ارتكبها الفرنسيون بحيث ظهرت هذه الشراسة أثناء هذه الانتفاضة وهو أيضا ناتج عن نظرة «النخبة» الفرنسية إلى فرنسا من جهة وإلى الجزائريين من جهة أخرى وخاصة موقع الجزائر في الخارطة بالنسبة لمستقبل فرنسا. ويؤكد هذه

الفكرة بقوله: «أن طموح فرنسا بعد الحرب العالمية كان منصبا على استعادة «الهيمنة» على الجزائر وإعطاء الحق للحكم الفرنسي كما كان في القرن السابق بالنسبة للسكان المسلمين. وكان من الصعب بالتأكيد أن نرى كيف أن التاريخ قد ابتكر مبررا أخلاقيا لفرنسا كي تصبح هي السلطة السياسية الحاكمة هناك ونحن في انتقادنا لهذا الطموح الفرنسي نعتمد على أسباب عملية تستند على شخصية النظام الفرنسي في الجزائر وارتباط ذلك بالتطورات في السياسة الدولية حتى بات من المشكوك فيه أن ما قدم من مبررات سواء كان شرعيا أم لا يستحق أن يستمر هذا الحكم بنجاح بعد 1945...»[1].

ومن هذا النقد للسياسة الفرنسية أثناء هذه الانتفاضة ندرك أن المؤلف غير مقتنع بالحجج الفرنسية المختلفة (ومنها الأخلاقية) يؤكد هذا ما ذكره من إجماع ومن موقف عام مقصود وليس عشوائيا أو مفاجئا تجاه الانتفاضة. فالرد على المظاهرات كان خطة مدبرة عن عمد لذلك يلقي المؤلف بالمسؤولية على عاتق فرنسا فيما ارتكب من جرائم، لأنه غير مقتنع بالمبررات الفرنسية وخاصة تلك التي حاولت بها فرنسا أن تقنع المجتمع الدولي بدورها الحضاري في الجزائر لأن الواقع كذّب هذا الإدعاء!!

---

[1] ص: 114.

ويحس القارئ للكتاب أن المؤلف يبدأ من هذه الانتفاضة ويوغل في الأحداث بعدها وأثناء الثورة وما حدث من تطورات وأحداث وموقف الوطنيين الجزائريين أو يتحدث عن الشخصيات الجزائرية الموالية لفرنسا وأبطال المقاومة الجزائرية عبر التاريخ ولكنه دائما يعود إلى هذه الانتفاضة ويربط بينها وبين تاريخ الجزائر المعاصر فكأنها المحور الأساس في الكتاب بكامله.

*****

وخلاصة القول أن هذه النماذج التي عرضت لها باختصار تعطينا فكرة عن اهتمام الدارسين بانتفاضة 8 ماي 1945 من ناحية، وتبرز وجهات نظر مختلفة من ناحية ثانية، كما تعطينا صورة عن طريقة المعالجة للموضوع ورغم هذه الجهود الطيبة فإن هذه الانتفاضة مازالت في حاجة إلى تحليل أكثر وتفصيل يسهم في وعي الجماهير ويصحح الأخطاء التي ارتكبها بعض المؤرخين، عن قصد أو غير قصد.

وأغتنم هذه المناسبة لأقدم بعض الاقتراحات التي تسهم في الكشف عن الملابسات التي أحاطت بهذه الانتفاضة:

أولا: جمع التراث الذي يتصل بانتفاضة 8 ماي 1945 وخاصة ما كتبه الباحثون العرب في شتى أقطار الأمة العربية أو الأجانب في شتى أنحاء العالم وبمختلف اللغات.

ثانيا: دراسته ومقارنة بعضه ببعض واستخلاص النتائج ومعرفة وجهات النظر بصورة تخدم تاريخنا الوطني.

ثالثا: ربط التراث بالحلقات الكثيرة في نضال شعبنا منذ الاحتلال خدمة للتراث الوطني والعربي والإنساني.

رابعا: كتابة موسوعة كبرى عن تاريخنا الحديث والمعاصر خدمة للأجيال وللذاكرة الوطنية.

خامسا: تكوين لجان من الباحثين الشباب في المناطق التي وقعت فيها هذه الأحداث ولتمكن البداية من مدينة «سطيف» المناضلة.

وبعد:

فإذا كانت أمريكا اليوم تبحث عن شظية أو قلامة ظفر أو تجري وراء قصاصة صغيرة من قميص حتى ليبيا الشقيقة في قضية «لوكربي» فلماذا نقول نحن اليوم في الشواهد الحية التي تعيش بيننا وشاءت لها الأقدار أن تنجو من وحشية فرنسا أثناء الانتفاضة، أليس من حقنا أن نطالبها بالتعويض وأن ندعو إلى محاكمتها دوليا

وتسليمنا المجرمين الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية ومازالوا يتابعوهن في الغرب حتى الآن؟؟!

وما اهتمامنا في هذا الملتقى السنوي بهذه الانتفاضة إلا عودة إلى التاريخ والبحث عن الحقيقة التي هي هدف المنصفين والوطنيين ورجال الفكر الأحرار وأيضا تذكير للأجيال حتى لا تنسى ماضيها وهو جزء من وجودها وحياتها ومستقبلها.

جريدة «الشعب» ماي 1992.

الإنسان ومنابع الثورة*

حين يكتب المرء تحت عنوان هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات وقبل الاستقلال، حين يكتب عن الإنسان الجزائري في فترة الغليان الثوري وفي عنفوان الثورة، حين يصور نماذج من أفراد الشعب اصطحبوا بنار الحرب وناضلوا في ظل ظروف قاسية صعبة، حين يفعل هذا منذ زمن مضى، وحين يريد ذلك اليوم فماذا يحس من فرق بين الأمس واليوم، وكيف يشعر الآن وقد تحقق الاستقلال؟

لا شك أن هذه تجربة تعرض لها الكثير من الكتاب الجزائريين الذين لا يكتبون للمناسبة ولا يجرون وراء الأحداث اليومية العابرة وإنما يبحثون عن أعماق الأحداث وعن الدوافع الحقيقية التي تحرك الإنسان كي يقوم بفعل ما ويقارنون بين فترة وأخرى، بين إنسان الأمس وإنسان اليوم، بل بين الإنسان الذي عاش الأمس وبينه وهو يعيش الحاضر، كيف ينظر إلى التاريخ؟ كيف يعيشه حاضرا؟ وكيف أسهم في صنع الحاضر؟

هذه الخواطر جالت بنفسي وأنا بين نماذج من المجاهدين الذي عاشوا الثورة، وهم يعيشون اليوم حياة جديدة، جالت بذهني مثل هذه

* هذا المقال نشر بجريدة المجاهد الأسبوعية عدد725 بتاريخ 7 جويلية 1974

الأفكار وأنا أمام بعض الآثار التي تركتها الحرب بل وأمام بعض الأدوات التي صنعها إنسان الثورة بحكم الحاجة وبدافع نبيل هو دافع الشوق إلى الحرية والاستقلال.

لقد أتيح لي أن أفكر في هذا منذ سنة تقريبا حين ذهبت إلى شمال الوطن، ولم أكن أعرف هذه المنطقة من قبل، وأسعدني الحظ أن ألتقي ببعض من عاشوا الثورة في تلك المنطقة التي تمتاز بجمال الطبيعة وجمال الإنسان، وقفت مبهورا أمام هذه الطبيعة الساحرة التي تجمع بين الجبال الشامخة وبين البحر الهائج المتوثب الأمواج، ولكن قبل هذه وتلك التقيت بالإنسان الجزائري النبيل في جيجل والطاهير وسيدي عبد العزيز وفي ميلة والمليلية وغيرها من الأماكن التي كنت أسمع عنها أيام الثورة، أيام 20 أوت 1955، حين كانت المعارك الضارية التي قادها أبطال ثورة نوفمبر العظيمة.

إنّ هذه المنطقة - رغم فقرها - غنية بالإنسان الذي يتمتع بصلابة نادرة وبوعي واضح وبحس عربي ملحوظ، ويختزن في حافظته ذكريات كثيرة عن الثورة وعن أيامها وعن الأشخاص الذين لعبوا دورا بارزا فيها خاصة في هذه الناحية.

وقد سعيت إلى التعرف على بعض ما كنت أتوقع أن أجده في منطقة تمتاز بالجمال في كل شيء كما ذكرت، سعيت إلى أن ألتقي

بمن يهتم بالشعر والفن ولكنني لم أعثر على شيء من ذلك وتعجبت، كيف لا يوجد شعراء وقصاصون شعبيون أو غير شعبيين يسجلون أحداث الثورة أو يعبرون عن ذواتهم وعواطفهم وأخذت السؤال وألقيته على بعض المتعلمين هناك وذهبوا في ذلك مذاهب شتى وهم يعللون هذه الظاهرة، ظاهرة الصمت، .هل هي الجدية؟ هل هو اختفاء المرأة من الحياة العامة مما كان سببا في ندرة الشعر والفن؟ هل أحدث الثورة وعنقها لم تترك للناس الوقت ليقولوا الشعر وغير الشعر؟ صحيح أن المجتمع في تلك المنطقة يمتاز بالمحافظة الشديدة إلى درجة التزمت، ولكن هذا لا يمنع الإنسان من أن يعبر عن إحساسه ومشاعره تجاه الثورة أو تجاه الطبيعة أو تجاه المرأة أو غير هذا مما يحرك في الإنسان عواطف ومشاعر مختلفة.

قلت لم أجد الجواب عن هذا السؤال وإنما ما كنت أبحث عنه فيما يتعلق بالثورة كنت أبحث عن نماذج عاشوا أحداث الثورة ويعيشون اليوم نعمة الاستقلال، التقيت بهم وتحدثت إليهم وعدت معهم إلى الماضي وبذكرياته ووقائعه، بأحلامه وآلامه، التقيت بثلاثة من المجاهدين فأردت أن أعرف كيف عاشوا بالأمس وكيف يعيشون اليوم؟ كيف يفكرون بعد أن انتصرت الثورة وتحققت الأهداف التي كافحوا من أجلها؟ والواقع أنه منذ ذلك الوقت وأنا أدير في ذهني ما دار بيننا من حديث وأعيده بيني وبين نفسي، وهو يصلح لأن يكون

رواية لما فيه من أحداث متشابكة ووقائع حية مازالت بعض آثارها شاخصة حتى الآن، ويصلح في الوقت نفسه لأن يكون حديثا عن مناسبة من المناسبات، ولكنني أردته أن يكون حديثا لا عن مناسبة الاستقلال ولا عن مناسبة أخرى كالحديث عهن جمع الوثائق الخاصة بمتحف الثورة أو غيرها وإنما أردته حديثا تلقائيا يكشف عن بعض ما يفكر فيه وما يتطلع إليه من عاش الثورة وتحقق بفضلهم الاستقلال.

وسأبدأ الحديث مع ثائر التحق بالجبل سنة 1955 ويعيش الآن في بلدية سيدي عبد العزيز هو «محمد بودودة» وله قصة طريفة تدل على إرادة الإنسان في دأبه المستمر وبحثه الدائم عن الأداة التي يقهر بها الطبيعة أو يقهر بها عدو الإنسان، وهي قصة تثير الإعجاب حقا فهو بالرغم من أنه لم يكن من أصحاب الحرف إلا أنه فكر في اختراع مدفع يكافح به الأعداء، لم أعجب حين سمعت بهذا فقد فعل ذلك قبله ثوار جبل أولاد سلطان بالأوراس أثناء الحرب العالمية الأولى، وإذا كان هؤلاء حاولوا وفشلوا فإنه حاول ونجح بعد إخفاق في البداية إذ أن محاولته الأولى كانت سنة 1956 ولكن المدفع انفجر نهائيا ولم ييأس هذا الثائر بل استفاد من التجربة فعمد إلى اختيار أنبوب أشد متانة من الأول ملأه بالبارود ووضع بداخله قنبلة من تلك التي ألقتها الطائرات الفرنسية يصابون بالفزع والرعب ومنهم من ألقى بنفسه في البحر.

ومنذ ذلك اليوم حمل هذا الثائر مدفعه وأخفاه عن الأعين ورغم أن الجيش الفرنسي بحث عنه طويلا إلا أنه لم يعثر عليه وبعد الاستقلال وجده صاحبه لدى أحد المواطنين فأخذه إلى بيته وهو يفخر به ويضمه إلى صدره في حب ومودة. لقد ارتبط به وأصبح من أعز الأشياء علي نفسه ولكنه مع ذلك على استعداد لتسليمه إلى متحف الثورة.

لقد رأيته يتحدث عنه وهو يحمله على كتفيه رغم ثقله ورأيته كيف يحنو عليه وكأنه أحد أبنائه، وإذا سألته عن الثورة نظر إلى مدفعه وهو يقول: مازلت أحلم بالمعارك وبعنف القتال، إنني أتصور الآن الجيش الفرنسي يطاردنا في الجبال، إن أصوات المدافع والطائرات تطن في أذني، ما كنت أصدق بأنه سيأتي اليوم الذي أعيش فيه نعمة الحرية.

إنه قانع بعمله في البادية فهو حارس يعيش من هذا العمل، وحين يذكر المعارك يذكر معها باستمرار قائده الذي عرف لدى الجميع باسم «البركة» أما اسمه الحقيقي فهو «دخلي مختار» لقد كان هذا المناضل مثار إعجاب كل من حوله ولاسيما أولئك الذين حضروا معه المعارك العنيفة مثل «بودودة»، يتحدثون عن بساطته، عن

إرادته القوية التي لا تلين، ويذكرون ما امتاز به فكاهة صافية وتضحية نادرة وأنه لقب بالبركة لأنه كان يردد هذه الكلمة دائما.

أما الحديث عن المعارك بالتفصيل في تلك المنطقة فغن مجاهدا آخر هو «محمد بوتيرة» هو الذي يفيض القول فيه ويطنب في ذكر الوقائع والأشخاص وهو أيضا من قرية «الجناح» بلدية سيدي عبد العزيز مثل بودودة، التحق بالثورة سنة 1956 وحضر مثل إخوانه معارك مثل معركة بومالح التي قادها «البركة» وأيضا معركة وقعت في «مشتى العرابة» قادها «بواقزية محمد» بعد أن استشهد البركة ومعركة أخرى في «مشتى اعارت» وقادها « محمد بن الطاهر»الذي استشهد هو الآخر فيما بعد، ويذكر أن المعركة التي وقعت في «نارسان» 1955 قد خاضها الثوار ببنادق الصيد ولكن المعركة التي يذكرها الثوار جيدا هي التي استخدمت فيها صخرة كبيرة أطلقت على دبابة في جانفي 1956 ورفعها الثائر« بن حمودة عبد الحميد» بمساعدة «بودودة» وألقيت.فوق الدبابة فأوقفت زحفها وعاقتها عن التقدم.

إن هذا الثائر يعيش اليوم بعرق جبينه، فملفه - كما ذكر لي - ضاع بسبب أغراض شخصية بل بلغ الأمر ببعضهم أن قال له: ادهن السير السير، إذا أراد أن ينال حقه - على حد تعبيره - . ورغم

المرارة التي يجترها فإنه متفائل بالمستقبل ومتفائل بالثورة الزراعية ويطمح إلى تحقيق الثورة الثقافية خاصة وأنه يؤمن بالتعريب، رغم أنه لا يقرا ولا يكتب لكنه يرى في التعريب حقيقة لا تقبل الجدل.

أما النموذج الثالث فهو الثائر «صالح بولحم» الذي هو أيضا من قرية الجناح وقد التحق بالثورة سنة 1955 وكان من أوائل الجنود الذين ثاروا مع «البركة» ويذكر أن الشهيد زيروت يوسف تلقى أول بندقية فرنسية غنمها الثوار في معركة «برج الطهر» وهي التي استشهد فيها الثائر «أحمد بن عياد» كما حضر معركة أخرى في «آدوير» 1957 قادها «البركة» و«محمد بواقزية» ومعركة «الشقفة» 1956 وهو يذكر أنواع الأسلحة التي غنمت في المعارك بل يذكر عددها مثل التي غنموا فيها 30 قطعة ومثل التي وقعت في «واد زكار» بالميلية وغيرها مثل معركة «عقبة سعد الله» و«قوزار» وغيرهما من المعارك التي جرح في إحداها، ويرى هذا الثائر أن أعداء الثورة اليوم غيرهم بالأمس ففي رأيه أن الذي يعادي التعريب هو عدو الثورة بل قال بالحرف الواحد: «لو كان أعداء التعريب قلة لفعلنا بهم مثلما فعلنا بأعداء الوطن أيام الثورة».

إن هذا المناضل يتمتع بوعي حقيقي فهو يتحدث عن الحزب ويطالب بدوره الطلائعي ولكنه يدعو إلى إعادة النظر في بعض من

تسللوا إليه بلا نضال أو ماض ثوري وأمله في التغيير يتمثل في انطلاق ثورة ثقافية تعيد للمجاهد مكانته ليسهم في بناء الوطن.

ويمتاز هذا المناضل بأنه خاض في السياسة قبل الثورة فهو يحلل الواقع ويقارن بين أيام الثورة واليوم، فهو يرى أن كثيرا من الناس بعد الاستقلال أصبح همه الوحيد الجري وراء المادة أما المجاهد الثائر الذي خاض المعارك من أجل الاستقلال، هذا المناضل في الغالب بقي يعاني حتى الآن لأن المجال فتح للانتهازيين المتسللين الذين يحاولون أن يسرقوا ثروة الشعب وثورته أيضا. وهو يرى أن الثورة الزراعية حررت الفلاح من الذل والعبودية وهو متفائل بالمستقبل رغم أنه يعيش من دخل قليل تدره عليه مقهى بالعاصمة.

إن صراحة هؤلاء المجاهدين جعلتني أعود معهم إلى الماضي وأعيش الحلم من جديد بالرغم من أنني أعرف أن حلم الأمس ليس هو حلم اليوم بالضرورة فلكل مرحلة حلمها الخاص ولكل جيل ظروفه وطموحاته ولكن يبقى دائما أن الإنسان يسعى في حلمه نحو الأفضل ويعمل على تغيير واقعه وظروفه، ولقد تغيرت أشياء كثيرة وظهرت أخرى جديدة بعد الاستقلال.

كنت أحس بهذا التغيير في التعاونيات التي تبنى في تلك المنطقة، وأحس بالتغيير في تلك الشعارات التي كتبت بعربية أصيلة

وبخط جميل في الطريق، وستتغير أشياء أكثر حين تعلو مداخن المصانع بهذه الناحية التي تحتاج فعلا إلى هدير الآلة كي تعوضها عن هذا الفقر وتزيد من جمال الطبيعة الباهر.

لست أدري حتى الآن، هل تحدثت عن الإنسان؟ أم تحدثت عن الجبل؟ أم تحدثت عنهما معا؟ ولكن ما أدريه أنني سقت هذه الخواطر لا تكون مقالا بالمفهوم المعروف وغنما لتكون إشارة إلى بعض ما شغل الناس ومازال يشغلهم حتى الآن.

كان إنسان الجبل بالأمس يحلم بالحرية السياسية أما اليوم فهو يحلم بالحرية الاجتماعية، بالمساواة والعدالة، بالاشتراكية. كان يحلم بالاستقلال حين كان الضغط الاستعماري يمسك بروحه وأنفاسه، أما اليوم فيحلم بالتقدم المادي والفكري ويسعى إلى تغيير وضعه ليجد الفرصة له ولأبنائه. كان يشتاق للموت أما اليوم فهو يشتاق للحياة ويصبو إلى مباهجها. كانت أصوات المدافع والطائرات تطارده في يقظته ومنامه وهي اليوم ذكرى في خاطره تدفعه إلى أن يحافظ على حريته وحرية بلاده، كان ثائرا في الجبل وهو اليوم ثائر على واقعه وظروفه والمهم لديه أن تستمر جذوة الثورة مشتعلة لا تخبو نارها مع الزمن.

إن ما يخشاه اليوم حتى يجردوه من سلاحه فينسى الثورة وينسى نفسه وماضيه، ولكن الماضي هو المنبع فالناس حين يشاهدون المصب يتذكرون المنبع بالضرورة.فإذا تذكرنا اليوم الاستقلال فلابد أن نفكر في الثورة وفي الإنسان الذي أشعل نارها وفي الجبل الذي حماها واحتضنها، فقد أصبح جزءا من الثورة. والجبل هو الريف، وهو الأصل والإنسان هو حارس هذا الريف، هو الأصل والاستقلال، والوفاء لهذا وفاء للآخر، وفاء للشهيد، وفاء للقيم التي من أجلها صعد الإنسان إلى الجبل أو نال الشهادة.

هل هذه تحية للثورة وتاريخها؟ هل هي تحية لفجر الاستقلال؟ هل هي تحية للإنسان وللجبل؟

أما أنا فأعرف أنه حديث فرض نفسه علي ودفعني لأكتب ما كتبت لا تعبيرا عن مشاعر بقدر ما هو تسجيل حقائق نقلها قلم تعلم من هؤلاء الناس البسطاء ومازال يتعلم منهم ويجد نفسه بينهم، يجد فيهم الطهر والصفاء كما يجده في هذه الطبيعة الجميلة الساحرة.

الاوراس
في عين كاتب إنجليزي*

كان من الممكن أن أتحدث في هذه المناسبة عن الأوراس في الشعر ولكنني وقد سبق لي أن كتبت دراسة في الموضوع نشرت في كتاب، رأيت أن قول آخر فيه سيكون تكرارا لما سبق أن عالجته في مناسبات مختلفة.

وفكرت في الأمر وفيما يمكن أن أتحدث فيه ولاسيما الندرة تبدي اهتماما بالتاريخ وأنا بعيد عن أي قول وفيما يمكن أن أتحدث فيه ولاسيما الندرة تبدي اهتماما بالتاريخ وأنا بعيد عن أن أكون مؤرخا وإن كنت من هواته والمؤمنين بأثره وتأثيره، فخطر ببالي أن أعرض لكتاب هام صدر باللغة الإنجليزية أو قل أعرض لقضايا وردت فيه من جملة قضايا هامة تتصل بالجزائر - تاريخا واقتصادا سياسة - والكتاب من تأليف كاتب سياسي بريطاني شهير هو: أليستير هورن وعنوانه: «حرب وحشية من أجل السلام» **A Savage war of peace** ويقصد بها بالطبع الحرب التحريرية الجزائرية. وآمل أن تسنح لي

---

* محاضرة القاها المؤلف في مدينة أريس في جوان 1988 في ندوة أقامها اتحاد الكتاب ومحافظة الحزب بباتنة وإتحادية الحزب بأريس.

فرصة أخرى قريبة كي أعرض الكتاب كاملا نظرا لأهميته ولأنه يتناول الجزائر وكفاحها من الهامة مثل ثلاثيته عن الصراع بين فرنسا والألمان وحربهما وهي على التوالي: سقوط باريس، ثمن المجد وخسارة معركة.

أول ما لفت نظري في الكتاب هو المسحة الأدبية التي تنتظمه من بدايته حتى نهايته مما جعلني أقول في نفسي: إذا كان بعض المؤرخين يكتبون في الأدب والفن والنقد فلم لا أجرب حظي في الحديث في التاريخ والسياسة؟! وألحت علي الفكرة بعد أن قرأت فقرات منه ووجدت المؤلف يعني بالأوراس عناية خاصة ويهتم بالحديث عن أريس، إلى جانب اهتمامه بالعديد من المدن والقرى والمناطق الجزائرية، كما لفت انتباهي أيضا اهتمامه بمصطفى بن بولعيد وغيره من الرواد الأوائل الذين كان لهم الفضل في إشعال ثورة نوفمبر المجيدة.

إذن الحديث حول هذا الكتاب فيه الجديد ونحن نجتمع في مسقط رأس بن بولعيد «أريس» وبين أحضان الأوراس الأشم الشامخ فنستعيد شريط الأحداث التي غيرت وجه تاريخ وطننا وبلادنا منذ أكثر من ربع قرن، حتى أصبح الحديث عن ثورة نوفمبر يجعل الذهن يتجه مباشرة إلى الأوراس قبل أن تتجه إلى أي مكان من أرض الوطن

لسبقه وانطلاق الثورة من ذراه السامقة. هو إذن مكان ولكنه يحتل في نفوسنا ومشاعرنا بل وعقولنا مساحة ليست قليلة بما نكنه له من حب واحترام وتقدير، إنه يذكرنا بتلك الأماكن التي غيرت مجرى التاريخ ويعيد إلى أذهاننا تلك المعارك البطولية التي خاضها أبطال الإسلام كي يثبتوا العقيدة أو ينشروها أو يدافعوا عنها مثل غزوة بدر وفتح مكة واليرموك وحطين وغيرها لأن معارك الشرف والحرية والكرامة والعقيدة واحدة، لأن الأماكن تفرض احترامها وتقديرها بما تقدمه للتاريخ من مثل تخلد الإنسان وكفاحه من أجل الحرية والعدل والسلام، وقد فعل ذلك كله الأوراس ومن ورائه الشعب الجزائري وجبال الوطن وأرضه كلها.

يبدأ المؤلف كتابه من الأوراس فيتحدث عن يوم 30 أكتوبر 1954 واصفا الأوراس هذا الوصف المعبر بقوله: «كانت الرياح في الشتاء تصفر عبر جبال الأوراس الشاهقة، تدفع الرعاة لأن يلتحقوا أكثر فأكثر بقشابياتهم الثقيلة الداكنة اللون والتي كانت - مثل قراهم الصخرية - تقدم لهم الحماية الكافية ضد الطبيعة القاسية في الخارج، وللوهلة الأولى تبدو المنطقة للزائر العابر وكأنها خالية من الحياة البشرية ولكنه بعد أن يتوغل في طرق الوادي يشعر بأن كل حركة من حركاته مرصودة بآلاف العيون في القرى المتوارية، كل

عين منها كأنها برج مراقبة على أهبة الاستعداد لإطلاق إشارة الخطر عند مقدم أحد الأعداء...» ص: 88.

فهذا الوصف الجميل للأوراس لا يصدر إلا من له حس أدبي تبهره الطبيعة ويتغلغل في ثناياها ويكتنه ما يدور فيها من رؤى وأحلام تملأ جنبات النفوس، بل إن الكاتب يشير إلى أنه قرأ تاريخ الجزائر والأوراس وعرف أن روح الثورة قديمة وعريقة فيه وفي أهله من خلال أولئك الذين عرفوا بتمردهم على الظلم والطغيان حتى قبل مجيء الرومان إلى هذه المنطقة ممن يطلق عليهم عبارة «عصابات الشرف».

وحين يتحدث عن الزومان وما تركوه من آثار في باتنة وتازولت وتيمقاد وغيرها يركز الحديث على سكان هذا الجبل وكيف حافظوا على ذواتهم من الذوبان على مر العصور، وعلى الرغم مما كان يحدث بينهم من صراعات في الماضي فإنهم يصحبون يدا واحدة حين تهددهم قوة خارجية على حد قوله....ص: 88.

والكاتب يدرك بعمق أهمية الأوراس الاستراتيجي التي استغلتها الثورة وقيادتها ويدرك أيضا روح الثورة التي تجري في دماء الأحفاد مثل الأجداد. ويقول: إن طبيعة المجتمع الأوراسي وتركيبته منذ القديم تعتبر لوحة استغلها رواد نوفمبر بمهارة وذكاء ومن ثمة كانت منه الانطلاقة الأولى وكان لابد أن تكون. وهو يرى أن هنا ك

ثورات سبقت نوفمبر مثل ثورة 1959 و1878 ثم ثورة 1916 وكلها ضد الفرنسيين الذين هم - كما يقول - مثل أسلافهم الرومان لم يستطيعوا أن يخترقوا الأوراس واكتفوا ببناء بعض المدن أو أنشأوا السكك الحديدية لربطه بسواه.

وهو يحدد الأوراس بأنه المنطقة الفاصلة بين قسنطينة وبين الصحراء ويطلق عليها: «أرض الكبرياء الوطني بقممها الشاهقة المدهشة المثيرة للانبهار ولكن يخفف من وحشيتها تلك السهول الضيقة الخصبة على طول الوديان المتعرجة، وهي منطقة غابات تملأها أشجار البلوط والسنديان واللبلاب المتسلق ومعظم أجزاء الأوراس عارية من الأشجار لكنها مليئة بالصخور...»ص:48.

ثم يربط بين هذه الطبيعة وبين ما يعانيه الإنسان فيها فيذكر بالحرف الواحد:

«إن الأوراس من أكثر المناطق - ربما في الجزائر كلها - التي قاست من الفقر الفاجع المرير ألوانا، وهو في هذا يشبه - إلى حد كبير - الحدود الشمالية الغربية الهند...»ص:48.

ومن هنا كانت المنطقة - في رأي الكاتب - مؤهلة جغرافيا ومثاليا للعمل الفدائي، ومن هنا أيضا فإن الحركة الوطنية شرعت

منذ عام 1951 في تشييد نظام سياسي محكم ركب فوق النظام القبلي البسيط دون أن يتجاهله...ص: 48.

كما يسوق مبررات أخرى لقيام الثورة من هنا غير ما ذكر منها مثلا أن السخط قد عم المنطقة وكذلك الصعوبات الاقتصادية التي أعقبت سقوط «ديان بيان فو» فقد لاحظ اثنان ممن تولوا على باتنة من رؤساء الدوائر، قلة احترام السلطة الفرنسية من طرف الأهالي، فمن المنطقي؟ إذن في رأي الكاتب أن تختار قيادة (لجنة الثورة والاتحاد والعمل) الأوراس تحت إمرة ابنها البار مصطفى بن بولعيد كي يكون نقطة انطلاق العمليات الأولى للثورة في فاتح نوفمبر...ص:89.

يعرض الكاتب لنهار 30 أكتوبر فيقول:

«قضاه رجال بن بولعيد في تنظيم أسلحتهم وإعدادها كما يتطلب الموقف، أما اليوم التالي له فإنه اليوم الذي أعطى فيه بن بولعيد أوامره بدقة للثوار من مركز القيادة في غابة بني ملول الكثيفة البعيدة عن العيون وحوله مساعداه شهياني وعجول...»

ويواصل سرد الأحداث بالتفصيل فيذكر الأماكن التي ستكون هدفا للهجوم ويفصل القول عمن قادوا الهجوم والعمليات التي

تركزت حول المدن والقرى والجسور وأسلاك الهاتف وما على ذلك كما هو معروف الآن للجميع. ص: 89- 90 .

ويسوق وصف الهجوم على باتنة فيذكر أن بن بولعيد أعطى الأوامر بعدم ضرب المدنيين ولهذا حين طرقها الحاج الأخضر ورفقته لم يتعرضوا لرئيس الدائرة الفرنسي«ديليبلانك» **DELEPLANQUE** الذي قدم من قسنطينة في الليل مع زوجته حيث حضر حفلا أقامه لهما عامل العمالة حينئذ «بيير دوبوش» **Pierre DUPUCH** ودخل الأول داره دون أن يتعرض له الثوار، ويصف ما حدث بطريقة قصصية فيها وصف لحالة الفرنسيين ونفسيتهم في تلك الليلة فيقول عنهم:

«خلع قميصه، رن الهاتف من محافظ الشرطة ببسكرة، كان منفعلا وهو يقول أنه هوجم وجرح وعلى الفور تحدث بالهاتف مع قائد الدرك بباتنة معلنا حالة الطوارئ ولكنه حين هتف لقائد الجيش في المنطقة وكان برتبة رائد وجده نائما ورد عليه بأنه لن يتحرك إلا بأوامر مكتوبة ومن خلال القنوات الرسمية!! فحاول الاتصال بباريس ولكنه وجد الخطوط مقطوعة وإذا بالمكالمة من قسنطينة تعلن عن قيام ثورة ثورة عارمة تشمل مناطق عديدة في البلاد ولما وضع السماعة تناهى إلى سمعه طلقات في الخارج فصرح قائلا: « آه... لقد وصلت إلى هنا!!» ص:95.

على أن المؤلف يشير إلى أسباب أخرى لثورة نوفمبر مثل انتشار الرشوة وخاصة لدى القضاة. فالقاضي كان يأخذ 2000 فرنكا (أي ما يعادل6 دولارات) كي يسلم المواطن نسخة من عقد الزواج فضلا عن ألف فرنك أخرى للتسجيل وخلافه- على حد قوله.

ويسوق حوارا جرى بين فرنسي هو «جان سيرفيه» **Jean SERVIER** وبين أحد القضاة حول ما يتقاضه هذا الأخير وهو ما يتعارض مع القانون فيذكر القاضي بأن فرنسا هي التي تجبره وأمثاله على ذلك... ويضيف القاضي بابتسامة ماكرة: «بين شعبنا الآن هناك كعكة كبيرة يطلق عليها« أذن القاضي» تحتاج إلى الكثير من العسل لتحليتها(!) ثم إن القاضي لكي يحصل على وسام الشرف أو منصب «القايد» لابد من دفع مائة ألف أو مائتي ألف فرنك....» ص:35.

ويصف الأحداث التي مرت بالأوراس ولاسيما الصدمات التي تعرض لها الثوار، مثلا يشير إلى أن الفرنسيين اعتبروا القضاة على «قرين بلقاسم» نصرا ولكن الكاتب يعتبر هذا النصر مثل «البرق الخلب» أو السهم الطائش لأن جبهة التحرير ازدادت خبرة في الأوراس وزادها ذلك تصميما ووعيا لمواجهة معارك كبيرة مع القوات الفرنسية

المتفوقة عليها عدد وعدة.. «وأصبح الثوار مثل قطعان الجبال يخطون إلى الأمام وكلما تعقبهم الآخرون واصلوا الارتفاع والسموق...».

ويربط بين الحرب وبين الوضع في فرنسا فيذكر أن الحرب في الأوراس بدأت تهبط في عهد «منديس فرنس» على الأسفل وأكثر من ذلك أخذ قوات«الأقدام السوداء» اليائسين في العاصمة يزدادون يأسا... «وبالرغم من أن الموقف في جانب الثوار خلال الشتاء الأول للثورة لم يكن مشجعا إلى حد كبير على مستوى الوطن كله لكن الأوراس وحده هو الذي استجاب بحماس كبير لنداء الجبهة، ولذا فإن الحالة أصبحت خطيرة أسبوعا بعد آخر بالنسبة لفرنسا حتى أن «دوكورونو» وقواته المظلية أصبحوا يطاردون الثوار من منطقة على أخرى بضراوة... لقد كان شتاء قاسيا وخارقا للعادة...» ص:103.

ثم يتحدث عن «برنامج شارل» الذي حاول به أن يهاجم الأوراس بقوة كبيرة سنة 1960 فيذكر بأنها هي المنطقة التي بقيت فيها كتائب جيش التحرير الوطني مؤثرة وفاعلة - وهكذا بالنص - ولكنه قبل أن يتم برامجه هذا أقيل من منصبه في 60/04/23. ص:337.

ويعرض إلى حديث دار بين «ديجول» وبين «مهدي بلحداد» حيث وصلا إلى التحليل والفهم نفسه رغم هذا الرجل كان هو الجزائري

الوحيد الذي كان يرأس دائرة في ذلك الوقت، ويسوق المؤلف رأي «كريبان» **Cerpin** الذي جاء بعد «ماسو» و«شارل» إذ قال: «إن الأوراس صعب وأنا لا أحب أن أدخل الأوراس!!» ص:382.

ويختم كتابه المطول والذي يقع في أكثر من 600 صفحة بهذه الفقرة المعبرة تماما عن نهاية حرب السبع سنوات ونصف المريرة فيقارن بين آثار الرومان وما بقي من آثاره الفرنسيين فيقول: «في كل بضعة كيلومترات على طول السكة الحديدية التي تخترق جبال الأوراس الوحشية مهد ثورة 1954 تقف هياكل أبراج المراقبة الفرنسية الكالحة لكن تأثيرها يبدو أقل بكثير من تاثير الأقواس الضخمة التي بقيت من الرومان في المنطقة القريبة – تيمقاد.

هنا وبالروح نفسها تحاول النساء الشاويات أن يبعن لك مصباحا رومانيا قديما أو ساعة تعود إلى عهد الإمبراطورية الثانية أو خوذة حرب فرنسية تعود إلى خمسين عاما مضت ... كل هذا يبدو أنه يعود وبالقدر نفسه إلى ماض زال وانتهى...».ص:565.

فهو هنا يشير على الاستعمار الفرنسي الذي لم يبق منه أيضا سوى هذه الخوذة رمزا لآثار الحرب التي خاضها شعبنا كي يتحرر من هذا الاحتلال الجديد الذي يذكره بالاحتلال القديم.

ثم يربط بين هذا الذي في الأوراس وبين القرى في سهول متيجة التي بناها الفرنسيون فقد: «اختفت فيها الكنائس تماما وماتت في هدوء..» ويضيف قائلا: «عن الكنيسة التي تبدو كاثوليكية بالعاصمة تبدو نهايتها أسعد حظا من نوتردام دافريك لأنها عادت إلى أصلها كما كانت، مسجدا مفعما بالحركة والحياة...». ص:561.

وهو يشير إلى جامع كيتشاوة الذي عاد كما كان قبل الاحتلال الفرنسي.

حديثه عن أريس: أما حديثه عن أريس فيبدؤه هكذا: «ومن باتنة كان المركز الإداري الوحيد هو تلك المدينة الصغيرة الأليفة، أريس، التي تبدو مثل العش في الوادي، في حضن الأوراس... وقد اعتمد الفرنسيون كلية على الطريق الشمالي الجنوبي للسيطرة على سبعين ألف أوراسي في بلدة أريس التي يحكمها «حاكم الحوز الفرنسي» ومساعدان وسبعة من رجال الدرك... ومن أريس في اتجاه الشرق هناك طرق غير معبدة يؤدي بعضها إلى بعض حتى النمامشة»...ص:89.

وحين يعرض إلى الحرب ومجرياتها يتحدث عن أريس مطولا وعن موقعها الجغرافي الحصين حتى إن الجيش الفرنسي ومن خلفه قوات حلف الأطلسي:« وجدوا أنفسهم عاجزين عن السيطرة على

طريق الأوراس بحيث لم يستطيعوا أن يجعلوا أريس بمنأى عن هجمات الثوار فكان أتعس شتاء مرت به القوات الفرنسية في بداية الحرب...»..ص: 10و101..

ويسوق قصة وقعت فعلا تدل على أهمية أريس التي تمثل قلب الأوراس ودماغ الثورة المفكر فيذكر دور بعض النساء الفرنسيات في معاركها مثل مدام «جيرمين تيليون» وهي من الفرنسيات اليساريات الشهيرات -. كما يقول - وكانت تعمل في مكتب «سوستيل» ويذكر أنها كادت تدفع حياتها ثمنا لمواقفها. ففي سنة 1940 شكلت فرقة مقاومة فرنسية في باريس وعملت ضمن نشاطها على إطلاق سراح بعض سجناء الحرب البريطانيين وساعدتهم على الفرار بعد معركة «دانكرك» المعروفة، وقد ألقى «الجستابو» القبض عليها وكانت الوحيدة من بين قوات أربعة للفرقة التي نجت من التعذيب ومن ثم اعتقلت ثلاث سنوات في سجن النساء المركزي بـ «روفيتزبروخ» الألماني وبسبب نشاطها أثناء الحرب ودورها فيها نالت في فرنسا «وسام الحرب» وعينت برتبة ضابط سام يحمل وسام الشرف.

أما قبل عام 1940 فقد كانت تعمل باحثة في السلالات البشرية مثل «سوستيل» وقد قضت ست سنوات في الأوراس حتى أنها بقيت في إحدى المرات 14 ساعة متواصلة على ظهر حصان أثناء رحلة

أريس ولذا كانت هي أفضل فرنسية تعرف المنطقة معرفة جيدة. وحين قامت ثورة نوفمبر كانت هذه المرأة في نيويورك في مهمة رسمية تتعلق بجرائم الحرب الروسية الألمانية وحين عادت إلى فرنسا استعادها «ميتران» وطلب منها أن تتوجه فورا إلى الأوراس في شتاء الثورة لتقدم تقريرا عاجلا حول الوضع هناك. وقد ذهبت فعلا إلى أريس وللوهلة الأولى يذكر الكاتب أنها صدمت صدمة عنيفة حين اكتشفت مدى الانحطاط الذي وصل إليه مستوى المعيشية في هذه المنطقة بالنسبة لأربعة عشر عاما مضت!! ص:159.

ومما لاحظته هذه السيدة في ذلك الشتاء فيما يتعلق بالفلاحين الأوراسيين قولها: «كانوا يشاهدون قطعان ماشيتهم وهي تموت لقلة المرعى وكان العمال الزراعيون الجوعى يضطرون لأكل بذور حبوبهم التي كان من المفروض أن يزرعوها لتنبت لهم السنابل في العام المقبل...» ص:110.

كما أنها صدمت أيضا بالقدر نفسه حين رأت القبضة الحديدية للسلطة الفرنسية الضاغطة بعنف على قلب الشعب هناك ثم إنها كانت كذلك عضوا في لجنة خاصة بتقصي الحقائق حول الاقتصاد الجزائري في تلك الفترة فقد جاء في تقريرها:« إن مليون جزائري مسلم عاطلون عن العمل كليا أو جزئيا بينما مليونان آخران

دون مستوى العمل المطلوب وحوالي ثلاث أرباع السكان المسلمين يجهلون العربية و90٪ يجهلون الفرنسية!» ص:110.

وبعد عودتها إلى العاصمة قدمت عرضا وافيا عما شاهدت فألحقها سوستيل بمكتبه.

فالمؤلف كما نرى من خلال هذه القصة يقول بأن هذه السيدة كانت ليبرالية متفتحة وأن ما شاهدته من فقر وظلم كان سببا في قيام الثورة ولكنه لا يشير إلى أن سكان الأوراس مثلهم مثل بقية الشعب الجزائري كانت نفوسهم تنزع إلى الحرية والاستقلال بحكم الغريزة فضلا عن العوامل الأخرى المساعدة... فالإنسان لا يثور لمجرد الظلم، والثورات لا تقوم فقط لهذا السبب ولكن إحساس الإنسان بالظلم ثم نزوعه أساسا إلى الحرية والإنعتاق من نير العبودية هما اللذان يدفعانه إلى الثورة. والكاتب في هذا مثل غيره من المؤرخين والكتاب الأوربيين خاصة منهم كتبوا عن تاريخنا أو ثورتنا يبحثون عن العوامل المساعدة والمؤثرات الجانبية من وجهة نظرهم طبعا ويغفلون العوامل الأساسية المحركة للثورات لدى الشعوب التي لخصها عمر بن الخطاب في كلمته الشهيرة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!» ولعل البعض منا اليوم قد تأثروا بمثل هذه الأفكار والأحكام حين يتحدثون عن ثورتنا فينظرون إليها كما لو

أنها أمر عابر في حياتنا نتيجة هذه العوامل التي تحدث عنها هؤلاء الأجانب!

ونعود على كاتبنا لنجد أنه يشير إلى أريس في مواطن كثيرة من كتابه خاصة حين يتحدث عن مصير «شيهاني» واغتيال «بن بولعيد» وغيرها من المناسبات الكثيرة التي يعرض فيها إلى الأوراس ونضال أبنائه. وإذا كان يربط بين الأوراس وبين أريس فإنه في حديثه عنها وعن الثورة يركز على الشهيد بن بولعيد - كما أشرت - بوصفه قائدا للثورة نماذج فقط من حديث المؤلف عنه في مناسبات معينة تاركا التفاصيل لمناسبة أخرى بإذن الله.

مثلا يتحدث الكاتب عن تعليق لأحد الفرنسيين الذين شاركوا في عمليات عسكرية بالأوراس هو «بيتر لوليت» فيقول على لسان هذا الفرنسي: «.. وفي الشهر الأول للثورة اندفعت جماهير غفيرة من أهل الأوراس للالتحاق بالثورة ليس كرد فعل لعمليات التمشيط الفرنسية الرهيبة للمنطقة ولكن أساسا لتأثرهم بذكاء ومهارة بن بولعيد ورفاقه..». ص:159.

وهنا موقف آخر يتصل بهذا القائد البطل سجله المؤلف من خلال الرائد الفرنسي «فانسان مونتي» الذي يمتاز بأنه كان يعرف عدة لهجات عربية ويتحدثها بطلاقة إذ أنه قضى عشر سنوات في

المغرب الأقصى إلى جانب أنه عمل ملحقا عسكريا عدة مرات في بلدان عربية أخرى وفي أيام حكم «منديس فرانس» التحق بـ«كريستيان فوشي» الذي كان يشرف على تسيير الشؤون المغربية والتونسية وبقي هناك حتى استدعاه «سوستيل» للالتحاق بمكتبه.

ويقول الكاتب: وبعد أن باشر عمله أخطر بأن هناك ثائرا عظيم الشأن قد أسر في الأوراس واسمه مصطفى بن بولعيد قد عرف كأحد المؤسسين للجنة الثورة والاتحاد والعمل...». ص:110.

ويستطرد الكاتب في وصف اللقاء بينهما وكيف أن بن بولعيد شرح له أسباب قيام الثورة ودوره فيها وغادر «مونتي» بن بولعيد وفي نفسه انطباع يقيني ثابت بأنه: « أمام رجل مؤمن قوي العقيدة يملأه إحساس عارم بالظلم والإجحاف الذي حل بشعبه...». ص:110.

ثم يتحدث بعد ذلك عن اغتيال بن بولعيد فيذكر أن مجموعة من المنتمين إلى الفرقة رقم11 هي التي خططت وتآمرت على اغتياله ويذكر أسماء كثيرة كانت وراء ذلك. ص:182.

ومن خلال هذا العرض نلحظ اهتمام الكاتب بالأوراس الذي منطلقا للثورة وهو يبدو متعاطفا مع الثوار مثل بن بولعيد ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يذهب بعيدا شأنه - كما تحدثت سابقا - شأن الكتاب الغربيين عموما الذين يصعب أن يتجردوا من أفكارهم

المسبقة عنا وعن تاريخنا وحضارتنا ومع ذلك فالمؤلف - للإنصاف - يبدو في كثير من الأحيان متمتعا بقدر لا بأس به من الموضوعية والحياد، ولكن المصادر التي اعتمدها بعضها ساعده على هذا الموقف وبعضها الآخر الذي يعود إلى الفرنسيين يصعب أن يصعب أن يجد فيه ما يعينه على تحليل الحدث كما نتمناها نحن أصحاب القضية، ولكن يكفي أنه اهتم بتاريخنا الحديث وبثورتنا وعبر عن رأيه الخاص وقرأنا أحداث هذا التاريخ وتلك الثورة بصوت ولسان غير فرنسيين وحبذا لو أتيح لنا أن نطلع على مثل هذه المؤلفات التي كتبها غير الفرنسيين عنا وعن ثورتنا المظفرة.

في زمن الاستقلال

حين طلب إلي الإخوة الكرام في جريدة «الحوار» أن أكتب كلمة عن ذكرى الاستقلال جالت بنفسي خواطر كثيرة، فما أكثر ما تغيرت الأمور من لحظة الاستقلال في يوليو 1962 حتى هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور! وما أكثر ما تغيرنا أفرادا وجماعات! وما أكثر ما تغير من مفاهيم وقيم! وما أكثر ما تغيرت نظرتنا وأفكارنا! ثم ماذا بقي من هذه الأفكار التي راودتنا أيام الاستقلال؟ وماذا ذهب منها؟ هل الأفكار التي تراجعت كانت غير مقنعة فاعتنقناها بدون تأمل واختيار أم هناك أفكار جديدة أقوى منها أجبرتنا على تغيير آرائنا ومفاهيمنا؟!

فهذه الأفكار وهذه الأسئلة وغيرها خامرتني وأنا أفكر في كتابة هذه التأملات - إن صح التعبير - ثم كيف أصف إحساسي الآن وإحساسي يوم أن صافحت قدماي تراب الوطن أيام الاستقلال الأولى مع مجموعة من الأصدقاء؟ كنا ستة من الطلاب قادمين من القاهرة لحضور أول مؤتمر للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين عقد بعد الاستقلال في بن عكنون وهم: محمد برغام، أحمد. فرقاق،

عبد القادر حليمي، رابح بلعيد، خليفة الجنيدي رحمه الله وكاتب هذه السطور الذي كان حينئذ رئيس فرع القاهرة.

ولن أنس ما حييت تلك اللحظة التي قبلنا فيها تراب الوطن بعد غيبة طويلة، ارتمى الإخوة على أرض المطار وعيونهم تدمع ونفوسهم يغمرها الفرح الطاغي مع تشنج واضطراب ومشاعر كثيرة متضاربة يصعب وصفها، في تلك اللحظة شعرنا بأن وطننا قد أصبح لنا وللأجيال القادمة بعد أن كان لأجانب عنا - لغة وعقيدة وفكرا وتاريخا وحضارة - إنها لحظة نادرة في حياتنا ليس من السهل تصوير خلجات النفس أثناءها. إنها ساعة تطلعت اليها أجيال وأجيال وحلم بها آباؤنا وأجدادنا سنين طويلة، بل حلم بها شهداؤنا وما أكثرهم وعانت من أجلها الملايين، فكيف يمكن أن تعبر عنها الكلمة؟ بل كيف تصفها لغة حتى ولو كانت لغتنا العربية الجميلة؟!

إنه من الصعب علي أن استعيد هذه اللحظة كما يصعب آن أكتب عنها مثلما كتبت عنه يومئذ. فلو عدت إلى تلك الأيام لرأيت الفرق واضحا في الإحساس والتعبير والشعور وفي لحظة الكتابة نفسها (فأنت لا تدخل النهر مرتين) كما يقول الفيلسوف اليوناني. عشنا تلك اللحظة في وقتها، في تكونها، في جدتها، في عنفوانها وفي تجسيدها في الواقع بعد ما كانت حلما نداعبه طوال أزمنة قبل الثورة

وأثناءها. كيف يمكنني أن أعيد زمنا هرب مني أبدا مهما حاولت أن أمسك به فإنه يفر شاردا تائها مني! كيف أقبض عليه وقد أصبح من الذكريات؟ إنني أحاول أن أنفخ فيه الحياة من جديد كي يبقى حيا متجددا لألوذ به من إحساسي الحاد اليوم لكنني عبثا أحاول المستحيل!

هذا هو الفرق بين من عاش تجربة ويحاول استرجاعها مرة أخرى وبين من لم يعشها أصلا ومع هذا يريد أن يتمثلها في وجدانه وخواطره ويصهرها في أعماقه لكي تعطيه طاقة متوثبة متوافدة لأن الواقع غير المتخيل والماضي طبعا غير الحاضر الذي نعيشه ونصطلي بناره الآن.

ثم كيف اكتب عن ذلك الزمن وقد تقدم بي العمر فعندما كتبت عنه في سن الشباب كان إحساسي يلونه بألوان زاهية تتعلق فيها الصور بالطبيعة، بالروح، بالحياة، بحماس الفترة المتفجرة؟! كيف أكتب عن زمن كان كل ما فيه يغني ويغرد وكل ذرات الحياة فينا تتراقص وتموج بالمشاعر المتدفقة كأمواج البحر لترسم وجودنا أفرادا وجماعات، فقد أصبحنا أحرارا لا أجنبي يمسك بخناقنا ولا عدو يحصي كلماتنا أو يكتم أنفاسنا ولا دخيل يملي علينا إرادته ويخط مستقبلنا.

وقتها نسينا الجوع ونسي شعبنا العذاب الذي عاني منه طويلا، نسي آلامه كما نسي أحزانه لأنه أصبح ينعم بالحرية في بلده. ارتاح الشهداء في قبورهم، نسي المجاهدون والمعطوبون عاهاتهم وأمراضهم فقد تحققت أحلام الجميع.

ولو سألت شاعرا من شعرائنا في الجزائر أو في أرض العروبة الذين احتفلوا بهذه اللحظة الخالدة وكتبوا قصائد أو على الأقل أبياتا عبروا فيها عن فرحتهم وسعادتهم، لو سألتهم كيف سيكتبون الآن عن تلك اللحظة - إن كتبوا - فسيقولون لك: من الصعب علينا أن نكتب بالإحساس نفسه وبالشعور ذاته! ربما يقولون أيضا: أعدنا إلى ذلك الزمن الرائع وسنكتب الأفضل والأجمل وسنعتني بأصوات ما تغنينا بها من قبل وسنوقع أروع الإيقاعات في أشعارنا وقصائدنا. ذلك أن الشعور هو الذي يعطي للحظة وجودها وللزمن تميزه وللمكان حيزه. فبغير هذا الشعور يبقى الزمن لحظات ميتة تمر بنا دون أن نعطيها أية أهمية بل نسقطها من حياتنا ونبحث عن زمن آخر نحقق فيه ما عجزنا عن تحقيقه في الماضي.

فالمتنبي في قصيدته المعروفة كان لا يتحدث عن عيد معين أو عن زمن محدد إنما كان يصور إحساسه الخاص بالزمن ويصف شعوره الداخلي المليء بالإحباط والمقت والإهانة لأنه لم يقدر كما

ينبغي ولم تحترم موهبته ولم يتحقق طموحه بل تنكر له الآخرون واستغلوه إلى أبعد حد فجسّد لنا هذا في قصيدته التي تعبر عنّا في زمن يشبه زمنه.

كيف يفرح إنسان وهو في قمة الألم وقمة اليأس؟! أعتقد أنه لا أحد يرفض السعادة إلا مرغما ولا أحد يطلب الشقاء إلا إذا فرض عليه فرضا ولا أحد يحب السيطرة إلا إذا كان ضعيفا لا يستطيع مقاومتها وبالتالي لا أحد يحب الموت إلا في سبيل هدف مقدس ونبيل.

ولكن - على العموم - تغير إحساسنا بالموت اليوم بعد أن حدثت ظروف جديدة في حياتنا تغيرات فيها آمالنا وأحلامنا، فنحن الآن نطلب الأمن والاستقرار ونأمل أن تتوقف الدماء التي تسيل كل يوم في حين أننا أيام الثورة وفي زمنها كانت الدماء طريقا للحرية والاستقلال بل كانت النساء تزغرد حين يسقط الشهيد تحت رصاص المحتلين الفرنسيين، أليس الزمن إذن قد تغير وتغير معه إحساسنا ونظرتنا للواقع نفسه وما هذا الواقع إلا لحظات متتابعة - ليلا أم نهارا - نحس بها أو نلغيها حسب استجابتنا أو عدمها؟!

ولو سألت مواطنا اليوم عن شعوره في ذكرى الاستقلال فلعله يجيبك" إنه اليوم الذي تحررت فيه الجزائر!

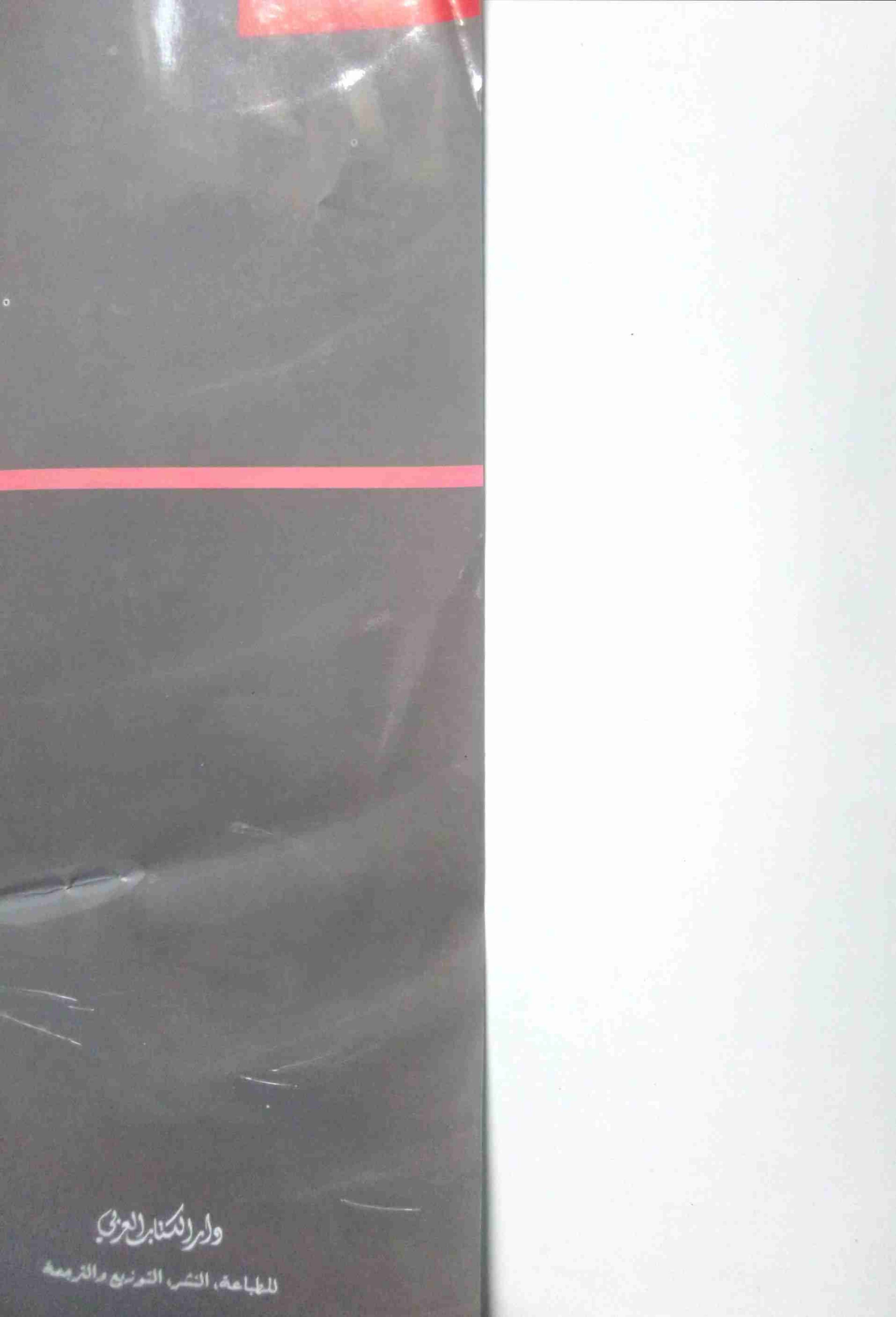
وهذه الإجابة تعبر عن شعور داخلي ينقصه الفرح لأن الحزن هو الطاغي في نفوسنا جميعا - كبارا وصغارا - لما يحدث في بلدنا من مآس ومحن. فكل يوم تشرق فيه الشمس أو تغرب نحس أن وقتنا يتبدد بل يفلت من بين أيدينا وكأن العقول قد توقفت تماما كما توقف إحساسنا بالزمن.

أحيانا أسأل نفسي وأتمنى لو وجدنا شعراء وروائيين وقصاصين لأسألهم: كيف تحسون بهذا الزمن وكيف يكون تعبيركم عنه وما لونه؟ وهل أنتم قادرون على ذلك في ظل الخوف الذي يحيط بنا من كل جانب؟! أم أن زمن الخوف ميت لا قيمة له ولا فعل فيه ومن ثمة فلا تعبير عنه؟! بل خامرني سؤال آخر: هل يرجع زمن الحب والوئام والأخوة كما كان في ثورة نوفمبر المجيدة؟! وهل ستعود علينا ذكرى الاستقلال بزمن نتفاءل فيه بمستقبل سعيد؟!

تحية لأولئك الذين عاشوا أيام المجد وابتسم لهم الحظ فاستشهدوا في وقت كان للعظمة والبطولة طعم خاص، فإليهم أهدي هذه الكلمة هي من وحي أمجادهم الرائعة.

جريدة «الحوار» في: 5 جويلية 1994.

فهرس الكتاب


دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة





دار الكتاب العربي

الأعمال الكاملة

الدكتور عبد الله ركيبي. علامة بارزة في صرح الثقافة والإبداع الجزائري، بما أسداه من أعمال نقدية و أدبية كانت معالم في درب الثقافة والإبداع الجزائري، وبما قدمه من جهود عميقة لإعلاء صرح جزائر الحرية و المجد فقد كان إرادة خيرة وبانية لأسس الانبعاث الفكري والثقافي وانبعاث الوطن الجزائري، فلم يكن الكاتب الكبير عبد الله ركيبي كاتبا وفقط يبحث عن الشهرة والخلود، بل كان قلبا كبيرا حمل هم الوطن وهم الوطن العربي الكبير، وناضل ثقافيا وباستمرار لانتصار قيم البقاء في كيان الأمة العربية الكبرى، وكان جهده بعيد المدى وعميق الأداء فكان إرادة قوية في الدفاع عن اللغة العربية ومقومات الجزائر والعروبة السمحاء بمفهومها الواسع الأصيل المنحدر من اللغة العربية ومقوم الأمة الأكبر، إسلام الحب والسلام والوحدة والحرية.

ويعد الكاتب الكبير عبد الله ركيبي، من جيل بناة مجد الجزائر فلم يفته أساس من أسس بناء مجد حاضر الجزائر الثقافي والفكري والوطني إلا وبذل فيه الجهد الراسخ ليظل شاهدا على مجد كاتب أحب الجزائر من كل القلب، فأحبه أبناء الجزائر حب الأبناء للآباء.

ISBN : 9947 833 63 6



دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة